زوجات النبي

صلى الله عليه وسلم

تأليف

صلاح الدين محمود السعيد

الناشر

دار البيان العربي



زوجات النبي

صلى الله عليه وسلم

اسم الكتاب : زوجات النبي ﷺ

اسم المؤلف : صلاح الدين محمود السعيد

مقاس الكتاب : ١٧ x ٢٤

عدد الصفحات : ٢٩٦ صفحة

عدد الأجزاء : جزء واحد

رقم الإيداع : ٢٢٦٠١ / ٢٠٠٦ م



دار البيان العربي

الأزهر / درب الأتراك ت : ٥١١٨٠٩٧

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمـــــة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾.

(آل عمران: ١٠٢)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلاً سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٧٠، ٧١).

أما بعـــــد:

فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار.

وبعـــــد:

فإن موضوع زوجات النبى ﷺ يأخذ مكانه ــ عادة ــ فى الجزء الأخير من كتب السيرة يتحدث الكتاب فيه عن سيرة أمهات المؤمنين باختصار ويتعرضون فى بعض الأحيان للشبهات التى أثارها بعض المستشرقين حولهن: تعددهن وبعض الأحداث التى مرت فى حياتهن.

وهذا الكتاب الذى بين أيدينا يبين قضية المرأة ودورها فى حياة الرجل والأسرة والمجتمع وفى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وإن كانت هذه القضية مختلف عليها ففريق يرى أن رسالتها العظمى تكمن فى حسن التبعل وإدارة البيت وتربية الأبناء وإعدادهم للحياة، وفريق يرى أن للمرأة حقوقًا تتجاوز هذا الحد وهى تكافئ

حقوق الرجل إن لم تكن بالنوع، فمن يحسم هذا الخلاف؟ تحسمه النصوص الصحيحة وسيرة أمهات المؤمنين اللواتى نزلت النصوص فى بيوتهن وكن التطبيق العملى لهذه التعاليم... طبقن ذلك تحت سمع وبصر النبى ﷺ فسددهن وعلمهن وأطلقهن معلمات لنساء ذلك الحيل ومرشدات لأجيال النساء فيما بعد:

نريد أن نبحث عن الحقيقة فى سيرتهن وعن العظمة التى اكتسبنها فى بيت النبوة فأصبحن المثل الرائد والقدوة المتفردة عبر العصور، إن البحث المستأنى فى سيرة أمهات المؤمنين يكشف لنا أن فى زواجه ﷺ من كل واحدة منهن حكمة، إما تعليمية أو تشريعية أو سياسية أو اجتماعية، ولقد حاولنا أن نتتبع تلك الخيوط ونكشف عنها.

أولاً الحكمة التعليمية:

وهى أهم تلك الحكم وأبقاها فالحكمة السياسية أو الاجتماعية فى حياة أمهات المؤمنين ربما انتهت بانتهاء أسبابها، أما الحكمة التعليمية فباقية، فهى الموصولة بمنبع العلم الناشرة عرفه فى المجتمع الإسلامى، النافذة إلى كل امرأة وفتاة فى ذلك العصر، الباقية أثرًا يقتدى به فى كل العصور.

تروى السيدة عائشة رضى الله عنها أن امرأة من الأنصار سألت النبى ﷺ عن غسلها من الحيض فعلمها كيف تغتسل ثم قال لها: خذى فرصة ممسكة **(أى قطعة من القطن بها أثر الطيب)** فتطهرى بها، قالت: كيف أتطهر بها؟ قال: تطهرى بها، قالت: كيف يا رسول الله أتطهر بها؟ فقال لها: سبحان الله تطهرى بها!!.

قالت السيدة عائشة: فاجتذبتها من يدها، فقلت: ضعيها فى مكان كذا وكذا وتتبعى بها أثر الدم، وصرحت لها بالمكان الذى تضعها فيه.

وفى حديث أم سلمة قالت: جاءت أم سليم **(زوج أبى طلحة)** رضى الله عنهما إلى رسول الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله إن الله لا يستحيى من الحق هل على المرأة من غسل إذا هى احتلمت؟ ففال لها النبى ﷺ: [نعم إذا هى رأت الماء].

فقالت أم سلمة رضى الله عنها: لقد فضحت النساء، ويحك أوتحتلم المرأة؟ فأجابها النبى ﷺ بقوله: [إذًا فبم يشبهها ولدها؟].

وكانت المؤمنات يسألنه عن كل ما يعرض لهن على اختلاف درجاتهن فى الحياء حتى كان بعضهن يشكو إليه هجر بعولتهن لهن اشتغالاً بالتعبد أو لغير ذلك، وكان لا بد من تعليمهن وإنصافهن من بعولتهن.

مثل هذه الأسئلة (الخاصة) كانت تحرج النبى ﷺ فتتولى أمهات المؤمنين شرحها وتبيانها.

تقول عائشة رضى الله عنها: رحم الله نساء الأنصار ما منعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين، كانت المرأة من هؤلاء تأتى إلى السيدة عائشة رضى الله عنها لتسألها عن بعض أمور الدين وعن أحكام الحيض والنفاس والجنابة وغيرها من الأحكام التى تستحى المرأة عادة من ذكرها كآداب المعاشرة والجماع والزينة وغيرها.

ومن المعروف أن السنة المطهرة ليست قاصرة على أقوال النبى ﷺ بل تشتمل على قوله وفعله وتقريره، وكل هذا من التشريع الذى يجب على الأمة اتباعه فمن ينقل لنا أخباره وأفعاله ﷺ فى المنزل غير هؤلاء النسوة اللواتى أكرمهن الله فكن أمهات للمؤمنين وزوجات لرسوله الكريم ﷺ[١].

كان الرجال والنساء يرجعون بعده ﷺ إلى أمهات المؤمنين فى كثير من أحكام الدين ولا سيما الزوجية فمن كان له قرابة منهن كان يسألها دون غيرها.

فكان أكثر الرواة عن السيدة عائشة رضى الله عنها أختها أم كلثوم وأخاها من الرضاعة عوف بن الحارث وابنا أخيها القاسم وعبد الله ابنا محمد بن أبى بكر وحفصة وأسماء بنتى أخيها عبد الرحمن، وعبد الله وعروة ابنا عبد الله بن الزبير من أختها أسماء، وروى عنها غيرهم من أقاربها ممن الصحابة والتابعين وهم كثيرون جدًا.

كذلك كان أكثر الرواة عن السيدة حفصة رضى الله عنها أخاها عبد الله بن عمر وابنه حمزة وزوجه صفية بنت عبيد وأم بشر الأنصارية رضى الله عنهم أجمعين.

وأكثر الرواة عن السيدة ميمونة بنت الحارث رضى الله عنها أبناء أخواتها ولا سيما أعلمهم وأشهرهم عبد الله بن عباس رضى الله عنهم أجمعين.

---

(١) شبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول، محمد على الصابونى ص (١٣ - ١٨).

وأشهر الرواة عن السيدة رملة بنت أبى سفيان ضى الله عنها ابنتها حبيبة وأخوها معاوية وعنبسة وابنا أخيها وأختها رضى الله عنهم أجمعين.

أما السيدة صفية بنت حيى رضى الله عنها فقد روى عنها ابن أخيها ﷺ.

وهكذا نرى كل واحدة من أمهات المؤمنين قد روى عنها عِلْمَ الدين كثير من أولى قرباها ومن النساء والرجال الآخرين، وجملة القول: إن أمهات المؤمنين التسع اللائى توفى عنهن رسول الله ﷺ كن كلهن معلمات ومفتيات لنساء أمته ولرجالها مما لم يعلمه عنه غيرهن من أحكام شرعية وآداب زوجية وحكم نبوية[١].

ثانيًا الحكمة التشريعية:

وأوضح مثال لهذه الحكمة التشريعية زواجه ﷺ من زينب بنت جحش رضى الله عنها، روى البخارى ومسلم عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال: إن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد ابن محمد حتى نزل القرآن ﴿ **ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ** ﴾ (الأحزاب: ٥).

فقال النبى ﷺ: [أنت زيد بن حارثة بن شرحبيل] وقد زوجه ﷺ بابنة عمته **(زينب بنت جحش الأسدية)** ولم يكن زواجها موفقًا فقد كانت تعامله بشدة، ولم تنس لحظة أنها ذات الحسب والنسب وأنه عبد مملوك قبل أن يتبناه النبى ﷺ، وطلق زيد زينب فأمر الله رسوله أن يتزوجها ليبطل بدعة التبنى ويعيد الأمور إلى نصابها.

وخشى رسول الله ﷺ ألسنة المنافقين أن تقول: تزوج محمد امرأة ابنه وفى ذلك ما فيه من حرج شديد، تباطأ النبى ﷺ فى تنفيذ ذلك حتى نزلت الآية ﴿ **وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا** ﴾ (الأحزاب: ٣٧).

كان لا بد من إبطال هذه العادة السيئة وإرجاع الأمور إلى نصابها فكانت حكمة الله أن يتزوج رسول الله من زينب بنت جحش، روى البخارى بسنده أن زينب رضى الله عنها كانت تفخر على أزواج النبى ﷺ وتقول: زوجكن أهليكن وزوجنى الله من فوق سبع سموات.

---

(١) حقوق النساء فى الإسلام محمد رشيد رضا ص (٦٣ – ٦٥).

ثالثًا: الحكمة الاجتماعية:

وهذه الحكمة تتجلى فى أمرين:

الأمر الأول: أنه ﷺ وثق صلاته بالمصاهرة مع أقرب أصحابه إليه، فقد تزوج عائشة بنت أبى بكر ﷺ الذى قال فيه رسول الله: «**ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه بها ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يدًا يكافيه الله تعالى بها يوم القيامة**».

وتزوج من حفصة بنت عمر بن الخطاب ﷺ فكان ذلك قرة عين لأبيها عمر على صدقه وإخلاصه وتفانيه فى سبيل هذا الدين، وعمر هو بطل الإسلام الذى أعز الله به الإسلام والمسلمين ورفع به منار الدين، فكان اتصاله ﷺ به عن طريق المصاهرة خير مكافأة له على ما قدم فى سبيل الإسلام[1].

وكذلك زوج بناته من عثمان وعلى رضى الله عنهما.

وهكذا وثق رسول الله صلاته الاجتماعية عن طريق المصاهرة بأكرم طبقة من الصحابة وأعظمهم دورًا فى خدمة الدعوة.

الأمر الثانى: هو الدور الذى لعبته أمهات المؤمنين فى توعية النساء ورفع مستواهن وحثهن على المطالبة بحقوقهن فكن بحق زعيمات الإصلاح الاجتماعى فى المجتمع المسلم.

كان الناس يترسمون فى معاملة أزواجهم ما يفعله النبى وكان ﷺ معهن لين الجانب حلو العشرة سهل المقادة كن يراجعنه فى كثير من أموره ويرددن عليه حتى صرن قدوة يقتدى بهن بقية النساء، فإذا أنكر زوج حق زوجته فى مراجعته احتجت عليه بعمل رسول الله فأسكتته، وما أطرف حديث عمر بن الخطاب يقص فيه ما جرى له معهن ويصف هزيمته وكيف انكسر لهن، على الرغم من شدته، قال: والله إن كنا فى الجاهلية ما نعد للنساء أمرًا حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم، فبينا أنا فى أمر أئت تمره إذ قالت لى امرأتى: لو صنعت كذا وكذا، فقال لها: وما لك أنت ولما هنا؟ وما تكلفك فى أمر أريده؟.

---

(١) شبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول ﷺ، محمد على الصابونى ص ٢٥.

فقالت لى: عجبًا لك يا بن الخطاب: ما تريد أن تراجع أنت وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان، فآخذ ردائى ثم أخرج مكانى حتى أدخل على حفصة فقلت لها: يا بنية إنك لتراجعين رسول الله حتى يظل يومه غضبان؟ فقالت حفصة: والله إنا لنراجعه، فقلت: تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله، ثم خرجت حتى أدخل على أم المؤمنين أم سلمة لقرابتى منها فكلمتها فقالت لى: عجبًا لك يا ابن الخطاب: قد دخلت فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله وأزواجه؟ فأخذتنى أخذًا كسرتنى به عن بعض ما كنت أحد فخرجت من عندها(١).

لقد ارتفعت مكانة المرأة فى المجتمع الإسلامى وكانت أمهات المؤمنين رائدات التغيير فى ذلك المجتمع قريب العهد من الجاهلية، كانت عائشة رضى الله عنها زعيمة الآخذين بناصر المرأة، والمنافحين عنها بلا منازع وإليها وحدها تتطلع أبصار المستضعفات لما تم لها من المكانة الكبيرة فى العلم والأدب والدين حتى تقطعت دون مقامها الأعناق، وكانت أستاذة لمشيخة الصحابة الأجلاء فى كثير من أمور العلم والدين.

ولبث الخلفاء الراشدون يرعون منزلتها ويشاورونها ويسألونها المسائل ويرجعون إلى رأيها، وهى واقفة بالمرصاد لكبارهم.

تصحح لهم كلما رأت خطأ فى حديث يحدثون به أو حكم يصدرونه، وقد ألف الزركشى كتابًا قائمًا برأسه على الأمور التى استدركتها عائشة على أعلام الصحابة.

بلغها أن عبد الله بن عمرو بن العاص يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رءوسهن، فقالت: يا عجبًا لابن عمرو: يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقض رءوسهن أفلا يأمرهن أن يحلقن رءوسهن؟! لقد كنت أغتسل أنا ورسول الله من إناء واحد وما أزيد أن أفرغ على رأسى ثلاث إفراغات(٢).

أما إذا تعلق الأمر بكرامة المرأة ولو من بعيد فيا لهول ما يلقى المخطىء من عنفها، وإذًا لا يقوم لغضب السيدة شىء: دخل عليها رجلان فقالا: إن أبا هريرة يحدث

---

(١) الإسلام والمرأة، سعيد الأفغانى ص (٤٨، ٤٩).

(٢) الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة، الزركشى (ص ١٢٣).

أن نبى الله كان يقول: **(إنما الطيرة فى المرأة والدابة والدار)** فطارت شقة منها فى السماء وشقة منها فى الأرض وقالت: والذى أنزل القرآن على أبى القاسم ما هكذا كان يقول: إنما قال: **(كان أهل الجاهلية يقولون: الطيرة فى المرأة والدابة والدار)** وبلغها عن أبى هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **(يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب)** (فقالت عائشة معنفة مصححة: أشبهتمونا بالحمير والكلاب والله لقد رأيت رسول الله يصلى وأنا على السرير بينه وبين القبلة مضطجعة فتبدو لى الحاجة فأكره أن أجلس فأوذى رسول الله فأنسل من عند رجليه) فيخضع الأصحاب لفتواها ويزيدونها على الزمن إجلالاً.

وإلى السيدة عائشة رضى الله عنها يرجع الفضل الأكبر بعد رسول الله ﷺ فى تقدير الناس المرأة التقدير اللائق حتى ظهر فى كثير من اللائى طمحن إلى اقتفاء أثرها فى الشجاعة الأدبية والجرأة[١].

ولقد أثمرت هذه السياسة فى رفع شأن المرأة حتى آتت أكلها ورأى النساء فى أنفسهن والرجال سواسية حتى اعتددن بأنفسهن الاعتداد كله وحتى قالت عائشة: **(إنما النساء شقائق الرجال)**.

ولم يأل الرسول فى بث حكمه الغالية فى قلوب الأصحاب وصية بالنساء، كما آنس داعيًا إلى القول.

واستفاضت الأحاديث استفاضة شافية توصى بالمرأة أما وتوصى بها زوجًا وتوصى بها بنتًا وتوصى بها جنسًا[٢].

رابعًا: الحكمة السياسية:

لقد وقفت قريش فى وجه الدين الجديد منذ اليوم الأول الذى أعلن فيه رسول الله دعوته، وكذلك فعلت قبائل العرب، فقد أخذت موقف قريش لما للأخيرة من زعامة أدبية ودينية بين قبائل العرب وكان إصهار النبى إلى بعض البيوتات القرشية أو القبائل العربية الأخرى من الوسائل التى اتخذها النبى ﷺ لكسر حدة الخصومة بينه وبين هذه

---

(١) الإسلام والمرأة، سعيد الأفغانى ص (٤٨ – ٥٢).

(٢) الإسلام والمرأة، سعيد الأفغانى ص (٥٣).

القبائل، فمن المعلوم أن الإنسان إذا تزوج من قبيلة أو عشيرة أصبح بينه وبينهم قرابة ومصاهرة وذلك بطبيعته يدعوهم إلى نصرته وحمايته.

فقد تزوج رسول الله ﷺ من جويرية بنت الحارث سيد بنى الصطلق، وكانت قد أسرت فى الحرب التى دارت بين قومها والمسلمين، فعرض عليها النبى أن يؤدى عنها كتابتها ويتزوجها، ولقد كان زواجًا ميمونًا على عشيرتها، فعندما خرج الخبر إلى الناس قالوا: أصهار رسول الله يسترقون؟ فأعتقوا ما كان فى أيديهم من سبى بنى المصطلق، وعندما علم أبوها بذلك أسلم وأسلم معه قومه.

وكذلك كان زواجه ﷺ من صفية بنت حيى بن أخطب سيدة بنى قريظة فأعتقها وتزوجها.

وكذلك زواجه ﷺ من أم حبيبة بنت أبى سفيان زعيم قريش وقائد جيش المشركين، فلما بلغ الخبر أبا سفيان... أقرَّ ذلك الزواج وقال: هو الفحل الذى لا يقدع أنفه، وكان هذا الزواج سببًا لتخفيف الأذى عنه وعن أصحابه المسلمين وسببًا فى تأليف قلبه وقلب قومه وعشيرته.

وفى هذا الكتاب أستعرض سيرة أمهات المؤمنين رضى الله عنهن أزواج النبى ﷺ فهن القدوة والأسوة، هذا وأسأل الله أن ينفعنى والمسلمين به، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أبو أنس

صلاح الدين محمود السعيد

نساء النبى ﷺ
أم المؤمنين
خديجة بنت خويلد رضى الله عنها

أول الناس إسلامًا، وصديقة المؤمنات الطاهرة خديجة رضى الله عنها.

أولى أمهات المؤمنين وواسطة العقد الفريد فى نساء أهل البيت النبوى وأم أولاده ﷺ.

كانت عاقلة جليلة دينة مصونة كريمة رضى الله عنها وأرضاها.

خصها الله عز وجل بالسلام على لسان جبريل عليه السلام، وبشرها ببيت فى الجنة من قصب.

سيرتها بهجة المجالس، وأنس المجالس، ورحيق مختوم بالمسك رضى الله عنها.

أم المؤمنين
خديجة بنت خويلد رضى الله عنها

الطاهرة وبداية مونقة عنها:

من أين نبدأ أيتها السيدة الكريمة؟.

من أين نبدأ أيتها الأم التى لا يدانى فضلك فضل؟.

إن سيرتك كلها فضيلة فى فضيلة فى فضيلة...

إن حياتك من أول يوم عرفت فيه سيدنا رسول الله ﷺ كلها بركة فى بركة فى بركة، وخير فى خير فى خير، وعطاء فى عطاء فى عطاء...

فالحديث عنك سيدتى بل أمى واسع الآفاق، عميق المدى، ندى العطاء... فيه سُبُحَات مباركات فى بحار أنوار صفائك وسخائك الذى كان قبلة النساء فى هذا المجال...

إن تاريخ النساء فى دنيا التاريخ، لم يحفظ فى أوراقه أن امرأة من فضليات النساء فى دنيا النساء قد فاضت سيرتها بالعطاء والسخاء كما كنت أنت يا أمى..

تناول التاريخ النسوى سير نساء كثيرات، اشتهرت بجانب أو أكثر، ولكنه لم يحدثنا كما حدثنا عنك بأنهن بلغن قمم المكارم فى الفضائل كلها كما بلغتِ أنتِ، وقد

حفظ التاريخ كثيرًا من فضائلك ولكنه على الرغم من ذاكرته الواسعة لم يستطع أن يحصى تلك الفضائل بين دفتيه...

كنت يا أمى ولا تزالين واسطة العقد فى نساء أهل البيت الذى أذهب الله عنه الرجس وطهره تطهيرًا.

أنت يا أم عنوان كل فضيلة وفضيلة فى نساء البيت النبوى الطاهر الذى بارك الله فيه وعليه.

فهل تسمحين أيتها الأم الرءوم أن نتفيأ تحت ظلال سيرتك ساعة لكى تكون زادًا لما فى هذه الحياة التى نحياها، ولتكون تلك السيرة جواز مرور إلى مرتبة الفضل، وسدة العطاء؟.

ما أُحَيْلَى تلكم الأوقات التى نحياها مع أمنا، أم المؤمنين خديجة بنت خويلد[1] زوج رسول الله ﷺ، وأم الذرية الطاهرة، وسيدة نساء العالمين، وقدوة نساء المسلمين!.

إذن، فلنبدأ رحلتنا السعيدة إن شاء الله مع سيرتك المعطار، وفيض غيثك المدرار، ومع وقفات نبيلة كريمة من حياتك، ومن عطائك المستعد من شخصية النبى الرءوف الرحيم حبيبنا محمد ﷺ.

الطاهرة وأنداء الماضى:

هبط ظلام الليل مرخيًا سدوله على مكة...وخيم على الكون سكون عميق... لكن الحركة لم تنقطع حول البيت العتيق، فقد كان الطائفون بالكعبة يقطعون بالابتهال والدعاء ذلك السكون الرقيق.

مع ثلة الطائفين والطائفات كانت خديجة بنت خويلد رضى الله عنها تلوذ بالبيت العتيق يسترها عن عيون رجال قريش هى ونسوة كن معها.

كانت خديجة رضى الله عنها تطوف مع النساء، وتبتهل إلى رب العباد أن يبارك لها فى تجارتها... وفى مالها ويلهمها الرشاد.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ١٠٩ - ١١٧) أسد الغابة (٦/ ٧٨ - ٨٥) الإصابة (٤/ ٢٧٣ - ٢٧٦) الاستيعاب (٤/ ٢٧١- ٢٨١).

كانت راضية النفس، رضية القلب بما حققته من نجاح فى تجارتها، فقد بانت قافلتها إلى الشام مع قوافل قريش... كانت راضية بما بلغته من شأوٍ فى التجارة، وبما وصلت إليه فى سلطان المال، وفى سلطان الجاه.

ويبدو أن فكرة وقادة قد لمعت فى ذهنها وهى فى طوافها، وبرزت الفكرة فى مخيلتها بشكل واضح، فنقلتها إلى ظلال ماض قريب، إلى ذكريات ما زالت تتداعى حتى أخذت مساحة واسعة فى ذهنها المتوقد، وعقلها الحصيف.

صحيح أنها سعيدة الآن فى تجارتها، إلا أن سعادتها فى حياتها الزوجية قد اضطربت وتمزقت أكثر من مرة، ولم تعرف إلى قلبها الكبير سبيلاً، بل تعثرت منذ بدايتها.

كان قلب خديجة يهفو إلى حياة زوجية هانئة رفيعة وادعة مؤججة بالعواطف، فيها سمو وبذل وتضحية وكفاح فى سبيل تحقيق غاية سامية نبيلة...

تزوجت أبا هالة بن زرارة التميمى، ولما تبلغ الخامسة عشر ربيعًا من عمرها، راحت تسعى ليكون زوجها سيدًا بين سادات الرجال المعدودين فى الجاه والشرف والسيادة... ولكن الموت غيبه فأطفأ بريق أحلامها فقد توفى قبل أن يكون شيئًا مذكورًا، وقبل أن يسلك ويغدو رجلاً مشهورًا.

انقضى زمن على موت أبى هالة بن زرارة التميمى، فتقدم لخطبتها أحد أشراف قريش وهو عتيق بن عابدين عبد الله المخزومى، فتزوجته ولكن هذا الزواج لم يدم طويلاً.

أصبحت خديجة بلا زوج مرة أخرى، قبل أن تبلغ الخامسة والعشرين وهكذا انتهت هذه الفترة العصيبة من حياتها، ثم تلاشت ذكرياتها الأليمة ودفنت فى أغوار الماضى ودهاليز النسيان.

كانت خديجة رضى الله عنها امرأة عالية الهمة، واسعة الأفق، مفطورة على التدين والنقاء والطهر، حتى عرفت بين أترابها من نساء قريش بـــ «الطاهرة» وناهيك بهذه الصفة التى ارتقت بها فجعلتها فى سماء السُّـبَّق إلى ساحة المعالى وذر الفضائل.

اتخذت السيدة خديجة لنفسها طريقًا جادًا بعيدًا عن الأهواء والنوازع والرغبات، ولم تَلْهُ مع النساء اللاهيات، على الرغم من شغف النساء عمومًا باللهو والسهر والترفيه، غير أن هذه المغريات كلها لم تغْر خديجة مهما كان نوعها.

كانت السيدة خديجة مشغولة عن الناس، وعن التحدث فى أمورهم بالبحث والسؤال عما وراء هذه الحياة، ولعلها كانت تسأل عن الأنبياء والرسل وقد أبعدها هذا التفكير السامى عن لغو الحياة ولهوها، فارتفعت إلى مقام محمود بين نساء مكة جعلها تفوز بلقب سيدة نساء قريش.

كانت خديجة رضى الله عنها تصغى بعض الأحيان إلى أحاديث ابن عمها ورقة ابن نوفل عن الأنبياء والمرسلين، وعن الدين، وكانت أحلامها المجنحة كثيرًا ما ترفرف فى سماوات عالية من الفضل والفضيلة فى وقت لم تكن لتصل إليها أمانى أهل عصرها من رجال أو نساء.

غير أنها كانت تشعر بان شيئًا ما يعزز أحلامها، ويزرع الطمأنينة فى نفسها الكبيرة المشرقة، ولكنها لم تكن لتدرك جلية هذا السر، ولكنها تحس به، بل تتوقع بحدسها أن حدثًا ما ينتظرها، وكان يساورها شعور بهذا لا يتوقف، وقد ملأ عليها إحساسها وتفكيرها، ولكن متى، وأين، وكيف؟ هذا ما لم تستطع أن تتنبه له، أو تعلم شيئًا عن كنهه، فكيف الطريق إلى هذا السر؟! هكذا كانت السيدة خديجة تحدث نفسها بين حين وآخر.

الطاهرة ورؤيا نورانية:

فى ليلة غابت نجومها، واحلولك ظلامها، ورق نسيمها، جلست خديجة فى بيتها بعد أن طافت بالكعبة ومن ثم دلفت إلى فراشها وقد ارتسمت على شفتيها علائم الرضا والابتسام، لم يدر فى ذهنها أى خاطر فى ذلك الوقت، وما أن أسلمت جنبها للرقاد حتى استسلمت لنوم هنى، ورأت فيما يرى النائم شمسًا عظيمة تهبط من سماء مكة لتستقر فى دارها وتملأ جوانب الدار نورًا وبهاء ويفيض ذلك النور من جارها ليغمر ما حولها بضياء يبهر النفوس، قبل أن يبهر الأبصار بشدة ضيائه.

قعدت خديجة من نومها، وراحت تدير عينيها فيما حولها فى دهش، فإذا بالليل لا يزال يسربل الدنيا بالسواد، ويجثم على الوجود والموجودات، وإذا بالنسيم العليل يجاذب

الليل أطراف الأحاديث، بيد أن ذلك النور الذى بهرها فى المنام ما زال مشرقًا فى وجدانها ساطعًا فى أعماقها، كما تسطع النجوم الزاهرة فى وسط السماء الصافية.

مرت لحظات تتبعها لحظات، والنور والإشراق لا يفارقان وجدان خديجة... بعد لحظات تمددت لتعاود رقادها، ولكن الوسن لم يطف بعينيها، بل صحا ذهنها، وخفق قلبها، وأشرق عقلها، وتألق تفكيرها...

أخذت تستعيد من جديد هفهفة ذلك الحلم، وتلك الرؤيا، وهى موزعة النفس بين مشاعر شتى من الأمل والرهبة، والماضى والحاضر، إنه حلم غريب حقًا! جميل حقًا! تساءلت خديجة: «شمس فى دارى؟ نور يضىء الدنيا من هذا البيت؟ إن هذا لشىء عجيب!!».

تنفس الصبح وغادر الليل الدنيا مجررًا ذيوله، فغادرت خديجة فراشها، ومع بزوغ الشمس، وصفاء الكون، كانت الطاهرة خديجة فى طريقها إلى دار ابن عمها ورقة بن نوفل، لعلها تجد عنده تفسيرًا لحلمها البهى فى تلك الليلة المباركة الصافية.

دخلت خديجة على ورقة، فألفته كعادته عاكفًا على قراءة صحيفة من الصحف السماوية التى شغف بها، وما أن مس صوتها سمعه حتى رحب بها وقال متعجبًا:

خديجة؟ الطاهرة؟.

قالت: «هى، هى».

قال فى دهش: «ما جاء بك الساعة؟».

جلست خديجة، ثم أخذت تقص عليه ما رأت فى منامها حرفًا حرفًا، ومشهدًا مشهدًا، كأنه يراه بعينه...

كان ورقة يصغى إلى خديجة فى اهتمام جعله ينسى الصحيفة فى يده، وكأن شيئًا ما نبه إحساسه وعقله، وجعله يتابع سماع الحلم إلى النهاية...

انتهت خديجة من كلامها فتهلل وجهه بشرًا، وارتسمت على شفتيه ابتسامة رضى، وقال لخديجة فى هدوء ووقار: «أبشرى يا ابنة العم... لو صدقت رؤياك ليدخلن نور النبوة دارك وليفيضن منها نور خاتم النبيين...» الله أكبر... ماذا تسمع خديجة؟ وما الذى يقوله ابن العم؟ وَجَمت لحظات... سرت فى بدنها قشعريرة، جاشت فى صدرها

عواطف مشبوبة زاخرة بالأمل والرحمة والرجاء... تحركت فى ذهنها أشياء بدأت تتوضح...

كانت الأشياء بالأمس سرًّا، بدأت غيوم من الغموض تتقشع عن تلك الأشياء، لا ريب أن ورقة عنده علم من الكتاب، وعلم عن هذه الأشياء الغامضة التى تنساب إلى صدرها، وتستقر فى نفسها ووجدانها.

أفاقت من شرودها الذى دام لحظات وانتبهت إلى ورقة وهو ينظر إليها، فلم تشأ خديجة أن توصد ذلك الباب الذى انفتح على أعظم نبأ تبحث عنه منذ زمن بعيد... شرعت تسأل ورقة عن خاتم النبيين وعن صفته، وعن أحواله، وورقة يجيب فى هدوء العلماء العارفين، كانت خديجة سعيدة تعى ما يقوله ورقة حرفًا حرفًا، وكلمة كلمة، وجملة جملة، وفى عقلها الصافى اختزنت كل المعلومات والمعارف التى ذكرها ورقة عن خاتم النبيين، ورسول رب العالمين.

ظلت خديجة رضى الله اعنها تعيش على رفرف الأمل، وعبير الحلم الذى رأته، فعسى أن تتحقق رؤياها، وتكون مصدر خير للبشرية، ومصدر نور للدنيا، فقد كان قلبها الكبير منبعًا للخيرات أما عقلها فكان يستوعب كل ما حولها من أحداث بشكل يتفق مع حياتها المفعمة بالخير والعطاء والنقاء.

كانت خديجة رضى الله عنها إذا تقدم إليها سيد من سادات قريش لخطبتها، تقيسه بمقياس الحلم الذى رأته ومقباسه، والتفسير الذى سمعته من ورقة لتسير على أساسه... ولكن إلى الآن لم تنطبق صفات خاتم النبيين على الذين تهافتوا على خطبتها، فكانت تردهم ردًّا جميلاً، وتخبرهم أنها لا تود الزواج، فقد كانت تنظر بفراستها إلى أن القدر الإلهى يدخر لها شيئًا جميلاً لا تدرى ما هو، لكنها تستشعر أن منه ما يدخل الطمأنينة إلى قلبها، والارتياح إلى نفسها.

ذكر أهل الأخبار أنه كان لنساء قريش عيد يجتمعن فيه عند الحرم، وفى أحد الأعياد، خرجت خديجة من بيتها نحو الكعبة وطافت بها وراحت تبتهل إلى الله وتدعوه فى صدق أن يحقق لها حلمها، ثم انطلقت نحو نسوة كى بالقرب من الكعبة، وجلست معهن ثم أخذن يتجاذبن أطراف الحديث، وطرائف الأخبار، فى تلك الأحداث قطع حديثهن صوت وقف بالقرب منهن، صارخًا بأعلى صوته: «يا معشر نساء قريش...»

فالتفتت النسوة إليه فأصخن السمع فقالت: «يا معشر نساء قريش، إنه يوشك فيكن نبى، فأيتكن استطاعت أن تكون فراشًا له فلتفعل».

ويظهر أن النسوة حسبنه يهذى، فرماه بعضهن بالحصباء، وبعضهن الآخر قذفنه بسيل من الشتائم والسباب، بينما قبحنه أخريات وأغلظن له القول، وبعضهن أغضى عن قوله، فما ألقين له بالاً، ولا سمعن منه مقالاً.

أما الصحيفة خديجة فقد خفق قلبها، ولاح سعدها، فحديث هذا الرجل أثار ذكرياتها، وأعاد إلى ذاكرتها حلمها الذى ليس هو ببعيد...

إن ذلك الرجل ليس يهذى، وليس بمجنون بل إنه يعى ما يقول، فقد أعلن على الملأ أن نبيًا قرب وجوده، وهو يدعو من استطاع من نسوة قريش أن تكون زوجًا له، وخديجة قد رأت فى منامها أن الشمس هبطت من سماء مكة لتستقر فى دارها... أشياء كثيرة ازدحمت فى ذهن خديجة... أفكار ازدهرت فى مخيلتها تساءلت: «أيكون ذلك كله عبثًا؟! كلا ورب هذا البيت...» إنها تحس فى نفسها الصافية أن رؤياها ليست أضغاث أحلام، ولا تخيلات ولا أوهام، وأن ما ذكره الرجل ليس عبثًا، وأن ما قصه عليها ورقة بن نوفل من بشارات فى التوراة الإنجيل والصحف عن النبى المنتظر ليس عبثًا أيضًا، بل ليس مصادفة، إن ذلك كله مجتمعًا لا بد له من حقيقة ستكون فى يوم من الأيام ساطعة... واضحة وضوح الشمس عند الظهائر...

ترى متى يكون هذا اليوم؟ وهل هو قريب؟!..

الطاهرة ترسل إلى محمد:

كانت خديجة بنت خويلد تعرف محمد بن عبد الله حق المعرفة، فعمته صفية بنت عبد المطلب زوجة أخيها العوام بن خويلد، وقد ترامت إلى أسماعها سيرته العطرة، وأخباره المباركة، فودت لو أنه عمل لها فى تجارتها، ولكنها كانت تعتقد أن فى تجارة بنى هاشم منفسًا له، وما درت أن كثرة العيال قد ذهبت بتجارة أبى طالب، وأن حمزة ابن عبد المطلب قد شغل بالقنص والصيد والفتوة عن التجارة، وأن العباس بن عبد المطلب يخرج هو فى تجارته...

ويبدو أن أبا طالب عم النبى ﷺ قد رغب إلى ابن أخيه محمد ﷺ أن يعرض نفسه على خديجة بعد أن ذكر له قلة ماله، وأن الزمان قد اشتد علـيه، ونصحه أن يـتجر بما لها، فلعل الله أن يسوق له رزقًا حسنًا من مالها الممدود.

روى سيد الناس رحمه الله فى «العيون» خبر تجارة سيدنا محمد ﷺ بمال خديجة بسند رفعه إلى نفيسة بنت منية أخت يعلى بن منية قال: «لما بلغ رسول الله ﷺ خمسًا وعشرين سنة، وليس له بمكة اسم إلا الأمين لما تكاملت فيه من خصال الخير، قال له أبو طالب: يا بن أخى، أنا رجل لا مال لى، وقد اشتد الزمان علينا، وألحت علينا سنون منكرة، وليس لنا مادة ولا تجارة، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك فى عيرانها، فيتجرون لها فى مالها ويصيبون منافع، فلو جئتها فعرضت نفسك عليها، لأسرعت إليك وفضلتك على غيرك لما يبلغها عنك من طهارتك وإن كنت لأكره أن تأتى الشام، وأخاف عليك من اليهود، ولكن لا نجد من ذلك بدًا، وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام فتكون عيرها كعامة عير قريش، وكانت تستأجر الرجال، وتدفع إليهم المال مضاربة، وكانت قريش قومًا تجارًا، ومن لم يكن تاجرًا من قريش فليس عندهم بشىء، فقال رسول الله ﷺ: «فلعلها ترسل إلىَّ فى ذلك» فقال أبو طالب: إنى أخاف أن تولى غيرك فتطلب أمرًا مدبرًا... وبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له، وقبل ذلك بلغها ما بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، فقالت: ما علمت أنه يريد هذا، ثم أرسلت إليه، فقالت: إنه دعانى إلى البعثة إليك ما بلغنى من صدق حديثك وعظم أمانتك، وكرم أخلاقك، وأنا أعطيتك ضعف ما أعطى رجلاً من قومك، ففعل رسول الله ﷺ ولقى أبا طالب فذكر له ذلك، فقال: «إن هذا لرزق ساقه الله إليك» فخرج مع غلامها ميسرة حتى قدم الشام، وجعل عمومته يوصون به أهل العير حتى قدم الشام، فنزلا فى سوق بصرى فى ظل شجرة قريبًا من صومعة راهب يقال له: نسطورًا، فاطلع الراهب إلى ميسرة ــ وكان يعرفه ــ فقال: «يا ميسرة، من هذا الذى نزل تحت هذه الشجرة؟»».

فقال ميسرة: «رجل من قريش من أهل الحرم».

فقال له الراهب: «ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبى».

ثم قال له: «فى عينيه حمرة» قال ميسرة: «نعم، لا تفارقه».

قال الراهب: «هو هو، وهو آخر الأنبياء، ويا ليت أنى أدركه حين يؤمر بالخروج» فوعى ذلك ميسرة، ثم حضر رسول الله ﷺ سوق بصرى، فباع سلعته التى خرج بها واشترى، فكان بينه وبين رجل خلاف فى سلعة، فقال الرجل: «احلف باللات والعزى».

فقال رسول الله ﷺ: «ما حلفت بهما قط وإنى لأمر فأعرض عنهما».

فقال الرجل: «القول قولك».

ثم قال لميسرة وخلا به: يا ميسرة هذا نبى تجده أحبارنا منعوتًا فى كتبهم، فوعى ذلك ميسرة، ثم انصرف أهل العير جميعًا.

كان ميسرة يرى رسول الله ﷺ إذا كانت الهاجرة يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو على بعيره، وكان الله عز وجل قد ألقى على رسول الله ﷺ، المحبة من ميسرة، فكان كأنه عبد لرسول الله ﷺ، وباعوا تجارتهم، وربحوا ضعف ما كانوا يربحون، فلما رجعوا فكانوا بمر الظهران، قال ميسرة: «يا محمد» انطلق إلى خديجة فأخبرها بما صنع الله لها على وجهك فإنها تعرف لك ذلك، فتقدم رسول الله ﷺ حتى دخل مكة فى ساعة الظهيرة ـ وخديجة فى عِلِّية لها معها نساء فيهن نفيسة بنت منية ـ فرأت رسول الله ﷺ حين دخل وهو راكب على بعيره، وملكان يظلان عليه، فأرته نساءها، فعجبن لذلك ودخل عليها رسول الله ﷺ، فخبرها بما ربحوا، فسرت بذلك، فلما دخل عليها ميسرة أخبرته، فقال لها ميسرة: «قد رأيت هذا منذ خرجنا من الشام» وأخبرها بقول الراهب نسطورًا، وقول الآخر الذى خالفه فى البيع، وربحت فى تجارتها ضعف ما كانت تربح، وأضعفت لرسول الله ﷺ ضعفف ما سمت له...

الطاهرة وأطياف من الذكريات:

يبدو أن سيدتنا خديجة رضى الله عنها قد وعت جيدًا ما أخبرها به غلامها ميسرة عن كرامة محمد ﷺ، فذهبت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وقصت عليه ما حدثها به غلامها ميسرة عن أخبار محمد ﷺ، وعما فعل الأمين فى رحلته، فقال لها ورقة: «إن كان هذا حقًّا يا خديجة، إن محمدًا نبى هذه الأمة، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة منتظر هذا زمانه».

شغلت خديجة بأحاديث متنوعة وذكريات قريبة العهد، فقد شغلت بحديث ميسرة عن محمد ﷺ، وبقول ابن عمها ورقة: إن محمدًا نبى هذه الأمة، واحتل الحلم ــ الذى رأت فيه الشمس تهبط من سماء مكة لتستقر فى دارها ــ كل تفكيرها، وصار صوت ورقة يتردد فى أعماقها: «أبشرى يا ابنة العم، لو صدقت رؤياك ليدخلن نورالنبوة دارك، وليفيضن منها نور خاتم النبيين».

وطافت بذهنها ذكرى أخرى، ذكرى يوم العيد الذى خرجت فيه نساء مكة إلى الكعبة، تذكرت ما قاله ذلك الرجل هنالك «يا معشر نساء قريش، إنه يوشك فيكن نبى قرب ظهوره، فأيتكن استطاعت أن تكون فراشًا له فلتفعل».

كانت خديجة تطلق لخيالها العنان ليحلق كيف شاء وأنى شاء، فهذا سيل الذكريات يتدفق على خيالها فيملأ حياتها أنسًا وسرورًا.

إن الدلائل لتشير إلى أن محمد بن عبد الله ذو شأن، فهو خير أهل مكة، وأفضل أهل الحرم، فإذا لم تكن النبوة فيه، ففيمن تكون؟!.

الرهبان والكهان، بشروا به وبقرب ظهوره، وتكلموا عن علاماته وموطنه، حتى إن ابن عمها ورقة الذى أنفق عمره فى النظر فى الكتب القديمة، وعرف اللغات الأخرى قال لها: «إنه نبى هذه الأمة».

ثم إن خديجة هى نفسها لتحس إحساسًا خاصًّا، بأن محمدًا ﷺ ليس كغيره من الناس، أو من رجالات قريش...

انتقلت خديجة من أطياف ذكرياتها إلى الواقع الذى تحياه، نظرت وفكرت فى محمد ﷺ، فإذا هو يملأ شطر خيالها، إن شخصيته كانت أقرب إلى هالة من نور تشرح الصدر، وتملأ النفس نقاءً وضياءً، وتوقظ فى الوجدان عوامل الخير والعطاء.

إن محمدًا ﷺ هو هو... هو الذى خُلق ليكون سيدًا، ليكون راعيًا للبشر، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه أحبه، فهو لطيف المحضر، يصل الرحم، ويصدق الحديث، هو الأمين، وهو أصدق الناس لهجة وأوفى الناس ذمة، لكأنما خلق من مكارم الأخلاق، فهو على خلق عظيم، وخلق كريم، أحب الناس، وأحبه الناس، بل استولى على قلوبهم برفقه ورقته ودماثة خلقه.

اجتمعت الدلائل الواضحة والقرائن الأكيدة عند خديجة بأن سيدنا محمدًا ﷺ هو الرحيق الصافى الذى يختم به الأنبياء، فباتت ترجو أن تكون زوجًا له ولكن أين الطريق إلى ذلك؟! وكيف تسلكه؟!.

الطاهرة ورغبة مباركة:

كان تقدير خديجة رضى الله عنها لسيدنا محمد ﷺ تقديرًا واقعيًا، دافعًا لها على أن تفكر فى شأنه تفكيرًا آخر أكبر من كونه يتجر فى مالها فتربح ويربح.

عرفت محمدًا ﷺ بما عرفه به قومه أمينًا صدوق الحديث، عزوفًا عن الدنايا، طموحًا لعوالى الأمور ومكارم الأخلاق، متساميًا بنفسه عن مغامز المروءة، كسوبًا للخير، فعالاً له، داعيًا إليه، بل إن خديجة قد عرفت محمدًا ﷺ أكثر مما عرفه قومه وذووه.

إن خديجة الآن امرأة خلية من الزوج، شريفة حسيبة، ذات مال كثير، يحتاج إلى يد أمينة تدبره وتنميه وتحوطه، ثم إن محمدًا ﷺ فى ذروة الشرف من قومه وقومها، أليس هو سليل عبد المطلب شريف قريش وسيدها؟! بلى... أوليس هو أنبل فتى وأعقله، وأعظمه أمانة، وأكمله مروءة؟! ثم إنه خلىٌّ هو الآخر لم يتزوج وقد بلغ سن اكتمال الشباب فما يمنعها أن تكون زوجًا له، وما يمنعه أن يكون زوجًا لها؟!.

علمت خديجة رضى الله عنها وهى ذات الشرف الطاهر، والمال الوافر الظاهر، والحسب الفاخر، أن محمدًا ﷺ حاله حال التقى والزهد والحياء، وهذه السمات فيه سجية وطبيعة فى تكوينه الخلقى والخلقى يراه كل من تعامل معه جليًّا لا غموض فيه، زد على ذلك ما حملته الأخبار لخديجة من قرب ظهور النبى الخاتم، وما أشيع عن بعض صفاته وأنها لا تعدو محمدًا، خصوصًا إذا ما أخذت بعين الاعتبار رواية ميسرة فى سفرته التجارية معه، وما أخبر به الراهب المتعبد: «إن هذه الشجرة ما نزل تحتها إلا نبى» فبسبب ذلك خطبته خديجة، وعرضت نفسها بطريقتها الخاصة عليه، وما أحسن بلوغ الأذكياء ما يتمنونه، ولله در البوصيرى عندما أشار إلى ذلك فى همزيته اللطيفة الشهيرة:

ورأته خديجة والتقى والزهـــ ـــد فيه سجية والحياء

وأتاها أن الغمامة والسر ح أظلته منهما أفياء

وأحاديث أن وعد رسول اللـــ ـــه بالبعث حان منه الوفاء
فدعته إلى الزواج وما أحـــ ـــسن أن يبلغ المنى الأذكياء

عرفت خديجة كل شيء عن محمد ﷺ، عرفت كل خصائله وحصائله، ولكن ما الطريق الذى يوصلها إليه؟! إذن فلتدمى إليه صديقة من صديقاتها اللاتى تثق بهن، ويعرفن رغباتها، ومن ثم تلقى إليها هذه الرغبة حتى تعرف مكانها من نفسه.

روى ابن سعد من طريق شيخه محمد بن عمر بن واقد الأسلمى الواقدى عن نفيسة بنت منية قالت: «كانت خديجة بنت خويلد امرأة حازمة، جلدة شريفة، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير، وهى يومئذ أوسط قريش نسبًا، وأعظمهم شرفًا، وأكثرهم مالاً، وكل قومها كان حريصًا على نكاحها لو قدر على ذلك، قد طلبوها وبذلوا لها الأموال فأرسلتنى دسيسًا إلى محمد ﷺ بعد أن رجع من غيرها من الشام».

فقلت: «يا محمد ما يمنعك أن تزوج؟».

فقال: «ما بيدى ما أتزوج به».

قلت: «فإن كفيت ذلك ودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة، ألا تجيب؟».

قال: «فمن هى؟».

قلت: «خديجة...».

قال: «وكيف لى بذلك؟».

قلت: «علىَّ».

قال: «فأنا أفعل».

فأرسلت إليه أن ائت لساعة كذا وكذا، وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها فحضر، ودخل رسول الله ﷺ فى عمومته، فزوجه أحدهم، فقال عمرو بن أسد: «هذا البضع لا يُقرع أنفه» وتزوجها رسول الله ﷺ، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وخديجة يومئذ بنت أربعين سنة، ولدت قبل الفيل بخمس عشرة سنة.

ظهر الطريق وسهلت مهمة الصديقة خديجة ودعى محمد ﷺ إلى الجمال والشرف والعقل والكمال، إلى خديجة بنت خويلد سيدة نساء قريش وأطهرهن، فأجاب كفء كريم، وزوجها عمها عمرو بن أسد وزوج محمدًا ﷺ عمه.

كانت خديجة رضى الله عنها فى سن اكتمال الأمومة ونضجها وكان محمد ﷺ فى سن اكتمال الشباب واستوائه، وفى هذا من أسرار الموافقات النفسية ما يجعلنا نعجز عن أداء ذلك بالكلام، لأن محمدًا ﷺ كان إلى عاطفة الأمومة وحنانها وبرها أدنى منه حاجة إلى عاطفة الزوجة وحبها، وخديجة رضى الله عنها كانت هى الزوجة فى حبها، وهى الأم فى حنانها وبرها، ومن ثم كانت امرأة واحدة فى تاريخ الدنيا لم تتكرر فى الحياة.

الطاهرة وخطبة الزواج:

فى بيت خديجة رضى الله عنها كانت ثلة من رجال بنى هاشم منهم سيدنا وحبيبنا محمد ﷺ وأعمامه: حمزة والعباس، وصديقاه: أبو بكر، وعمار بن ياسر، وجمع المجلس ابن عمها ورقة بن نوفل وابن أخيها حكيم بن حزام، بينما كانت صفية وعاتكة ابنتا عبد المطلب عند خديجة، وبعض نسوة من صويحباتها وإمائها.

فى تلكم اللحظات ما كان أحد يقدر ذلك الموقف مثل خديجة الطاهرة سيدة نساء قريش، فكأنما قد رفع عن بصيرتها الحجاب، فرأت مستقبلها مع محمد ﷺ الأمين الذى تنتظر الأمم مبعثه.

فى ذلك المجلس اللطيف، قام أبو طالب يخطب، ذكر أبو العباس المبرد رحمه الله وغيره، أن أبا طالب خطب خطبة الإملاك فقال: «الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضئ ــ أصل ــ معد، وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته، وسواس حرمه، وجعل لنا بيتًا محجوبًا، وحرمًا آمنًا، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن برجل إلا رجح عليه برًّا وفضلاً، وشرفًا، وعقلاً، ومجدًا ونبلاً، فإن كان فى المال قُلّ ــ قلة ــ فإن المال ظل زائل، وأمر حائل، وعارية مسترجعة، ومحمد من قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد، وبذل لها ما آجله وعاجله من مالى عشرين بكرة، وفى رواية: وقد بدل لها من الصداق اثنتى عشرة أوقية ذهبًا ونشًا ــ أى نصف أوقية ــ ثم قال أبو طالب: وهو والله بعد ذلك نبأ عظيم، وخطر جليل، فزوجها».

ولما أتم أبو طالب الخطبة تكلم ورقة بن نوفل، فقام عندئذ خطيبًا وقال: «الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت، وفضلنا على ما عددت، فنحنى سادة العرب، وقادتها، وأنتم أهل

ذلك كله، لا تنكر العشيرة فضلكم، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم، وقد رغبنا فى الاتصال بحبلكم وشرفكم، فاشهدوا علىَّ معاشر قريش بأنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله على أربع مائة دينار».

وفى رواية أنه أصدقها عشرين بكرة.

وفى رواية أخرى أنه أصدقها اثنتى عشرة أوقية ذهبًا.

ثم سكت، فقال أبو طالب: «قد أحببت أن يشركك عمها» فقال عمها: «اشهدوا على يا معشر قريش أنى قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد» وشهد على ذلك صناديد قريش.

إن ورقة بن نوفل هذا هو ابن عم خديجة، ومن أشراف قومها، وذوى أسنانهم، فلا غرابة أن يقدموه فى الرد على خطبة أبى طالب وكأنى وكأنما أحب أبو طالب أن يوثق العقد، ويؤكد الرضا، فأحب أن يشارك عم خديجة ابن عمها، فأسرع عمها إلى إجابة أبى طالب إلى طلبته فتولى زواجها.

وقد أولم رسول الله ﷺ على زواجه بخديجة، وفرحت خديجة بهذا الزواج فرحًا شديدًا.

روى أن رسول الله ﷺ لما تزوجها، ذهب ليخرج، فقالت له:«**إلى أين يا محمد؟ اذهب وانحر جزورًا أو جزورين، وأطعم الناس**» ففعل.

قال صاحب كتاب «إنسان العيون» فامرت خديجة جواريها أن يرقصن بالدفوف، وقالت: مر عمك ينحر بكرًا من بكراتك، وأطعم الناس، وهلم فَقِلْ مع أهلك، فأطعم الناس، ودخل ﷺ فقال معها، فأقر الله عينه، وفرح أبو طالب فرحًا شديدًا وقال: «الحمد لله الذى أذهب عنا الكرب، ودفع عنا الهموم» وهى أول وليمة أولمها رسول ﷺ.

الطاهرة والسعادة الروحية والزوجية:

رفرفت السعادة بأجنحتها على بيت خديجة رضى الله عنها، فقد وجدت الطاهرة خديجة فى الأمين محمد ﷺ خير الأزواج، فهو لطيف المعشر، سابغ العطف، يحيط به كل إنسان وكل حى، وكل شىء، فأخلاق محمد ﷺ كانت تنبع من فطرته بنسب متفقة متكاملة، فصبره مثل شجاعته، وشجاعته مثل كرمه، وكرمه مثل حلمه، وحلمه مثل رحمته، ورحمته مثل مروءته، وخصائصه ﷺ كثيرة فى الفضل والخير والمعروف.

إنه ليس بفظ ولا غليظ القلب، قد وسع حبه جاريته بركة الحبشية، فأخذها معه لما انتقل إلى دار الزوجية، وأكرمها وغمرها بحنانه، وفاض قلبه الكبير رقة مست قلوب أبناء خديجة ــ من زوجها السابق ــ فكان هند ابن خديجة عند أمه بعد زواجها من محمد ﷺ وكان سعيدًا غاية السعادة أن يشب وينشأ فى كنف أصدق الناس لهجة، وأوفاهم ذمة وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، وأعظمهم مودة.

وسع حب محمد ﷺ زيد بن حارثة، ذلك الفتى اللطيف الحصيف الذى اشتراه حكيم ابن حزام من سوق عكاظ، ووهبه لعمته خديجة، وقد تعلق محمد ﷺ بزيد، وأحب زيد محمدًا حبًّا لم يحبه أحدًا مثله من قبل، وقد فطنت خديجة إلى هذا الحب الأبوى، فوهبت زيدًا لزوجها فأعتقه، ولم يكتف بأن رد إليه حريته السليبة، بل شرفه ورقاه بأنه نسبه إلى نفسه فكان زيد ابن محمد، فأَعْظِمْ بهذا الشرف.

أحبت خديجة رضى الله عنها زوجها محمدًا ﷺ حبًّا ملك عليها كل مشاعرها، أحبته حب الزوجة لزوجها الكريم الذى تمثلت فيه مكارم الأخلاق ومعالى المكارم، فقد كانت على مر الأيام وطول العشرة تزداد يقينًا بأن الرجل الذى اخترته لنفسها هو أصلح أهل الأرض لأداء رسالته، والنهوض بأمته.

صارت خديجة رضى الله عنها تهيئ لرسول الله ﷺ كل أسباب الراحة وكل أطراف النعيم، إذا أشار لبت إشارته متهلة النفس، رضية القلب، كريمة اليد، فما كانت تبخل بما تملك، وكانت سخية بعواطفها ومشاعرها وأموالها، بل لم تكن تبخل بحبها على من يحب زوجها، وكانت تكرم من يحبه إكرامًا يملأ النفس رضى وسرورًا.

فى جلسة غمرتها أنوار ربانية كان محمد ﷺ يتحدث مع خديجة، فكان صوته العذب اللطيف يمس شغاف فؤادها، وكانت الحكمة المتدفقة من بين شفتيها تغمر روحها بطمأنينة مريحة مجنحة تسمو بها فوق وجودها الملموس، وتعيش فى أفق نورانى محسوس.

فى تلك اللحظات البهيجة جاءت مولاة خديجة وقالت: «مولاتى، إن حليمة بنت عبد الله بن الحارث السعدية تود الدخول» ولم سمع رسول الله ﷺ بحليمة السعدية، خفق قلبه الشريف حنانًا، وراحت الذكريات الحانية الدافئة تداعبه، ذكريات حبيبة إلى نفسه، تذكر بيداء بنى سعد ورضاعه هنالك، كانت لحظة مفعمة بالمشاعر الناعمة، لحظة

أحيث ــ فى مثل لمح البصر أو أسرع ــ أيام طفولته، وأيام نشأته بين ذراعى حليمة، وفى أحضانها.

قامت خديجة رضى الله عنها لتدخل حليمة، فطالما حدثها عنها حديثًا يقطر حبًّا ورحمة ودفئًا ومودة، وعندما وقع بصره الشريف عليها، مس سمع خديجة صوته اللطيف وهو ينادى فى لهفة وحنان «أمى، أمى».

نظرت خديجة إلى رسول الله ﷺ فألفته قد فرش لها رداءه، ومرر يده على رأسها فى حنان دافق، وقد ترقرقت فى وجهه الشريف سعادة عارمة، وتألق فى عينيه فرح غامر، لكأنما كان يحتوى فى أحضانه أمه آمنة بنت وهب وقد بعثت من مرقدها.

وفى غمرة اللقاء المفعم بالسرور بين رسول الله ﷺ وحليمة، سألها عن حالها، فشرعت تشكو إليه قسوة الحياة والجدب الذى نزل ببادية بنى سعد، ثم شكت ضيق العيش، ومرارة الفقر، فأسبغ عليها من كرمه ما أذهب حزنها.

وبعد ذلك حدث محمد ﷺ خديجة فى تأثر واضح ما ألم بمرضعته من ضيق، وما حاق بها من كرب، فتدفقت نفس خديجة بالعطف والرحمة، وأعطتها أربعين رأسًا من الغنم، كما وهبتها بعيرًا يحمل الماء وزودتها بما تحتاجه فى رجوعها إلى باديتها، وكانت خديجة رضى الله عنها متأهبة لتجود بمالها، إرضاءً لزوجها محمد ﷺ، فشكر لها أريحتيها، ثم انطلق ليضع بين يدى مرضعته ما جادت به كف خديجة ونفسها.

الطاهرة وذرية طيبة:

مضت مدة على الزواج الميمون، وخديجة تُدْخِل الهناء والصفاء إلى البيت النبوى وتدخل السرور والطمأنينة على القلب المحمدى ﷺ، وتعمل على مرضاته، كانت تضفى على بيتها روحها الصافية، وتعمره بما استطاعت من عطف وحنان ومودة ووئام.

وذات يوم كانت خديجة تحمل بشرى عظيمة إلى زوجها، فما هى إلا شهور حتى تضع ما فى بطنها وكانت تهتز سرورًا لهذا الحادث المفرح، لانها تشعر فى صميم وجودها أن فى إنجابها الذرية من محمد ﷺ شىء يثلج الصدر ويجعل النفس تشرق بآمال عظيمة، فمرور الأيام يؤكد لها أن سيكون لزوجها نبأ عظيم وشأن كريم، وخبر جسيم.

عرف الهناء طريقه إلى قلبه الشريف ﷺ فهل هناك فرحة أعظم لرجل من أن يكون له عَقِب؟ وخصوصًا فى المجتمع المكى؟! لقد كان سروره عظيمًا بالنبأ السار السعيد الذى بشرته به زوجه الرءوم خديجة بنت خويلد.

وما هى إلا بضعة شهور حتى وضعت خديجة طفلة جميلة، فضمها محمد ﷺ إليه فى عطف وحنان، وشكر الله على ما وهبه وسماها زينب، مضت أيام وشهور كانت زينب خلالها فلذة فؤاد البيت المحمدى، تتفتح تفتح الزهر، وكان قلبه ﷺ يخفق حبًّا لها وتنبسط أساريره عندما يراها فيرفعها ويقبلها فى حنان.

تخطت زينب ربيعها الأول، وها هى ذى تدخل عامها الثانى، كانت طفلة حلوة لطيفة، بينما كانت أمها خديجة تنتظر مولودها الثانى، وكانت إذ ذاك مسرورة غاية السرور، عرفت السكينة بعد القلق، وذاقت حلاوة نعيم الحياة وحياة النعيم، تحت ظلال زوجها الأمين محمد ﷺ الرءوف الرحيم.

كان محمد ﷺ يتفرس فى وجه ابنته زينب، وقد امتلأ قلبه حبًّا واستبشارًا، فقد كانت تشبه خديجة، وهذا مما يزيده حبًّا لها، وعطفًا عليها.

وأما خديجة رضى الله عنها فقد وضعت مولودة أخرى، ففرح محمد ﷺ بما آتاه الله عز وجل، وشكره بقلبه أن منَّ عليه بذرية طيبة، ثم إنه سمى ابنته الثانية رقية، ثم إن خديجة بعد ذلك ولدت ابنتها الثالثة أم كلثوم، أما رسول الله ﷺ فقد راح يرنو إلى أسرته الكريمة فى انشراح، فهو لا يفرق فى حبه بين بناته وهند بن أبى هالة، وكذلك زيد بن حارثة مولاه، فقد وسعهم جميعًا قلبه الكبير، وفاض عليهم من كنوز حنانه وفيض رقته وكرم رحمته وخلقه ما جعلهم يشعرون بالسعادة أجمعين.

كانت الأسرة المحمدية الخديجية المباركة تعيش حياة ناعمة هادئة، فخديجة رضى الله عنها امرأة نادرة المثال فى الصفار والنقاء، وفى فهم الحياة الزوجية على أساس صحيح، فكانت كلما طالت عشرتها مع محمد ﷺ ازدادت إعجابًا به، فقلبه أصفى من الصفاء، ونفسه أنقى من النقاء، فهو بكل جوارحه ووجدانه وقلبه لله، ومن كان لله كان الله له سندًا ومعينًا وحافظًا وراحمًا.

ثم بعد ذلك وهب الله عز وجل للبيت المحمدى ابنة كريمة، أضحت فيما بعد سيدة نساء العالمين فى زمانها أم الحسنين، وأما أبيها فاطمة الزهراء الصابرة الدَّيِّنة الخيرة

الصيِّنة القانعة الشاكرة لله عز وجل، وقد وهب الله سبحانه وتعالى خديجة ولدين هما: «القاسم وعبد الله» إذن فقد ولدت خديجة أربع بنات وولدين.

وشاءت إرادة الله عز وجل ألا يعيش للنبى ﷺ ولد ذكر، فى زمن كان العرب يتعلقون بالبنين تعلقًا شديدًا، ويحرصون على الإنجاب حرصًا عجيبًا، ولكن فى تلك البيئة المفتونة بالبنين دون البنات، كان الحبيب المصطفى ﷺ القدوة للمؤمنين، والمثل الأعلى للناس كافة على مر العصور.

ومن أمثلة قدوته ﷺ وحب الناس له قضية إعادة بناء الكعبة الشريفة، فقد تصدع بنيانها من عوامل السيل، وهابت قريش هدمها وإعادة بنائها، إلى أن استقر رأيها على البناء، فبدأت العمل، ولما تم البناء، اختصمت قريش فى الحجر الأسود، كل قبيلة تريد أن تستأثر بشرف رفعه إلى موضعه، إلى أن اهتدوا إلى أن يحكموا أول من يدخل من باب المسجد، وما هى إلا دقائق حتى أقبل محمد ﷺ فقالوا: «هذا الأمين محمد بن عبد الله رضينا بحكمه».

فطلب ثوبًا ثم وضع الحجر الأسود فيه بيده الشريفة وأمرهم أن تأخذ كل قبيلة بطرفه، فرفعوه جميعًا، ثم وضعه ﷺ بيده الشريفة، وكان عمره آنذاك (٣٥ عامًا) وبالتالى لم يحدث خصام بين القبائل، وعاد إلى بيته حيث كانت خديجة تضع مولودتها الكريمة فاطمة الزهراء، وكان هذا الحدث الجليل قبل البعثة بخمس سنين عددًا.

وما أجمل أن نترنم بهذه «الدالية» الجميلة التى ترسم خطوات بناء الكعبة الشريفة وتبين حكمة النبى ﷺ:

تشاجرت الأحياء فى فصل خطة ... جرت بينهم بالنحس من بعد أسعدِ
تلاقوا بها بالبغض بعد مودة ... وأوقدوا نارًا بينهم شر موقدِ
فلما رأينا الأمر قد جد جده ... ولم يبق شىء غير سل المهندِ
رضينا وقلنا العدل أول طالع ... يجىء من البطحاء من غير موعدِ
ففاجأنا هذا الأمين محمد ... فقلنا رضينا بالأمين محمدِ
فجاء بأمر لم ير الناس مثله ... أعم وأرضى فى العواقب اليدِ
أخذنا بأطراف الرداء وكلنا ... له حصة من رفعها قبضة اليدِ
فقالوا ارفعوا حتى إذا ما علت به ... أكفهم وافى به غير مسندِ

وكل رضينا فعله وصنيعه فأعظم به من رأى هاد ومهتدِ
وتلك يد منه علينا عظيمة يروح لها مر الزمان ويغتدِى

الطاهرة ومكارم المعالى:

إن الأخلاق العالية، والمكارم النبيلة، التى فطرت عليها أمنا خديجة جعلت منها معقد الفضل لأهل الفضل، وينبوع الحياة لكل من استظل تحت سقف بيتها المبارك الذى اكتنفته العناية الإلهية، وسطعت منه شمس البشرية ونور الدنيا سيدنا وحبيبنا محمد ﷺ.

كانت خديجة رضى الله عنها تملك أسباب المكارم، فقد استطاعت أن تغذى بيتها بألوان الرحمة والعطف والمودة، وتجعل الأفراد الذين يعيشون فى كنفها يتعلقون فى محبتها تعلق الوحيد بأمه، ويشعرون بأن خديجة أمهم التى ولدتهم ورعتهم.

فقد انتظم فى البيت النبوى أحد أفراد الإسلام وعباقرة الدنيا، وأحد أكارم بنى هاشم وأكابرهم، سيدنا على بن أبى طالب ﷺ، إذ كفله رسول الله ﷺ وهو طفل صغير، وكذلك كان بطل مؤتة سيدنا زيد بن حارثة حِبّ النبى ﷺ ممن ظللته رعاية خديجة، وناله من عطفها وعطف محمد رسول الله ﷺ ما جعله ينسى أهله وعشيرته الأقربين، بل إنه فضل البيت المحمدى على أبويه اللذين أنجباه، ومن كمحمد وخديجة؟.

فقد كان محمد يحب زيدًا، وكانت خديجة تحب كل من يحبه محمد ﷺ وهواها دائمًا مع من يكون هوى زوجها معه، فقد أحبت على بن أبى طالب، وأحبت الحاضنة أم أيمن الحبشية، وأحبت زيد بن حارثة ذلك الذى ضرب أجمل الأمثلة فى الوفاء لخديجة، وفى الوفاء لعطفها وبرهة به وكرمها معه وإحسانها إليه.

وقد أثبت زيد هذا الوفاء النادر فى أدق المواقف وأحرجها وأصعبها، وقد وعت ذاكرة التاريخ ذلك الموقف المبارك لزيد، فقالت ما مفاده ومحصله: «فى أحد أيام الحج، كان رسول الله ﷺ فى عرفة، وكان معه مولاه زيد بن حارثة فى أهل بيته، وكان زيد قد سُبى من عند أهله، وهناك فى عرفة رآه بعض قومه من بنى كلب فعرفه، فذهب إليه وقال له: من أنت يا غلام؟.

قال زيد: من أهل مكة.

قال الرجل: من أنفسهم؟.

قال زيد: لا.

قال الرجل الكلبى: فحر أنت أم مملوك؟.

قال: مملوك.

قال الرجل مستوضحًا: عربى أنت أم أعجمى؟.

قال زيد عبى الفور: بل عربى من بنى كلب، وبالتحديد من بنى عبد ود...

فقال الرجل: ابن من أنت؟

قال زيد: ابن حارثة بن شراحيل.

قال الرجل: وأين سُبيت يا بن حارثة؟.

قال زيد: من عند أخوالى فى طيئ، وكنت يومها بصحبة أمى.

قال الرجل: ما اسم أمك وابنة من تكون؟.

قال زيد: سُعدى بنت ثعلبة.

قال الرجل: اسمع حال أبيك حارثة، وما ينشد فى التفجع عليك، وكيف كان يبكى فى غيبتك التى لا يعرف لها نهاية، ولا يعرف لك فيها مستقرًّا أو مقامًا، وراح الرجل ينشد قول حارثة والد زيد:

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل أحى فيرجى أم أتى دونه الأجل

فوالله ما أدرى وإنى لسائل أغالك بعدى السهل أم غالك الجبل

واستمر الرجل فى إنشاده، وزيد مطرق الرأس تتجاذبه عواطف شتى، فأراد أن يكفكف دموع أبيه وقومه، ويخفف من لهفتهم عليه ببعث الطمأنينة إلى قلوبهم، وإرسال بريد شفوى يعلمهم من خلاله بحياته وسلامته، ويخبرهم مع ذلك بسعادته العظيمة، فها هو ذا يقيم فى أرغد مقام، وقد أبدله الله بأب خير من أبيه، وبأم خير من أمه، وبأخوة خير من إخوته، ثم قال للرجل ومن معه من بنى كلب ممن عرفوه وعرفهم: أبلغوا أهلى هذه الأبيات، فإنى أعلم أنهم قد جزعوا علىَّ، فقال:

أحن إلى قومى وإن كنت نائيًا فإنى قطين البيت عند المشاعرِ

فكفوا من الوجد الذى قد شجاكم ولا تعملوا فى الأرض نص الأباعرِ

فإنى بحمد الله فى خير أسرةٍ كرام معد كابرًا بعد كابر

انتهى موسم الحج، وانطلق الرجل الكلبى وقومه، فأعلموا أباه حارثة، وعمه كعب، ووصفوا له موضعه، وعند من هو وأنشدوا شعر زيدا بنهم، فكانت الدموع تجرى، والألم يتجدد، وإن تحرك الصدر بالأمل، وإن خفق القلب بالرجاء، شد حارثة وكعب ابنا شراحيل الرحال إلى مكة لفداء زيد، حتى إذا ما بلغاها، انطلقا إلى الدار الخديجية، وسألا عن محمد ﷺ، فقيل لهما: هو فى المسجد فدخلا عليه فقالا: يا بن عبد المطلب، يا بن هاشم، يا بن سيد قومه، أنتم أهل حرم الله وجيرانه، تفكون العانى، وتطعمون الأسير، جئناك فى ابننا عندك، فامنن علينا، وأحسن إلينا فى فدائه، فإنا سنرفع لك فى الفداء قال رسول الله ﷺ ولم تفارق الابتسامة شفتيه الشريفتين: من هو؟ قالا: زيد بن حارثة يا بن الأكارم الأطهار والأكابر الأخيار .

فقال ﷺ لهما: أوغير ذلك؟ قالا: ما هو؟ .

قال ﷺ فى صدق ويقين: أدعوه فأخيره، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى أحدًا .

فرح حارثة وكعب فرحًا شديدًا، فما كان يخطر فى بالهما أن يعرض أحد مثل هذا العرض الكريم السخى الذى ينم عن خُلُق عظيم، ومنتهى مكارم الأخلاق ومعاليها، وعندئذ قالا لرسول الله ﷺ: أحسنت وزدتنا عن النَّصَف.

دعا النبى ﷺ زيد بن حارثة، فلما جاءه قال له فى رفق أبوى هامس ودود رحيم: هل تعرف هؤلاء؟ وأشار بيده الشريفة إلى حارثة وأخيه كعب.

قال زيد فى هدوءٍ وأدب جم: هذا أبى حارثة بن شراحيل وهذا عمى كعب بن شراحيل .

فقال النبى ﷺ لزيد: فأنا من قد علمت، ورأيت صحبتى لك، فاخترنى أو اخترهما .

لم يتردد زيد فى الإجابة أو يتلجلج لسانه بحرفٍ واحد، وإنما قال وهو يرنو إلى النبى ﷺ فى حب صادق وقول أكيد: ما أنا بالذى أختار عليك أحدًا، أنت منى بمكان الأب والعم، والأخ والقريب .

اضطرب أبوه حارثة وعمه كعب وقد اعتراها دهش وخيبة أمل، ولم يتوقعا أن يصدر عن زيد مثل هذا الكلام، وقالا: «ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرية، وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟»».

قطع زيد على أبيه وعمه دهشهما وحيرتهما فقال دون تردد: «نعم، إنى قد رأيت من هذا الرجل الكريم الحليم شيئًا ما أنا بالذى أختار عليه أحدًا مهما بلغ شأنه، فكُفا عنه طلبكما»».

فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ أخرجه إلى الحِجْرِ أمام الكعبة وقال: يا من حضر، اشهدوا أن زيدًا ابنى، يرثنى وأرثه.

ولما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما واطمأن فؤادهما، فانصرفا ودُعى زيد بن محمد، حتى جاء الله بالإسلام، ونزل قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ ﴾ (الأحزاب: ٥) فدعى يومئذ زيد بن حارثة.

الطاهرة ومعرفتها قدر النبى ﷺ:

رسالة سيدنا محمد ﷺ أكمل الرسالات كمالاً، وهو ﷺ أفضلهم فضلاً، وأعلاهم قدرًا، وأشرفهم شرفًا، وأقربهم قربًا، وأرفعهم منزلة، وأعلمهم بالله، وأتقاهم لله، وأخشاهم لله وأكرمهم إلى الله، وأعزهم عند الله، وأهداهم سبيلاً، وأبلغهم قيلاً، وأعمهم رسالة وأشملهم دعوة إلى الله، وأحكمهم حكمة، وأيسرهم هدى، وهو خاتم النبيين، وسيد المرسلين ﷺ.

وكانت خديجة رضى الله عنها الزوجة الأمينة الوفية بفطرتها الأصيلة أعرف الناس بقدر محمد ﷺ، وأعلمهم برفعة منزلته وعلو مقامه عند الله.

عرف محمد ﷺ ربه قبل أن يبعث رسولاً، وأشرق قلبه بأنوار كاشفة يسرت له مشاهدة ما وراء حواسه، فاستوى بصره وبصيرته، وأرشد إلى طريق الحق، حتى إذا ما أتم الله إعداده واستعداده لتحمل نزول الوحى عليه كلف بالرسالة، فكان عليه نشر رسالة التوحيد بتأييد من ربه عز وجل.

وقد حبب الله عز وجل إلى محمد ﷺ الخلوة، فلم يكن شىء أحب إليه من أن يخلو وحده ليأنس بربه، وما كانت الطاهرة خديجة لتضيق ذرعًا بهذه الخلوات المباركة التى تبعده أحيانًا، وما كانت لتعكر صفو تأملاته وإنما حاولت أن تحوطه بالرعاية ما

استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وذلك معرفة لقدره، فإذا ما انطلق إلى غار حراء للعبادة أعدت له ما يحتاجه من ماء وزاد، وظلت عيناها تشيعه بالحب والرعاية حتى يغيب عن بصرها، ولم تكتف بهذا، بل كانت ترسل وراءه من يحرسه ويرعاه دون أن يقتحم عليه خلوته، أو يعكر عليه صفاءه، أو يقطع صلته بربه فى ذلك الغار الميمون.

فى غار حراء، أقبل محمد ﷺ بكيانه على الله، يحفه النور الربانى فيتلألأ الغار بهجة وضياء، فتزول وحشته وتأنس أركانه وصخوره، فتومض الظلماء وكأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة، وإذا بالرحمة الإلهية تتنزل على من اصطفاه ربه ليكون رسوله إلى الناس، وإذا بالرُّوح الأمين يحمل له التكليف برسالةٍ تنوء بحملها السموات والأرض والجبال، رسالة هداية ونجاة للبشرية جمعاء، ودعوة خير للناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له...

الطاهرة وبدء الوحى:

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله فى كتابه القيم زاد المعاد : فلما كمل له ﷺ أربعون أشرقت عليه أنوار النبوة، وأكرمه الله تعالى برسالته، وبعثه إلى خَلْقِه، واختصه بكرامته، وجعله أمينه بينه وبين عباده .

فى تلك الأثناء، وفى بداية نزول الوحى جبريل الأمين ، على الأمين محمد ﷺ، كانت خديجة ذات أثر كريم، وفضل جسيم، فى هذا الموقف العظيم، إذ أثبتت أنها سيدة النساء العاقلات الحصيفات فى هذا المقام، واستطاعت برباطة جأشها أن تشد من عزيمته ﷺ، وكذلك بكلماتها الوضيئة السنية التى لا يزال شعاعها ينير العقول على مر العصور.

ولنقف الآن أمام السيدة الطاهرة العاقلة خديجة رضى الله عنها، ولنتصور ذلك الموقف عندما نزل الوحى على رسول الله ﷺ للمرة الأولى.

روى البخارى رحمه الله فى الجامع الصحيح عن أمنا عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة أو الصادقة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبِّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، يتحنث فيه ــ يتعبد ــ الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو فى

غار حراء، فجاءه المَلَك، فقال: اقرأ قال: ما أنا بقارئ قال: فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال: اقرأ قلت: ما أنا بقارئ فأخذنى فغطنى الثانية، ثم أرسلنى فقال: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ (العلق: ١ - ٣)إلى قوله: ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها، فقال: زملونى، زملونى فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة: أى خديجة ما لى؟ لقد خشيت على نفسى، فأخبرها الخبر لقد خشيت على نفسى.

فقالت خديجة: كلا، والله لا يحزنك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، ابن عم خديجة، وكان امرءًا تنصر فى الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبرانى، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمى، فقالت له خديجة: يا بن عم: اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة: يا بن أخى ماذا ترى؟ .

فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى.

فقال له ورقة: هذا الناموس الذى أنزل الله على موسى، يا ليتنى فيها جذعًا، ليتنى أكون حيًّا إذ يخرجك قومك .

فقال رسول الله ﷺ: أومخرجى هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم ينشب ورقة أن توفى، وفتر الوحى .

وفى هذا الحديث الشريف يتبين لنا مقدار ما وصلت إليه خديجة رضى الله عنها من ثبات اليقين فى قلبها، وإشراق الكمال فى نفسها، واكتمال معالم شخصيتها التى تفردت لها فى عالم النساء فى عصر النبوة، ولنا وقفة مباركة مع كلماتها النورانية للحبيب المصطفى ﷺ عند نزول الوحى عليه...

الطاهرة وكلمات النور والإلهام:

كانت أم المؤمنين السيدة خديجة رضوان الله عليها أعرف الناس بقدر محمد ﷺ ومكانته، فهى رضى الله عنها عندما عاد إليها ﷺ من متعبده وخلوته إثر مفاجأة الملك له فى غار حراء، تحدث إليها، بعد أن استراح متزملاً، متدثرًا فى فراشه، لتهدأ نفسه الكريمة من هول ما كابدت من عناء المفاجأة، وما ألم بها من الغط الجاهد المجهد، الذى هز بشريته هزًا بالغ الأثر فى بدنه، ويقول لها: «أى خديجة ما لى؟ لقد خشيت على نفسى ويخبرها خبر ما رأى وما سمع وما جرى له.

وكانت خديجة عليها سحائب الرضوان على يقين تام بما يملك محمد ﷺ من رصيد فى مكارم الأخلاق، وفضائل الشمائل، فتقول له مستلهمة من إيمانها الفطرى بتوفيق الله: كلا، لا تخش شيئًا يعوقك عن الوصول إلى ما أريد بك من الخير والشرف، وإنك لبالغ من فضل الله وإنعامه وكرمه وفيضه ورعايته، ما يبلغك أهداف ما حملت من أعباء الحق والهدى والهداية، ولن يخزيك الله أبدًا، لأنه أعدك بما ألبسك من خِلَعِ المكارم الإنسانية، فقد جملك بأحوال المكارم والمحاق التى لا يخزى من يحلى بها لا سيما أنك لا تغيب عن عين الله ورعايته الصمدانية التى ترفعك عاليًا عاليًا... .

قالت خديجة: «إنك لتصدق الحديث، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق، وتؤدى الأمانة .

إن خديجة أم المؤمنين رضوان الله عليها تُرِيه بهذه الكلمات المشرقة، أنها تستبعد كل الاستبعاد، ما هجس فى نفسه إشفاقًا أن تضعف قُوَاه البشرية عن تحمل أثقال ما حمل من أعباء الرسالة الربانية.

كانت كلمات الإيمان الفطرى النورانية من الزوجة الأمينة الوفية — وزيرة الصدق، ومأنس الروح والقلب، أعقل نساء العالمين خديجة — سُبُحات تستشرق أفق مستقبل محمد رسول الله ﷺ فى أطوار رسالته بأمل فسيح مبارك موصول بكمال شخصيته وفضائله الإنسانية النبيلة التى كانت معالمها معروفة بين أبناء قومه ومن يعرفه بتلك الشمائل الحسنة.

فأما أم المؤمنين خديجة عليها سحائب الرضوان كانت مباركة فى إلهامها عندما ترجمت بكلماتها النورانية عنوان تلك المعالم فى مستقبل زوجها محمد ﷺ نبيًّا ورسولاً، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا.

لهذا كله كانت أمنا خديجة رضى الله عنها نفحة من نفحات المدد الإلهى فى سجل الرسالة المحمدية، نفحة ندية نادرة لم تتكرر، وتلك نعمة من الله يمن بها على من يشاء من عباده، ورحمة يصيب بها من يشاء من خلقه، والله ذو الفضل العظيم.

الطاهرة ووقفة ندية مع كلماتها:

إن الكلمات الصادقة التى قالتها خديجة لرسول الله ﷺ، وهو فى ذلك الموقف لدليل على فراسة الإلهام المباركة، ونستطيع أن نقف وقفات ندية تحت ظلال تلك الكلمات النضرة... كلمات النور الخديجية، كلمات الحق والثبات واليقين التى زكت موقفها، وكأنها أرادت أن تقول: إن الذى أتاك ملاك كريم لأنك تحمل صفات الملاك، فأبشر فإنك على الحق المبين، يا أبا القاسم، يا أكمل الكملة من الخلق، لن يقع لك ما تتخوفه على نفسك الزكية العلية من ضعف عن تحمل أعباء ما شرفك الله به من رسالة الخلود، لن تعجز يا أبا القاسم عن القيام بموجبات تبليغ الأمر الإلهى، لأن الله تعالى هو الذى اختارك له وخصك به، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، إنك يا أبا القاسم، قد فطرك الله على أفضل ما فطر عليه أحدًا من خلقه، فلن تخزيك أبدًا، ولن يحزن قلبك الكبير السليم بوقوع شىء مما تشفق منه وتخافه على نفسك، لأن فيك من خصال الجبلة الكمالية ومحاسن الأخلاق الرضية، وفضائل الشيم المرضية، وأشرف الشمائل العلية، وأعلى معالى المكارم، وأكرم خصائل المعرفة، ما يضمن لك الفوز، ويحقق لك الفلاح والصلاح والنجاح، وستظهر بطلبتك، وتؤدى رسالتك، ويخلد ذكرك، ويعلو أمرك، ففيك من الخصال الحميدة، والصفات الرشيدة، ما يجعلك خالد الذكر، أبد الدهر .

فمن نفحات الكلمات الأولى للطاهرة خديجة: «إنك لتصدق الحديث» أرادت أن تقول: فأنت الصدوق المصدق، وأنت الصادق الأمين، فصدق الحديث عندك سجية، إذا قلت شيئًا قالت الموجودات من حولك وهتفت الدنيا: صدقت... أبا القاسم وصدقت وقومك على الرغم من عجرهم وبجرهم دعوك فيما بينهم الأمين وقد جهروا بهذا

اللقب معترفين لك بهذه الخصلة النبيلة، خصلة الصدق فى الحديث... شهدوا على أنفسهم فقالوا: ما جربنا عليك كذبًا بل إن أعتى أعدائك يشهد لك بسحبية الصدق فى القول والعمل .

ففى حديث أبى ميسرة أن رسول الله ﷺ مر بأبى جهل وأصحابه فقالوا: يا محمد والله ما نكذبك وإنك عندنا لصادق ولكن نكـذب ما جئـت به فنزلت الآية الكريـمة: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (الأنعام: ٣٣) إى وربى. فالصدق أشرف الخصال وأكرم الخلال وروح الجمال والجلال.

وفى ظلال الكلمه الثانية لخديجة رضى الله عنها: «وتصل الرحم» تقول: وأنت يا أبا القاسم، وصول للرحم، تقرب البعيد، وتدنى القصىّ، وتغسل الأحقاد والعداوات، وتزرع الألفة والمودات، وتغضى عن الزلات، وهذه فضيلة ومكرمة توثق عرى المحبة بين ذوى القربى، وتجمع القلوب على الصفاء والود، وتمحو من النفوس الأحقاد، وصلة الرحم هذه أصل من أصول مكارم الأخلاق التى هى نفحة من سجاياك .

وثالثة الكلمات تقول: «وتحمل الكل» أرادت خديجة أن تقول: وأنت تحمل الكل حمل الضعيف الذى أعجزته الأيام والليالى، فنفسك الكريمة، وقلبك الرحيم، لا يرضيان أن يريا ضعيفًا أثقلت كاهله الحياة، فأنت تحسنين إليه بإحسان تنتعش من خلاله روحه وتُحيى فى نفسه الآمال، وتجعله يشعر بالحياة وهو عزيز الجانب مرعى الحال .

ورابع الصفات من الكلمات الخديجيات المباركات قولها: «وتكسب المعدوم» تقول: إنك يا أبا القاسم، تكسب المعدوم بجودك وإيثارك وعطائك وسخائك، فقد فطرك الله على مكارم الجود فأنت أجود الناس وأسخاهم، بل أنت أجود بالخير من الريح المرسلة .

يقول الإمام القسطلانى رحمه الله فى كتابه النفيس: المواهب اللدنية بالمنح المحمدية : وقد كان جوده ﷺ كله لله، وفى ابتغاء مرضاته ، فإنه كان يبذل المال تارة لفقير أو محتاج وتارة ينفقه فى سبيل الله وتارة يتألف به على الإسلام من يقوى الإسلام بإسلامه، وكان يؤثر على نفسه وأولاده، فيعطى عطاء يعجز عنه الملوك مثل كسرى

وقيصر، ويعيش فى نفسه عيش الفقراء، فيأتى عليه الشهر والشهران لا توقد فى بيته نار، وربما ربط الحجر على بطنه الشريف من الجوع.

نعم يا أبا القاسم، ومن يعطى عطاءك؟ إنك تعطى ذوى الحاجة المعدومين ما لا يمكن أن يمنحه غيرك، ولا تسمح به نفس غير العلِيّة، فأنت أكرم العالمين، وأسخى الأكرمين، وأجود الأنام، فأنت الذروة فى السخاء وفى الإيثار والعطاء، إن الكرم مجمعة للقلوب، يملك السخى بكرمه زمام محبة الأفئدة، ويستأثر من أكرمهم بإحسانه بفواضله فيؤثرونه بمودتهم على كل محبوب، ويرحم الله العلامة أحمد بن محمد القسطلانى، إذ استقصى هذه النواحى فى شخص النبى ﷺ الذى كان كما وصفه سيدنا على بن أبى طالب رضي الله عنه فقال: كان أجود الناس كفًّا، وأصدق الناس لهجة قال القسطلانى: فهو ﷺ بلا ريب أجود بنى آدم على الإطلاق، كما أنه أفضلهم وأعلمهم وأشجعهم وأكملهم فى جميع الأوصاف الحميدة، وكان جوده بجميع أنواع الجود، من بذل العلم والمال، وبذل نفسه لله فى إظهار دينه وهداية عباده، وإيصال النفع إليهم بكل طريق، من إطعام جائعهم ووعظ جاهلهم، وقضاء حوائجهم، وتحمل أثقالهم ولقد أحسن ابن جابر حيث قال:

يروى حديث الندى والبشر عن يده ... ووجهه بين منهل ومنسجم

من وجه أحمد لى بدر ومن يده ... بحر ومن فمه در لمنتظم

يمم نبيًّا تبارى الريح أنمله ... والمزن من كل هام الودق مرتكم

لو عامت الفلك فيما فاض به يده ... لم تلق أعظم بحر منه إن تَعِمِ

تحيط كفاه بالبحر المحيط فَلُذْ ... به ودغ كل طامى الموج ملتطمِ

لو لم تحط كفه بالبحر ما شملت ... كل الأنام وروت قلب كل ظمِى

فسبحان من أطلع أنوار الجمال من أفق جبينه، وأنشأ أمطار السحاب من غائم يمينه .

وخامسة أفياء كلمات خديجة قولها: «وتقرى الضيف» أرادت خديجة أن تقول: إنك يا أبا القاسم لن يخزيك الله أبدًا، فإكرام الضيف من أعظم الفضائل الإنسانية، ففيه عظيم الأثر فى قوة اجتذاب القلوب، وأسر النفوس .

وخصوصًا فى البيئة التى عاش فيها محمد ﷺ، تلك البيئة الشحيحة بمطالب العيش ووسائل الحياة لوجود الصحارى والجبال الجرداء والأودية والقفار.

ولذا قد كانت فضيلة قرى الأضياف موضع منافسة المتنافسين فى صنائع المعروف، وكانت مما يتمدح بها أجواد العرب وفضلاؤهم لتنشر محاسنهم فى القر بين الأقوام، ولقد احتفظ تراثنا بكثير من تلك القصص الطريفة وحفظ المستجاد من فعلات الأجواد بما تضيق عنه الصفحات والسجلات.

وسادسة كلمات أم المؤمنين خديجة قولها: «وتعين على نوائب الحق».

كأن أم المؤمنين خديجة أرادت أن تقول: يا أبا القاسم، إن من أخص صفاتك أن تعين على نوائب الحق، إذ إن ذلك فطرة فطرك الله عليها، وخليقة جَبَلك بها، والإعانة على تلك النوائب أفضلية الفضائل، ومكرمة المكارم، فهى أجمع موارد الخير ومصادره، وهى منقبة البر والمعروف .

ومن فتوحات الكلام ما قاله الإمام ابن حجر رحمه الله فى الفتح : وقولها ــ أى خديجة ــ: وتعين على نوائب الحق، هى كلمة جامعة لأفراد ما تقدم من أصول المكارم وما لم يتقدم .

والحقيقة، فقد كانت هذه الخليقة خُلُقًا لمحمد ﷺ إذ شارك قومه فى صنع المكارم، وها هو ذا الرجل المتميز بارز فى حلف الفضول، يتعاهد مع المتعاهدين بالله ليكونن مع المظلوم ويرفع الظلم عنه حتى يؤدى إليه حقه ما بلّ بحر صوفة.

ومما يعزز هذه السمة فى شخصية محمد ﷺ قصة الإراشى الذى ابتاع منه فرعون قريش وفرعون الأمة، أبو جهل بن هشام، إبلاً ومَطَلَه أثمانها ابتغاء غصبها، فلم يُعنى الرجل الإراشى إلا محمدًا ﷺ إذ ذهب مع الإراشى إلى أبى جهل الذى دفع الحق راغمًا خائفًا ذليلاً حقيرًا مذمومًا مدحورًا، ونجدة المظلوم والإعانة على النوائب الحق تملأ صفحات السيرة النبوية ولا يمكن حصرها فى هذا المقام.

وختام الكلمات الخديجة النورانية قولها: «وتؤدى الأمانة».

أرادت أمنا أن تقول: نعم يا أبا القاسم، أنت الأمين فى السماء، وأنت الأمين فى الأرض، فالأمانة أجمع مكرمة لمكارم الأخلاق، فالأمين هو ذو الخلق العظيم، الجامع

لأشتات الفضائل، وقد كان خلق أداء الأمانة خلقًا أثيرًا فى مكارمك، فلم يعرف لقب الأمين على إطلاقه إلا لك.

لقد قالت قريش يوم أن اختلفوا على وضع الحجر الأسود فى مكانه من الكعبة:
هذا الأمين رضيناه حكمًا وحكمت بحكمك حكمًا أطفأ نيران فتنتهم، وأصلح ذات بينهم، وجمع شملهم.

تلكم هى ظلال وأنسام ففى رحاب الكلمات الخديجية، كلمات أمنا الطاهرة خديجة لحبيبنا محمد ﷺ، كلمات نابعة من يقين إيمانها، وصدق وفائها مع الله عز وجل ومع رسوله ﷺ، فكانت فراسة الإلهام فى كلماتها مصداقًا لصفات الحبيب الأعظم محمد رسول الله ﷺ.

الطاهرة والفراسة والإلهام:

أقسمت خديجة رضى الله عنها بالله تعالى بأنه لن يخزى محمدًا ﷺ، وأكدت ذلك بلفظ التأييد لوثيق معرفتها بأخلاق محمد الفطرية التى خبرتها فيه بتجاربها وفراستها، وبما كان يخصه به مجتمعه من الإكبار وحسن الأحدوثة، واستدلت بوحى عقلها الرصين على ما أقسمت به بأمر استقرائى، فوصفته بأصول مكارم الأخلاق ومعاليها.

قال العلماء فى هذا: وإنما كان ما ذكرته خديجة أصول المكارم، لأن الإحسان إما إلى الأقارب كما فى صلة الرحم، وما يتفرع عنها من التعاطف والتراحم وفروعها، من صدق الحديث، وأداء الأمانة، وإعطاء المعدوم المحتاج إلى المعونة من الضعفة، وإما على من يستقل بأمره، كما فى مكرمة الإعانة على نوائب الحق، أو من لا يستقل بأمر كما فى الكَلِّ الضعيف الذى لا يقوم بأمر نفسه .

أجل، كانت كلمات أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها نوعًا من الحصافة، ونوعًا من فراسة الإلهام الذى ينظر إلى ما وراء الحجب، خففت بها عن رسول الله ﷺ ما شعر به من آثار المفاجأة عند نزول الوحى وقد آب إليها من خلوته ومتعبده فى حراء، فرأت منه ﷺ حالاً من مشقة الجهد لم تكن تراها عليه من قبل فى أوباته إليها، ليتزود لخلوته، ويجد ببيته وولده وزوجه عهد الحنان والحب والمودة والإكرام.

لذلك جلس إلى خديجة بعد أن هدأت نفسه، وحدثها وحدثته، وسمعت منه جديدًا، لم تكن من قبل تسمعه منه، وكان حديثًا رقيقًا يمس شغاف القلب، فتلمس منه خديجة دفء الحنان فى مَحْضَنِ الوفاء.

كانت آمال خديجة رضى الله عنها منذ صارت زوجة محمد ﷺ تحلق حوله فى آفاق تطلعاتها إلى الأفق العلوى، وتجليات الملأ الأعلى لمحمد ﷺ فى لقاء المواجهة ولقاء الرسالة، فكانت آمال الفراسة النورانية وإلهام التوسم تتحقق شيئًا فشيئًا عند السيدة خديجة رضوان الله عليها، فقد حدث رسول الله ﷺ زوجه الوفية خديجة عند خلجات ضميره، فما كان من الزوجة العاقلة إلا أن شجعته وكانت وزير صدق على الإسلام، ولكى تشد أزره ﷺ، ذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ــ كما مر معنا ــ الذى ود أن ينصره نصرًا مؤزرًا إن أدرك يوم التبليغ وبدء الدعوة إلى الله، وأعتقد أن ورقة شدد وصيته لخديجة بأن تكون شديدة الاهتمام والرعاية لمحمد ﷺ، فكانت كذلك رضى الله عنها وأرضاها.

عن هذا الموقف العطر لخديجة تتحدث بنت الشاطئ عائشة عبد الرحمن قائلة: «هل كان لأنثى غيرها أن تهيئ له الجو المسعف على التأمل، وأن تبذل له من نفسها فى إيثار نادر ما أعده لتلقى رسالة السماء؟ هل كان لزوج غيرها أن تستقبل دعوته من غار حراء بمثل ما استقبلته هى به من حنان مستثار، وعطف فياض، وإيمان راسخ، دون أن يساورها فى صدقه أدنى ريب، أو يتخلى عنلها يقينها فى أن الله عز وجل غير مخزيه أبدًا؟ هل كان فى طاقة سيدة غير خديجة، غنية مترفة منعمة، أن تتخلى راضية عن كل ما ألفت من راحة ورخاء ونعمة لتقف إلى جانبه فى أحلك أوقات المحنة، وتعينه على احتمال أفدح ألوان الأذى وصنوف الاضطهاد، فى سبيل ما تؤمن بأنه الحق؟ كل... بل هى وحدها التى منَّ الله عليها بأن ملأت حياة الرجل الموعود بالنبوة، وإن كانت أول الناس إسلامًا، كما بها جُعل لرسول الله ﷺ ملا أو سكن ووزير».

حقًّا إن خديجة رضى الله عنها معقل كل فضيلة، ومعقل كل رجاء عند كل ملحة، والرحيق المنعش لكل أمر يعرض لرسول الله ﷺ أو يعترضه، لم تبخل لحظة واحدة من حياتها المعطاء فى تقديم كل ما يذلل صعوبات الدعوة المحمدية.

كانت أمنا خديجة عليها سحائب الرضوان، تروح عن قلبه ﷺ الهموم، وتذهب عن صدره الأحزان بما لها من كياسة وفطنة، وبما وهبها الله عز وجل من رفق ولين، وتضحية وفداء، وصبر ونبل، وأمل ورجاء، ووفاء وعزيمة، ناهيك بخلقها الذى كان منبع فيض الخيرات لكل من أراد أن يقتدى بها من النساء على مر العصور.

الطاهرة أول السابقين:

أجمع أهل العلم من أئمة الإسلام على أن أمنا خديجة بنت خويلد رضى الله عنها، كانت أول البشر قاطبة إيمانًا بالله عز وجل، وبرسوله محمد.

يقول عز الدين بن الأثير رحمه الله: خديجة أول من أسلم بإجماع المسلمين، لم يتقدمها رجل ولا امرأة .

ويقول البيهقى رحمه الله فى الدلائل: إن أول من أسلم من هذه الأمة خديجة بنت خويلد رضى الله عنها .

وقال ابن إسحاق رحمه الله: كانت خديجة أول من آمنت بالله ورسوله، وصدقت ما جاء من عند الله عز وجل، ووازرت النبى ﷺ على أمره، فخفف الله بذلك عن رسوله، فكان لا يسمع شيئًا يكرهه من رد عليه، وتكذيب له، فيحزنه ذلك، إلا فُرج عنه بخديجة رضى الله عنها، إذا رجع إليها تثبته، وتخفف عنه وتصدقه، وتهون عليه أمر الناس .

ومن الطبيعى أن يكون طليعة السابقين إلى دوحة الإيمان برسالة حبيبنا محمد ﷺ سيدنا على بن أبى طالب ﷺ، فهو ثانى اثنين فى السبق إلى الإسلام، إذ كان ربيب النبوة، ورضيع ثدى الرسالة، المتقلب على فراش الإيمان، الناهد فى مهد أكرم المكارم، فقد آمن فى سن الصبا قبل أن يبلغ الحلم، فشب معه الإيمان حتى خالط مشاعره ووجدانه ومشاشه وملأ قلبه، وأفعم بالنور روحه، وكانت العناية الربانية قد ساقته إلى حجر رسول الله ﷺ وزوجه خديجة الطاهرة رضى الله عنها وأرضاها.

ومن الذين حازوا قصب السبق فى حلبة التسابق إلى ساحة الهداية، زيد بن حارثة الحِبُّ الذى كان ثالث ثلاثة فى السبق إلى الإسلام، وهو الذى أفرده الله عز وجل بأشرف الشرف، فذكره فى القرآن الكريم والذكر الحكيم باسمه، ممتنًا عليه بإنعام

رسوله ﷺ بالحرية والولاية، قال عز وجل:﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ (الأحزاب: ٣٧) .

قال ابن عبد البر رحمه الله فى كتابه النفيس الاستيعاب : روى عنه ﷺ أنه قال: أحب الناس إلىَّ مَنْ أنعم الله عليه وأنعمتُ عليه .

وزيد الحب ﷺ من صميم العرب، وعُليا قبائلهم، فهو صريح النسب من جهة أبيه وأمه، عاش فى كنف البيت المحمدى تحت إشراف السيدة الطاهرة خديجة رضى الله عنها، واستقى من مناهل عرفان الإيمان ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فكان من الأوائل الميامين.

كان بيت أمنا خديجة رضوان الله عليها واحة الإيمان والسراج المنير، يذكر فيه اسم الله بالغدو والآصال، فلا عجب أن يستضىء قلب زيد وعلى رضى الله عنهما بنور الإيمان وسنائه منذ أن هبت أنسامه العطرات على البيت المحمدى الطاهر.

كان أولاده ﷺ من خديجة من السابقين إلى الإسلام، ولم يذكر العلماء فى هذا الصدد أسبقية أولاده الأطهار إلى الإيمان برسالته والتصديق بدعوته، لأن أبناءه الذكور: القاسم، عبد الله، ماتا فى سن الطفولة، وكذلك ابنه إبراهيم من السيدة مارية بنت شمعون المصرية، مات صغيرًا أيضًا.

وأما بناته الطاهرات العابدات: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، رضى الله عنهن، فكلهن أدركن الإسلام وأسلمن، ونعمن بنعيمه العظيم، وكى مع أمهن الطاهرة خديجة فى أسبق السابقين والسابقات إلى ساحة الإيمان به ﷺ نبيًّا ورسولاً.

ومن المسلم الطبيعى أن تكون بنات خديجة ومحمد ﷺ من السابقين، لأنهن رضعن لبان الإيمان من أصولها، ونشأن على التمسك بالهدى المحمدى، والسيرة الحسنة قبل البعثة.

روى ابن إسحاق رحمه الله عن أم المؤمنين عائشة بنت الصديق رضى الله عنهما قالت: لما أكرم الله نبيه بالنبوة أسلمت خديجة وبناته .

وفى رواية أخرى عنها قالت: أسلمت رقية حين أسلمت أمها خديجة وبايعت حين بايع النساء، وأسلمت أم كلثوم حين أسلمت أخواتها وبايعت معهن .

فبنات النبى ﷺ فى قرن ميمون مع أمهن السيدة الطاهرة خديجة ينظمن معها عقد أسبق السابقين، وأسبق السابقات إلى الإسلام، والتصديق برسالة أبيهن سيد الخلق ﷺ الذى كان أبًا قبل أن يكون رسولاً، وقد كانت مكارم أخلاقه، ورفيع صفاته وكريم معاملته، يرينها رأى البصر والبصيرة، ويسمعن أحاديث الناس عنها، والولد على نهج أبيه وأمه ينهج ويدرج وينشأ.

ثم آمن أول مَدْعُوٌ إلى الإسلام، الصديق الأعظم، فخر الملة، وإمام الصحابة، وعَلَمُ المسلمين وعَيِّلَمهم، وأفضل أتباع الأنبياء والمرسلين، ثانى اثنين إذ هما فى الغار، من وسمه الله عز وجل بأشرف الألقاب سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ وأرضاه.

روى الطبرانى رحمه الله أن عليًا ﷺ كان يحلف بالله أن الله أنزل اسم أبى بكر من السماء صديقًا، قال علماؤنا من السلف والخلف: وهذا حكمه الرفع إلى رسول الله ﷺ إذ لا مدخل للرأى والاستنباط فى مثله .

الطاهرة ورحلة مع المكارم:

كان لأمنا خديجة رضى الله عنها فى مطالع إيمانها عند مشرق الرسالة سوابق لم تكن لبشر قط، وقد انفردت بفضيلة السبق وشرف الإيمان بمكرمة لا يلحقها فيها لاحق ولا يتقدمها سابق.

فأسبقية خديجة وبناتها من رسول الله ﷺ إلى الإسلام، من المكارم التى تتضح برحيق الفضل، وكذلك أسبقية على بن أبى طالب وزيد بن حارثة رضى الله عنهما، ونظرة لطيفة إلى هؤلاء الغر الميامين، نجد أنه كان يظلهم البيت النبوى المبارك، فى رعاية أطهر الطاهرات أمنا خديجة رضى الله عنها.

فإسلام هذه الأسرة الكريمة أسرة رسول الله ﷺ زوجه خديجة وبناته الطاهرات، وربيب رعايته وتربيته على بن أبى طالب، ومولاه وحبه زيد، كان إسلام الفطرة الطاهرة النقية، التى ولدت فى مهد الإيمان، ونشأت بين محضنى النبوة، حيث شاهدت أكرم مكارم الأخلاق، ورأت معالم النبوة وآياتها تتجلى فى حياة النبى ﷺ قبل نزولها، ثم رأت معالم الوحى وسمعت آيات الله تعالى فى بيت خديجة، والحكمة تتنزل بينهم، فتمثلوا هذا كله، فسرت نسمات الإيمان والتصديق برسالة النبى ﷺ.

إن هذا كله على ما أعتقد من المكارم الجليلة الفواحة التى خص الله بها سيدة النساء خديجة رضوان الله عليها، إذ لم يكن فى بيتها إلا مؤمن بالله، ومصدق بمحمد ﷺ، ومغمور بأنوار هدايته منذ بدأت الرسالة بقـوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ (العلق: ١).

فالسيدة خديجة عليها سحائب الرضوان ذات مكارم ندية، وكرامات جلية، ومكانة نفيسة عند الرسول ﷺ فقد كانت الزوجة الأمينة الوفية التى حباها الله عقلاً لماحًا، ووهبها فطنة صافية زكية، وأنعم عليها بنفس صافية طاهرة، فلم يعرف تاريخ الإنسانية لها ندًا فى صدق وفائها، وأمانة سرها، واستشراف عقلها إلى مطالعة أعماق النفوس البشرية، فى ظلال مرضاة الله عز وجل، ومرضاة رسول الله ﷺ فكانت فى مقدمة السبق، وكانت الظافرة فى ذلك السباق الإيمانى الميمون، فرزقت الخلود فى دار النعيم مع الخالدين.

الطاهرة والصلاة:

ذكر رواة السيرة النبوية وغيرهم من العلماء أن الله عز وجل فرض على رسوله ﷺ الصلاة ركعتين ركعتين أول ما أوحى إليه، وكان لخديخة رضوان الله عليها فضيلة السبق إلى الصلاة، وامتثال أمر الله عز وجل، فكانت أول من صلى مع النبى ﷺ.

ذكر ابن إسحاق رحمه الله أن بعض أهل العلم حدثه أن الصلاة حين افترضت على رسول الله ﷺ، أتاه جبريل وهو بأعلى مكة، فهمز له بعقبه فى ناحية الوادى، فانفجرت منه عين فتوضأ جبريل ورسول الله ﷺ ينظر ليريه كيف الطهور للصلاة، ثم توضأ رسول الله ﷺ كما رأى جبريل يتوضأ، ثم قام جبريل فصلى به، وصلى رسول الله ﷺ بصلاته، ثم انصرف جبريل، فجاء رسول الله ﷺ خديجة فتوضأ لها ليريها كيف الطهور للصلاة، كما أراه جبريل، فتوضأت كما توضأ لها رسول الله ﷺ، ثم صلى بها رسول الله، صلى كما صلى به جبريل فصلت بصلاته .

ورد فى عدد من المصادر عن شاهد عيان ما يؤكد أولية خديجة رضى الله عنها فى السبق إلى الصلاة، وقد كانت الصلاة فى مطلع شمس الإسلام شيئًا غريبًا عن المجتمع المكى، بل والمجتمع الجاهلى آنذاك.

حدَّث عفيف الكندى عن هذا فقال: كان العباس بن عبد المطلب لى صديقًا، وكان يختلف إلى اليمن يشترى العطر، ويبيعه أيام الموسم، فبينما أنا عند العباس بمنى، فأتاه رجل مجتمع، فتوضأ فأسبغ الوضوء، ثم قام ليصلى، فخرجت امرأة فتوضأت، ثم قامت تصلى، ثم خرج غلام قد راهق، فتوضأ ثم قام إلى جنبه يصلى فقلت: و يحك يا عباس، ما هذا الدين؟! قال: هذا دين محمد بن عبد الله ابن أخى، يزعم أن الله بعثه رسولاً، وهذا ابن أخى على بن أبى طالب قد تابعه على دينه، وهذه امرأته خديجة قد تابعته على دينه، قال عفيف بعد أن أسلم ورسخ فى الإسلام: يا ليتنى كنت رابعًا .

فلتحلق خديجة فى سماء المكارم وفضاء المحاسن، ولتكن أول امرأة تقيم الصلاة فى دنيا نساء أهل البيت الطاهر.

الطاهرة تتحمل أذى الكفار:

أخذ رسول الله ﷺ يدعو عشيرته الأقربين، ويدعو قومه إلى الإسلام بالله تعالى ربًّا، وبمحمد نبيًّا ورسولاً، وراح يدور على مجالس قريش يدعوهم إلى الإسلام، فيلقون إليه أسماعهم مرة، ويعرضون عنه مستهزئين مرات، والرسول الكريم ﷺ صابر يصدع لأمر الله عز وجل، ويلقى من عطف زوجه خديجة رضى الله عنها ورعايتها وتشجيعها ما يخفف عنه آلام الدعوة، وأعتقد أن السيدة خديجة رضى الله عنها كانت تدعو من تعرف من جماعة النساء إلى الإيمان بالله عز وجل وبرسوله محمد ﷺ، ولا شك أنها كانت تجد بعض الإعراض من النسوة اللاتى كانت تدعوهن إلى صراط العزيز الحميد، الله رب العالمين.

وتابع البيت المحمدى المضمخ بأريج النبوة الدعوة إلى الله عز وجل، ووقف المجتمع الوثنى يريد أن يسد منافذ النور، بينما انطلق كبار الفجار، وأسياد الأشرار يظهرون غلظتهم فى تعذيب من استجاب لدين الحق وبدأت مساوماتهم مع رسول الله ﷺ ليكف عن ذكر أصنامهم بسوء.

ولكن رسول الله ﷺ كان يتنزل عليه القرآن، ويقص عليه أحسن القصص، فكان يقرأ عليهم بعض الآيات ويسمعهم بعض السور، فإذا بالقرآن الكريم يحرك العجب فى

نفوسهم، وكانت كلماته البليغة ترن فى أغوارهم وينبعث صداها فى أفئدتهم، وهم صفوة العرب فيعرفون إذ ذاك عظمة القرآن، وأنه ليس من كلام البشر.

إلا أن ملأ الأشرار غلبت عليهم الشقوة، وصعب عليهم أن يفارقوا ما ألفوا آباءهم عليه عاكفين، وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه، وتواصوا فيما بينهم أن يتابعوا طريق اللدد والعناد، ويرموا رسول الله ﷺ بالسحر، وكان زعيم الفجار عتبة بن ربيعة، وقد شايعه عدد من أكابر المجرمين.

كانت قريش غنية بأموالها، معتدة برجالها، معتزة بمكانتها فى العرب، بينما كان محمد ﷺ وصحبه أغنياء بنور الله الذى أشرق فى قلوبهم، وأضاء نفوسهم، كانوا أقوياء بالله رب العالمين، فلم يثنهم عن إيمانهم تعذيب المشركين، وإنما تابعوا طريق الإيمان مع رسول الله ﷺ، تابعوا ذلك الطريق القويم ليكونوا من الذين يرثون الفردوس، فيكونوا فيه خالدين.

الطاهرة وصور من صبرها:

حارب الرجال والنساء فى مكة دعوة الإسلام والسلام التى يدعو إليها الحبيب المصطفى محمد ﷺ وكان بعض رجال بنى أمية ونسائهم، وبعض من رجال بنى مخزوم ونسائهم، قد اشتهروا فى عداوتهم لرسول الله ﷺ.

كانت أم جميل بنت حرب حمالة الحطب زوج أبى لهب من لد أعداء بنى الإسلام، فقد سخرت زوجها أبا لهب لكى يصد عن سبيل الله وما نزل من الحق، حتى نزلت فى حقهما سورة كاملة تندد بهما وتنذرهما بنارذات لهب.

ومن المتوقع أن تكون أم جميل قد صبت غضبها على خديجة رضى الله عنها، وحاولت أن تضع العوائق العديدة لمنع سير رسالة الإسلام، وأوعزت إلى ولديها أن يفسخا زواجهما من ابنتى رسول الله ﷺ لإرهاق الدعوة الربانية، وإرهاق محمد ﷺ وخديجة عليها سحائب الرضوان، وكذلك إرهاق ابنتى النبى ﷺ.

غير أن الله عز وجل قد أكرم ابنتى رسول الله ﷺ وصانهما عن البيت اللهبى بيت أبى لهب وزوجه الحاقدة أم جميل، وتزوج عثمان بن عفان ﷺ رقية رضى الله عنها، ثم تحملت رقية هى الأخرى مع زوجها نصيبًا من أذى قريش، وها هى ذى تهاجر إلى

الحبشة بصحبة زوجها عثمان، وثلة من الأولين الذين تحلقوا حول دوحة اليمن فى مشرق الإسلام وبزوغ شمسه على الدنيا.

كانت خديجة تودع ابنتها رقية، وهى تتجلد، وإن كانت الدموع تسبقها، لكن خديجة عاهدت الله أن تكون مع رسوله الأمين لآخر نفس من حياتها...

إن خديجة رضى الله عنها قد جادت بأموالها وضحت براحتها فى سبيل الله عز وجل، وفى سبيل إعلاء كلمته، وهى على استعداد لأن تجود بكل شىء لتكون كلمة الله هى العليا، ويشرق نور الإسلام على الوجود، وتكون كلمة الذين كفروا السفلى.

إن فراق الأحبة ليهون ما دام ذلك الفراق فى طلب مرضاة وجه الله ليس غير، وما أخف لوعة بعاد فلذات الأكباد إذا ما قيست بلذة القرب من الله عز وجل، الذى أعد للمتقين جنات ونهر، فى مقعد صدق عند وجهه الكريم وفيضه العميم!.

بدأ المسلمون يتأهبون للهجرة بدينهم إلى الحبشة خيفة الفتنة، وودع رسول الله وخديجة، وعثمان ورقية، وانطلق المهاجرون مصحوبين بعناية الله، ودعوات رسول الله ﷺ وزوجه خديجة رضى الله عنها، كانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة من صفوة قريش حسبًا ونسبًا.

مضت سنون ولم يدخل فى الدين القويم سوى عدد من المؤمنين ثمانين رجلاً أو يزيدون قليلاً فقد أضاء الله قلوبهم بأنوار اليقين، وصقل نفوسهم بجوهر الحق المبين، فباتوا أسعد الثقلين بارتباطهم بالله عز وجل الذى خصهم بالاصطفاء والسبق إلى الفضائل، فأضحوا سادة الدنيا وأسياد العالم.

يئس المشركون والكفار من ثبات المسلمين على التوحيد ومضيهم فى طريق الدعوة إلى الله لا يبالون بما اتبعه كفار قريش من طرائق للتعذيب والصد عن ذكر الله لا تلهيهم طريقة فجور، ولا تثنى عزائمهم فظائع المشركين، وراح رءوس الفجرة الكفرة من قريش، يتشاورون فيما بينهم عما يتخذونه من إجراء لتحطيم الدعوة وقتلها فى مكة، قبل أن تعم الأرض، وانتظم فى ركبهم كل فاجر وغوى وكان من بينهم فاجر خبيث هو أبو لهب بن عبد المطلب الذى فارق عشيرته وانفرد دونهم بالعداء المعلن والأذى المستحكم، وظاهر على رسول الله ﷺ قريشًا وأجمعوا أن يقتلوا محمدًا ﷺ.

وثار بنو هاشم وبنو المطلب على ما أجمع به كفار قريش، وأعلن بنو هاشم حمايتهم لرسول الله ﷺ وإن لم يكونوا جميعًا على دينه، وهاهنا اقترح النضر بن الحارث العبدرى أحد أكابر المجرمين من قريش منابذة بنى هاشم وبنى المطلب، وإخراجهم من مكة والتضييق عليهم بمنع حضور الأسواق، وألا يناكحوهم، وألا يقبلوا لهم صلحًا، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلِّموا لهم رسول الله ﷺ للقتل، وارتفعت الأصوات مؤيدة مرددة ما قاله الفاجر الخبيث النضر بن الحارث، كأنما قد وضع كلامه فى أفواههم: لا تناكحوهم، ولا تنكحوا إليهم، ولا تبيعوهم شيئًا ولا تبتاعوا منهم شيئًا، ولا تقبلوا منهم صلحًا .

واتفق المجرمون على أن يكتبوا بذلك صحيفة، ويعلقوها فى جوف الكعبة توكيدًا على أنفسهم، ثم ذهب الذين اتبعوا أمر الوشاة إلى الكعبة وعلقوا الصحيفة فيها، فرأى أبو طالب أن الحرب قد أعلنت على قومه، فجمع بنى هاشم والمطلب مؤمنهم وكافرهم، وأمرهم أن يدخلوا برسول الله ﷺ الشعب ويمنعوه، فانطلقوا إلى الشعب ورسول الله ﷺ فيهم.

كان دخول النبى ﷺ والذين معه الشعب هلال المحرم سَنَة سبع من البعثة النبوية، فضرب كفار قريش حول شعب أبى طالب نطاقًا من الحراس يمنعون الناس من الدخول، أو الاتصال بمن قبلوا الدخول لحماية رسول الله ﷺ تطوعًا.

مرت الأيام، وانقضت سنة، وبنو هاشم والمطلب فى ضيق، فقد نفد ما كان عندهم من قوت، وخوت بطونهم، وزاغت عيونهم، وخارت قواهم، وعانى نساؤهم ، وبكى صغارهم جوعًا وراحوا يصرخون ويطلبون الطعام، فكانت دموع النساء تنهمر وقلوبهم تتألم، وأكباد الرجال تتفتت...

مضت ثلاث سنوات كانت عجافًا على المسلمين، وهم محاصرون داخل الشعب، كانت أيامهم فيها أيام شدة وضيق، لكنهم صبروا صبر الكرام لهذه المحنة العظيمة، وهم ممتثلون لأمر العليم الخبير، ليقضى أمرًا كان مفعولاً وفى الكتاب مقدورًا.

ثم جاء الفرج الإلهى، إذ نادى أفراد من قريش بفك الحصار عن المسلمين، ومزقت الصحيفة الظالمة، وخرج المسلمون وهم يقولون: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر... .

وهكذا فرج الله عز وجل عن المحاصرين وأزال ما أهمهم وما أغمهم وأحزنهم، خرجوا جميعًا ليمارسوا حياتهم الطبيعية بين أفراد المجتمع المكى، وكان خروج سيدنا محمد ﷺ ومن معه من محنة الحصار فى السنة العاشرة من البعثة قبل الهجرة إلى المدينة المنورة بثلاث سنين.

الطاهرة ورحلة الخلود:

كانت أم المؤمنين خديجة رضوان الله عليها أعرف الناس وأقدرهم على وزن ما حمل رسول الله ﷺ من أمانة التبليغ، لقد آمنت به وصدقته رسولاً أمينًا لله تعالى، يتلقى وحيه، ويبلغ رسالته، فيلقى من البلاء ما تنوء بحمله الجبال الرواسى، فتنفس عنه وتشجعه وتعينه على الصبر، وتمسح عنه ضائقات الصدور، وتهمس له بلواطف العواطف النبيلة، حتى يتم تبليغ ما أمره الله.

قضت الطاهرة خديجة رضى الله عنها فى كنف رسول الله ﷺ أشق مراحل الدعوة، فكانت حياتها معه أوفى حياة زوجة لزوجها، وأبر شريكة لشريكها، كانت تشاركه مباهجه ومسراته، وتهيئ له أسباب تفرغه لعبادة ربه، تخدمه فى بيتها وعقلها وروحها ووجدانها، وترد عنه عاديات الحياة ونوائبها بين قومه، حتى إذا جاءته النبوة بطلائعها ووحيها، كانت أول من آمن به وصدقه، وعندما حدثها عن الوحى، وعن المفاجآت التى لقيها، عرفت بفراستها وصادق حدسها، وحسها المرهف، وشعورها المستشرف أن أمر هذا الزواج الأكرم، لم يعد أمر حياة زوجية يملؤها دفء الحنان، وهمس الوفاء، ولكنها ارتقت إلى حياة جديدة فى معالمها، إلى حياة رسالة ورسول، إلى حياة خالدة، حياة دعوة تهدم وتبنى، تهدم الشرك والوثنية، وتبنى الأمة المؤمنة، تهدم التقليد الأبله، وتبنى المعرفة والهداية.

بهذه المكارم، فلترتفع خديجة الصديقة الأولى، بحياة الزوجية الوفية إلى حياة الصديقية الأسمى، حياة الإيمان بالرسالة والرسول ولتكن الطاهرة معه وزير صدق،

ورفيقة الإخلاص وفداء، فالرسول ﷺ هو الصادق الأمين، ومجمع مكارم الأخلاق، وموئل الفضائل، ومنتج الشمائل ومنبع المحامد، ومصدر الخير، وقد اجتباه الله تعالى أمينًا للرسالة، وقد عرفت خديجة الطاهرة رضوان الله عليها هذه المحامد كلها وقدرت شخص الرسول ﷺ حق التقدير.

ومرت الحياة هنية فى ظل وفاء الزوجة، وصديقية الإيمان، بين محمد ﷺ الزوج الكريم الحبيب، وبين خديجة الزوجة الوفية الصديقة المؤمنة.

كان عمل خديجة رضى الله عنها فى بيتها بالوفاء الزوجى، وتربية أولادها، أكرم عمل كبير يسدى للرسالة فضلاً، ويمدها بقوة، إلا أن رسول الله ﷺ أحوج ما يكون — وهو يخوض نضالاً مريرًا فى سبيل تبليغ رسالته — إلى عاطفة الوفاء فى زوجة صادقة الإيمان برسالته، تنسكب فى قلبه بردًا وسلامًا عندما يئوب إلى بيته، فيحدث ويتحدث فى جو مفعم بالإيمان، فكانت تهون عليه الصعاب، وتجدد فيه العزم، فيخرج إلى حياة الناس مسيح الآلام، فسيح الآمال، روى الفؤاد بالصفح والإحسان والمودة.

بهذا الأدب الإلهى الذى اعتصمت بعواصمه خديجة رضى الله عنها، عاشت فى كنف محمد ﷺ الزوج، ومحمد ﷺ الرسول، تتقاسم معه الشعور بالسعادة فى التطلع إلى آمال المستقبل فى آفاق الحياة، وتقاسمه الإحساس بأعباء تبليغ الرسالة معتصمة بالصبر الجميل تأسيًا به ﷺ فى مجالات الحياة.

دخلت خديجة رضى الله عنها حصار الشعب مع رسول الله ﷺ، فشاركته آلام المحنة ومرارتها راضية صابرة محتسبة تواسى الحبيب المصطفى ﷺ وتخفف عنه وقع هذا الظلم الأليم الفاجر، إلى أن خرج ﷺ من هذا الحصار ظاهرًا منصورًا عزيزًا يتابع نشر دعوته وتبليغ رسالته، وخرجت معه زوجه الوفية خديجة أطهر الطاهرات إلى بيتها يتابع سيرها فى الحياة زوجة أمينة، مستظلة بظل الإيمان وصادق الوفاء.

لكن أمنا خديجة رضى الله عنها لم تلبث إلا قليلاً بعد الخروج من الحصار، حتى ذبلت، ودب الوهن فى جسدها، غير أن عزيمتها لم تذبل، وإنما كانت تنظر إلى رسول الله ﷺ نظرة إكبار، فهو زوجها ورسولها الذى أخرجها من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام والسلام، وأخذ بيدها إلى النبع الروحى الصافى الذى نهلت منه، فلم تظمأ بعدها

أبدًا، فقد فتح بصيرتها وفؤادها لاستقبال نفحات ربها، وعرفها السعادة الحقيقية بإشراق أنوار المعارف فى عين ذاتها.

وذات يوم لبت خديجة نداء ربها راضية مرضية، مبشرة من رسول الله ﷺ بالنعيم المقيم فى فردیس الجنان، عند مليك مقتدر، انتهت رحلة الحياة مع خديجة رضى الله عنها لتبدأ رحلة الخلود فى نعيم لا يزول، ولتظل فى أفئدة المؤمنين الذين أحبوا سيرتها وأحبوا أمهم، وأحبوا زوجة نبيهم الحبيب الأعظم محمد ﷺ.

الطاهرة و ﴿ سَلَـٰمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ (يس: ٥٨):

عندما تعرض الإمام الذهبى رحمه الله للحديث عن أمنا خديجة قال: خديجة أم المؤمنين، وسيدة نساء العالمين فى زمانها أم القاسم ابنة خويلد بن أسد بن عبد العزى ابن قصى بن كلاب القرشية الأسدية، أم أولاد رسول الله ﷺ، وأول من آمن به وصدقه قبل كل أحد وثبت جأشه، ومضت به إلى ابن عمها ورقة [١].

وقال الذهبى أيضًا: ومناقبها جمة، وهى ممن كمل من النساء، كانت عاقلة جليلة دينة مصونة كريمة، من أهل الجنة، وكان يثنى عليها، ويفضلها على سائر أمهات المؤمنين، ويبالغ فى تعظيمها، بحيث إن عائشة كانت تقول: ما غرت من امرأة ما غرت من خديجة، من كثرة ذكر النبى ﷺ لها [٢].

ومن كرامتها عليه أنه ﷺ لم يتزود امرأة قبلها وأنجبت له عددًا من الأولاد، ولم يتزوج عليها، ولا تسرى إلى أن توفاها الله، فوجد لفقدها، فإنها كانت نعم القرين.

قد خصها البارى عز وجل بالسلام على لسان جبريل .

أخرج البخارى رحمه الله بسنده عن أبى هريرة ﷺ قال: أتى جبريل النبى ﷺ وهو بغار حراء ــ كما عند الطبرانى فى رواية سعيد بن كثير ــ فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام، أو طعام، أو شراب فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى وبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب [٣].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ١٠٩).

(٢) **صحيح**: رواه البخارى (٧/ ١٠٢، ١٠٣) مسلم (٢٤٣٥).

(٣) **صحيح**: رواه البخارى (٣٨٢٠) مسلم (٢٤٣٢، ٢٤٣٣).

قال ابن حجر رحمه الله فى الفتح: زاد الطبرانى فى رواية سعيد بن كثير المذكورة: فقالت: هو السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام .

وعند النسائى زيادة: وعليك يا رسول الله السلام ورحمة الله وبركاته وهذه لعمر لله خاصة لم تكن لسواها.

ولنقف وقفة ندية مع أمنا الطاهرة، فنلاحظ معرفتها بعظمة الله عز وجل فى ردها على سلامها عليها، ونعزز هذا القول بما قال الحافظ ابن حجر رحمه الله فى الفتح: قال العلماء: فى هذه القصة دليل على وفور فقهها، لأنها لم تقل: وعليه السلام، كما وقع لبعض الصحابة حيث كانوا يقولون فى التشهد: السلام على الله، فنهاهم النبى ﷺ وقال: إن الله هو السلام، فقولوا: التحيات فعرفت خديجة بصحة فهمها أن الله لا يرد عليه السلام كما يرد على المخلوقين .

إن هذا من أعظم المنزلة أن تتلقى الطاهرة خديجة السلام من السلام الله رب العالمين، إذ كانت أوفى زوجة، وأصدق صديقة، وكانت دعامة الإخلاص الوفى فى مسير حياة الرسالة السماوية، فاختصها الله عز وجل بهذه المنزلة العظمى، أوليست خديجة أول المؤمنين والمؤمنات بمحمد ﷺ نبيًّا ورسولاً؟! إنها الطاهرة الكاملة، وكفى! وهل هناك فخر وراء ذروة المجد والسؤدد الذى لا يتكرر فى هذه الحياة أبدًا؟!.

الطاهرة والحياة الحقيقية:

هل توقفت حياة أم المؤمنين خديجة بانتقالها إلى دار الخلود؟!.

إن ذكرى الطاهرة خديجة رضى الله عنها وصورتها لم تكن تبرح خيال رسول الله ﷺ أبدًا، وكيف تبرح صورتها ذهنه وهو أوفى الأوفياء وسيد الأصفياء؟!.

أعتقد أن الحياة الحقيقية للسيدة خديجة رضى الله عنها لا تزال مستمرة إلى ما شاء الله... لقد رافقت ذكرياتها مسيرة حياة بناتها وأحفادها، ثم فى حياة كل امرأة تؤمن بالله ورسوله، وفى ضمير كل مؤمن يحب الله ورسوله.

إن الثناء لا يكتسب بالمال، وإنما بما يترك الإنسان فى دنياه من فضائل يبقى أريجها مدى الدهر، ينتعش بذكره الأحياء، وتصفو بذكرياته النفوس، وتتغذى بسيرته العقول، قل لى بربك: أليست هذه ذروة السيادة فى الحياة وفى الممات .

إن أمنا خديجة رضى الله عنها لم تكن أم المؤمنين فحسب فإنما كانت أم كل فضيلة، ولها فى عنق كل مؤمن فضل وحق إلى يوم يبعثون، فهل نستطيع أن نفى أمنا جزءًا من حقها؟!.

بعد وفاة خديجة رضى الله عنها ووفاة أبى طالب عم رسول الله ﷺ، خلا الجو لأحلاس الشرك، وفجار الوثنية فى مكة، فنالوا من الحبيب المصطفى ﷺ ما لم يكونوا نائليه منه، فأطلق رسول الله ﷺ على ذلك العام عام الحزن إكرامًا للطاهرة خديجة رضى الله عنها، ولأنه لم يجد متنفسًا لدعوته، ولا منتجعًا لتبليغ رسالته فى أم القرى وما حولها، ولكن الله متم نوره ولو كره المشركون، وظلت خديجة رضى الله عنها فى قلب النبى ﷺ فى كل مناسبة، وفى كل مكان وموضع، لا تكاد تسنح سانحة إلا يعطر المجلس بذكرها، أو يثنى عليها، أو يذكرها بالخير، وحسبك بثناء رسول الله ﷺ عليها...

ذكرت أم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق رضى الله عنها خبرًا مباركًا، يدل على مكانة الطاهرة خديجة رضى الله عنها، فيعطر الأسماع، ويبهج القلوب، ويؤنس النفوس، بما للطاهرة من مكانة عند رسول الله ﷺ، وبما لها من رصيد فى ميدان الفضائل، وفى سماء المكرمات فتقول كان رسول الله ﷺ إذا ذكر خديجة لم يكد يسأم من ثناء عليها، واستغفار لها، فذكرها يومًا فحملتنى الغيرة، فقلت: لقد عوضك الله من كبيرة السن، فرأيته غضب غضبًا، أسقطت فى خُلدى، وقلت فى نفسى: اللهم إن أذهبت غضب رسول الله عنى لم أعد أذكرها بسوء، فلما رأى النبى ﷺ ما لقيت قال: كيف قلت والله لقد آمنت بى إذ كذبنى الناس، وآوتنى إذ رفضنى الناس، ورزقت منها الولد وحرمتموه منى قالت: فغدا رواح علىَّ بها شهرًا .

فى اعتقادى أن هذا الثناء من رسول الله ﷺ على خديجة يمثل ذروة الوفاء الصادق، وخالص الود، وعظيم الإخلاص، فخديجة رضى الله عنها أطهر الطاهرات لن يبلغ أحد ما بلغته عنده ﷺ حتى الصديقة ابنة الصديق بما لها عند الرسول الكريم ﷺ تعتذر عندما يغضب لمن يذكر خديجة بما لا يليق بمكانتها الغالية والعالية، حتى ولو

كان تعريضًا أو تلميحًا، فخديجة وإن غيبت فى الثرى إلا أنها لم تغب من ذاكرة النبى ﷺ، فلا ينى يذكرها بخالص الود، وجميل العرفان، وحسن الأحدوثة، وكرم المخبر.

ولعل ثناء رسول الله ﷺ المتزايد على أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها قد أثار غريزة الغيرة عند أمنا عائشة رضى الله عنها، فتبوح بما فى مكنونها وتترجم عن مكانة خديجة فى نفس رسول الله ﷺ فتقول: ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة، مما كنت أسمع من ذكر رسول الله ﷺ لها، وما تزوجنى إلا بعد موتها بثلاث سنوات، ولقد أمره ربه أن يبشرها ببيت فى الجنة من قصب [١].

إن خديجة رضوان الله عليها خير نساء الأرض فى عصرها، فقد تبوأت مكانة عظمى فى سدة الفضائل لم تتبوأها امرأة غيرها، ولهذا قال عنها الحبيب المصطفى ﷺ: خير نسائها خديجة بنت خويلد، وخير نسائها مريم بنت عمران [٢].

أما وفاء عهد رسول الله ﷺ لخديجة الطاهرة فليس له نظير فى دنيا الوفاء والأوفياء، وفى دنيا النقاء، ودنيا الإخلاص، وكيف لا والحبيب المصطفى ﷺ معقل كل فضيلة، ومعقد كل مكرمة، وموئل كل بركة، فقد كان يود صديقات خديجة، وذوى رحماها؟!.

ففى صحيح الإمام مسلم رحمه الله عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان إذا ذبح الشاة قال: أرسلوها إلى أصدقاء خديجة فذكرت له يومًا، فقال: إنى لأحب حبيبها [٣] وفى رواية: إنى رزقت حبها .

نعم إن الحبيب المصطفى ﷺ ليحب من تحب زوجه الوفية خديجة، فإن المحبوب يذكر بالحبيب، وهذا ما حدث فى بيت الصديقة بنت الصديق رضى الله عنهما، فقد روت عائشة رضى الله عنها قالت: جاءت عجوز إلى النبى ﷺ وهو عندى، فقال لها رسول الله ﷺ: من أنتِ؟ قالت: أنا جثامة المزنية .

فقال: بل أنتِ حسانة المزنية، كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟ .

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) البخارى (٣٨١٥) مسلم (٢٤٣٠).

(٣) رواه مسلم (٢٤٣٥).

قالت: بخير، بأبى وأمى يا رسول الله .

فلما خرجتْ، قلت: يا رسول الله، تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال .

قال: إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان [(١)] .

وكان رسول الله ﷺ يبر صدائق خديجة رضى الله عنها بعد موتها، إحياء لذكراها، ووفاء لطهرها وكرمها.

عن سيدنا أنس ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى بالشىء يقول: اذهبوا إلى بيت فلانة، فإنها كانت صديقة لخديجة .

وفى الصحيح عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان يذبح الشاة فيتتبع به صدائق خديجة، فيهديها لهن [(٢)] .

ولم يغب عن بال المصطفى ﷺ صوت زوجه البارة خديجة، فكان صوتها الدافئ يسكن حناياه الشريفة، ففى الحديث الذى روته عائشة رضى الله عنها مصداق ذلك.

قالت عائشة: استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة بنت خويلد على رسول الله ﷺ، فعرف استئذان خديجة وتذكره، فارتاع لذلك، فقال: اللهم هالة بنت خويلد فغِرْتُ فقلت: وما تذكر عن عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت فى الدهر فأبدلك الله خيرًا منها [(٣)] .

بيد أن الحبيب المصطفى ﷺ غضب لذلك، حتى وعدت عائشة ألا تذكر خديجة إلا بخير، فكان ذلك منها فيما بعد رضى الله عنهما.

أجل، فخديجة نسيج وحدها، ولها خواص لم يلحقها بها أى واحدة من نساء أهل البيت ومن أزواج الرسول ﷺ، فمن خواصها انها لم تسؤه ﷺ قط، ولم تغاضبه، ولم ينلها منه إيلاء ولا عتب قط ولا هجر، وكفى بهذا منقبة وفضلاً.

وهذه فقرات بلاغية أنشأها ابن الأبار الأندلسى فى الثناء على نساء أهل البيت، وعلى أمنا خديجة خاصة، وها نحن أولاء نقتطف بعض زهرات الود والثناء من أكمام زهر رياض هذا البليغ.

---

(١) انظر فتح البارى (١٠/ ٣٦٥).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٣٨١٦) مسلم (٢٤٣٥).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٤٣٧).

يقول: ما كانت خديجة لتأتى بخداج ــ ناقص ــ ولا الزهراء لتلد إلا أزهارًا كالسراج، مثل النحلة لا تأكل إلا طيبًا، ولا تضع إلا طيبًا، خلدت بنت خويلد ليزكو عقبها من الحاشر العاقب، ويسمو مرقبها على النجم الثاقب... .

وعندما نزل الوحى الأمين على رسول الله ﷺ صورها ابن الأبار بقوله: ... طفقت بحكم الإجلال تسمح أركانه، وتفسح مجال السؤال عما خلف له مكانه، فباح لها بالسر المغيب، وقد لاح وسم الكرامة على الطيب المطيب، فعلمت أنه الصادق المصدوق، وحكمت بأنه السابق لا المسبوق، وما زالت حتى أزالت ما به من الغمة، وقالت: إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة:

إنى تفرست فيك الخير أعرفه	والله يعلم أن ما خاننى البصر
أنت النبى ومن يحرم شفاعته	يوم الحساب فقد أزرى به القدر

لا ترهب فسوف تبهر، وسيبدو أمر الله تعالى ويظهر، أنت الذى سجعت به الكهان، ونزلت له من صوامعها الرهبان، وسارت بخبر كرامته الركبان... وما لبثت أن غلقت أبوابها، وجمعت عليها أثوابها، وانطلقت إلى ورقة بن نوفل، تطلبه بتفسير ذلك المجمل... فاستبشر به ناموسًا، وأخبر أنه الذى كان يأتى موسى، فازدادت إيمانًا، وأقامت على ذلك زمانًا... سبقت لها من الله تعالى الحسنى فصنعت حسنًا وقالت حسنًا... دانت بالحق دين الإسلام، فحياها الملك بالسلام من الملك السلام... يسرت لاحتمال الأذى والنصب، فبشرت ببيت فى الجنة من قصب، مكثت للرسالة مواسية وآسية، فثلثت فى بحبوحة الجنة مريم وآسية.

وما أجمل أن نعيش فى أجواء هذه الأبيات فى امتداح أمنا خديجة رضى الله عنها:

علوت فلم تدرك مقاماتك الكبرى	فغيرك لا تدعى، وإن عظمت كبرى
وكم فى نساء العالمين عظيمة	ولكنها إن قورنت بك فالصغرى
تفرست فى وجه النبى فراسة	عرفت بها ما كان من أمره سرًّا
فأصبحت مهدًا للرسالة حاضنًا	تلقيتها من حين ما نزلت اقرا
وأنت التى طمأنت طه بأنه	تلقى من الله الرسالة والذكرا
وزملته دثرتِه وَلِوَرقَةٍ	ذهبتِ به يتلو عليه الذى يقرا

كتبت حروفًا من حياة محمدٍ فأصبحت فى أعلى صحائفها سطرا
وقد شكر المولى صنيعك إنه شكور وهذا الفعل يستوجب الشكرا
فأهداك مولاك السلام سلامه وأعطاك فى الفردوس من قصب قصرا

والآن، لا تزال أمنا خديجة ملء السمع والبصر والقلب ـ وأين مثل خديجة ـ نحب سيرتها، ونستروح العبير من أزهار حياتها، ونتفيأ بالرياض النضرة بقراءة سيرتها، لتكون لنا زاد المسير فى طريق الطهر، وفى درب العطاء، نحبها لنكون يوم القيامة مع من نحب بإذن الله فعسى أن يحشرنا ربنا معها، وعسى الله عز وجل أن يكرمنا لكرامتها ولكرامة رسوله الكريم ﷺ.

اللهم إنا نسألك عملاً صالحًا يقربنا إليك، اللهم إنا نسألك أن تلهمنا الصواب، وتجعل لنا من أمرنا رشدًا والحمد لله رب العالمين.

أم المؤمنين
سودة بنت زمعة رضى الله عنها

من السابقات إلى دوحة الإيمان وأفياء الإسلام.

هاجرت إلى الحبشة ثم إلى المدينة فهى من أصحاب الهجرتين.

سيدة جليلة، نبيلة، كريمة، طيبة النفس والقلب، دخلت خدر أمهات المؤمنين بعد خديجة بنت خويلد رضى الله عنها وأرضاها.

روت خمسة أحاديث شريفة.

كانت سيدة التمسك بالهدى النبوى، وتوفيت، فى أواخر خلافة سيدنا عمر ﷺ بالمدينة المنورة.

أم المؤمنين
سودة بنت زمعة رضى الله عنها[1]

رحلة مع السابقين:

الذين استجابوا لله وللرسول من السابقين الأولين، لم يكونوا كلهم ولا أكثرهم من الضعفاء، والأرقاء، والفقراء، وحواشى بيوتات مكة، وأتباعها، وأراذلها الذين استقروا فيها بادى الأمر، بل كانوا فى كثرتهم الكاثرة من صميم أبناء بيوت قريش وبطونها، وعلية شبابها، وأفضلهم فى عليا المكارم، وفى الحسب والنسب والمكانة الاجتماعية...

هؤلاء السابقون معروفون بأسمائهم وأنسابهم، وبيوتهم، وقبائلهم، وعشائرهم، وإن ما اشتهر على الألسنة وبعض الكتب من أن الذين سبقوا إلى دوحة الإيمان بدعوة رسول الله ﷺ، كانوا من المستضعفين والمحرومين، أو من الأرقاء والموالى، كلام لا عمق فيه، ولا تحقيق، ولا يمت إلى ديوان الأخبار الصحيحة بصلة، أو إلى الحقائق العلمية والعملية بأدنى رابطة، وإن كان بعض السُّبَّق ممن استضعفوا فى الأرض.

إن الله عز وجل قد بعث محمدًا ﷺ رسولاً وبشيرًا ونذيرًا إلى العباد كافة، وأمره عز وجل بالإنذار العام فى قوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ (المدثر: ٢)فنهض رسول

---

(١)انظر الإصابة (٤/ ٣٣٠) والاستيعاب (٤/ ٣١٧) وأسد الغابة (٦/ ١٥٧) وغيرها الكثير.

الله ﷺ بأمر ربه، لا يبالى بما يلقاه من شديد الأذى، وفادح البلاء، لا يتقى أحدا من الناس، ولا يصانع ولا يجامل.

بدأ الحبيب الأعظم ﷺ بتبليغ رسالته، وهو منفرد فى قومه، ليس معه من ينصره منهم، ولا من غيرهم، بل كانت قريش والدنيا من ورائها، إِلْبٌ على هذه الدعوة الهادية الهادفة الراشدة التى تندد بحياة الشرك والضلال والفوضى والضياع التى يعيشونها، تندد بحياتهم الظالمة التى يحيونها دون رادع يردعهم عن فجور ظلم يرتكبونه، أو عتو بغى يأتونه، إذ لا هدف يعيشون من أجله، ولا دين، ولا نظام، ولا ضمير...

وهذا الحبيب المصطفى ﷺ ماضٍ فى دعوته، لا يرده عن سبيلها راد، فاستجاب له أول من استجاب ــ بعد زوجه الأريبة النجيبة، الحسيبة النسيبة سيدة قومها جاهلية، وسيدة نساء العالمين إسلامًا خديجة بنت خويلد الأسدية القرشية ــ أبو بكر الصديق، أعلم قريش بقريش، وأحد ساداتها مالاً وشرفًا ومكانة.

كان أبو بكر ﷺ مُذْ دخل فى الإسلام قوامًا بالدعوة إلى الله عز وجل، دعا أبناء علية قريش، وذرا أحسابها، وشباب بيوتها، فاستجاب له هؤلاء، وكانوا نواة الإسلام الأولى، واللبنات الأساسية فى صرحه الكريم.

من هؤلاء المؤمنين السابقين إلى دوحة الإيمان: السكران بن عمرو بن عبد شمس القرشى العامرى أخو الصحابى الشهير سهيل بن عمرو العامرى، وأسلم معه زوجه وابنة عمه سودة بنت زمعة بن قيس القرشية العامرية رضى الله عنها.

عرفت سودة بأنها من ذوات السيادة والنبل والشرف فى مجتمع نساء قريش، ولما انتظمت مع زوجها فى ثلة المؤمنين الأولين، وأصبحت من جند دعوة محمد ﷺ مع المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات.

وعند ذلك طارت عقول قريش شعاعًا من أدمغتها، ودارت أفئدتهم فى حنايا أضالعهم، وتنفسوا الصعداء غمًّا وهمًّا وكمدًا لإسلام هؤلاء الأبرار الميامين، وتركهم ما كان يعبد آباؤهم الأولون.

بدأت فدائح البلاء تتوالى على هؤلاء البررة المؤمنين بما أنزل الله من الهدى ودين الحق، وطفقوا ينزلون بالمسلمين ألوان العذاب، وراحوا يتفننون فى تعذيبهم بأبشع ما يتصوره عقل بشر...

شعر رسول الله ﷺ بما نال أصحابه الكرام، من قواصم البلاء، ومن شديد الأذى، وهم صابرون محتسبون، لا يؤذن لهم برد الاعتداء، لا لأنهم ضعفاء، بل لكونهم دعاة هداية، وأصحاب رسالة، أريدوا لتبليغها إلى الدنيا كلها فى أرض الله، ولن يستطيعوا أن يبلغوا رسالات ربهم، إذا زجوا بأنفسهم فى الرد على أذى المشركين، فليصبروا، وليصابروا وليعفوا وليصفحوا وليغضوا الطرف عن سفاهة السفهاء وليتساهلوا مع ظلم الأقارب، حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولاً، وحتى يأتى بالفرج من عنده، وكانوا بذلك يقتدرون بالحلم والصبر بحبيبهم ونبيهم محمد ﷺ، ولله در البوصيرى إذ يقول مصورًا هذه المعانى بشعره الرائق الفائق:

جهلت قومه عليه فأغضى ... وأخو الحلم دأبه الإغضاء

وسع العالمين علمًا وحلمًا ... فهو بحر لم تعيه الأعباء

لمعت بارقة من الفرج، فليخرج المؤمنون إلى مكان يأمنون على أنفسهم من الفتنة فى دينهم، ويبلغون رسالات الله، فى أرض الله، فى الحبشة أرض الصدق والأمان، تلك الأرض لا يجدون فيها ظلمًا ولا هضمًا، ولا عداوة ولا رهبة ولا جدالاً ولا مراء.

فَرَجٌ قريب:

عقد المؤمنون آمالهم بالفرج عندما وجههم الحبيب الأعظم ﷺ إلى الهجرة فى قوله وهو يرى ما يُصَبُّ عليهم من البلاء: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها مَلِكًا لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه».

وفى حديث الزهرى رحمه الله عن عبد الرزاق قال: لما كثر المسلمون، وظهر الإيمان، أقبل كفار قريش على من آمن من قبائلهم، يعذبونهم، ويؤذونهم ليردوهم عن دينهم، قال: فبلغنا أن رسول الله ﷺ قال لمن آمن به: «تفرقوا فإن الله الله، فإن الله سيجمعكم» قالوا: إلى أين نذهب؟.

قال: «إلى هاهنا» وأشار بيده إلى أرض الحبشة، فهاجر إليها ذو عدد، منهم من هاجر بأهله، ومنهم من هاجر بنفسه.

كانت سودة بنت زمعة رضى الله عنها مع زوجها السكران بن عمرو مع النفر الثمانية من بنى عامر الذين خرجوا من ديارهم وأموالهم فى الهجرة الثانية، وركبوا عباب البحر، قاصدين أرض الحبشة حتى وصلوها.

مكثت سودة وزوجها فى الحبشة دهرًا، ثم قدما مكة ليتابعا طريق السلامة فى الإسلام.

سَوْدة فى مكة:

قال ابن سعد رحمه الله: «أسلمت سودة بمكة قديمًا وبايعت، وأسلم زوجها السكران ابن عمرو، وخرجا جميعًا مهاجرين إلى أرض الحبشة فى الهجرة الثانية».

قال النووى رحمه الله فى تهذيبه: «كان السكران بن عمر ﷺ مسلمًا، وهو من مهاجرة الحبشة، ثم قَدِمَا مكة، فمات بها السكران مسلمًا ﷺ».

تأثر النبى الكريم ﷺ للمهاجرة المؤمنة التى فقدت زوجها وأضحت أرملة وحيدة، تعيش فى مكة تتحمل آلام الوحدة وإيلامها وعذاب المشركين وغطرستهم وإيذائهم للمسلمين، ولكنها صبرت، واسترجعت، فالإيمان الذى استقر فى أعماقها أضاء لها جوانب الحياة فى ظل السعادة تحت جناح الإسلام.

فى تلكم الأيام، كان يؤلم رسول الله ﷺ فراق زوجه خديجة الطاهرة رضى الله عنها، وإذ ذاك قاسى بعدها وحشة ممضّة، فالطاهرة كانت قبل البعثة خير معين له على أن ينقطع للخلوة، والتحنث والتفكر فى خالق هذا الكون، وما كانت تضيق بهذه العزلة، بل كانت تبارك فيه حب النزوع إلى ملكوت السماء، ومحاولة الاتصال بالخير الأسمى، وكمال الكمال.

كانت خديجة رضى الله عنها بعد الرسالة، نبض الإسلام، وحاضنة الدعوة، والبلسم الشافى لكل الجراح، والنور المضىء لكل طريق فما من مرة كان يعود إليها مثقلاً بالهموم والأحزان، إلا كانت تقبل عليه تشجعه وتواسيه، ولا تغادره حتى تمسح عن قلبه الكبير الأوصاب، وحتى يفتر ثغره الشريف بالابتسام، ويتألق فى عينيه

الشريفتين التصميم والعزم على احتمال الآلام كلها فى سبيل الله عز وجل، حتى يؤدى الأمانة ويبلغ ما أنزل إليه من ربه.

لقد أذلت خديجة الدنيا بإدبارها عنها، وأعزت الآخرة بإقبالها عليها، ولما توفيت بكاها رسول الله ﷺ وأولادها وصحبه بدمع هتون، لقد رحلت الطاهرة سيدة نساء قريش، وحاضنة الإسلام، وأم المؤمنين وحبيبة رسول الله رب العالمين، فكان ذلك العام العاشر من البعثة عامًا مفعمًا بالأسى والحزن حتى سمى عام الحزن.

فى هذه الظروف الصعبة لسير الرسالة المحمدية، كان لا بد من امرأة عاقلة تستطيع أن تملأ الفراغ الذى تركته الصديقة خديجة بنت خويلد رضوان الله عليها، وإن كان مكان خديجة لا يملؤه إلا خديجة، بل إن مكانها ومكانتها فى قلب رسول الله ﷺ سيبقى لها وحدها، لا تشاركها واحة من نسائه الأخريات فيما بعد، إلا أن من سنن الفطرة الإلهية، وما عليه الهدى النبوى أن يتخذ الرجل زوجة وشريكة حياة.

رؤيا جميلة:

عندما تحدث الإمام الذهبى رحمه الله عن أمهات المؤمنين رضى الله عنهن، ذكر سودة بنت زمعة ووصفها بقوله: «كانت سيدة جليلة نبيلة ضخمة»[1] يفهم من هذا القول بأن السيدة النبيلة سودة، كانت من النساء اللاتى نشأن على الطهر والنقاء والصفاء، حتى عرفت بهذه الصفة بين النسوة القريشيات ممن اشتهرن فى مطلع فجر الإسلام.

ويبدو أن السيدة سودة بنت زمعة رضى الله عنها، كانت من اللواتى دخلن فى دين الله مع المبكرات، وقد تفاعلت مع الدين الجديد حتى غدت تنطق بالحكمة، وترى بعين البصيرة ما قد يكون، وقد تمنت الصديقة بنت الصديق رضى الله عنهما أن تكون فى مثل هديها وطريقتها، وصفاء نفسها، وجودة قريحتها، ولتلك الصفات اختص الله عز وجل سودة بأن تكون أمًّا للمؤمنين، وزوجًا لرسوله الأمين محمد ﷺ.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦٥).

وقد رأت سودة رضى الله عنها فى منامها ما حققته العناية الإلهية فيما بعد فأضحت زوج الرسول ﷺ، ففى طبقاته روى ابن سعد رحمه الله عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «كانت سودة بنت زمعة تحت السكران بن عمرو أخى سهيل بن عمرو، فرأت فى المنام كأن النبى ﷺ أقبل يمشى حتى وطئ عنقها، فأخبرت زوجها بذلك، فقال: لئن صدقت رؤياك لأموتن، وليتزوجك رسول الله ﷺ، فقالت: حجرًا وسترًا، ثم رأت فى المنام ليلة أخرى أن قمرًا انقض عليها وهى مضطجعة، فأخبرت زوجها، فقال: لئن صدقت رؤياك لم ألبث إلا يسيرًا حتى أموت، وتتزوجين من بعدى، فاشتكى السكران من يومه ذلك، فلم يلبث إلا قليلاً حتى مات، وتزوجها رسول الله ﷺ»[١].

أما عن كيفية زواج رسول الله ﷺ سودة، فقد تكفلت بالخبر اليقين واحدة من الصحابيات المؤمنات التى قامت بدور الوساطة فى هذه المهمة الشريفة، هذه الصحابية تدعى خولة بنت حكيم السلمية زوج عثمان بن مظعون رضى الله عنها وعنه.

اذكريها علىَّ:

كان الصحابة الكرام رضى الله عنهم رجالاً ونساءً، يعرفون مكانة خديجة رضى الله عنها فى نفس الرسول ﷺ، وعندما توفيت كانوا يرجون له ما يخفف عنه اللوعة واللهفة، أن يتزوج ليعيد لبيته وبناته شيئًا من الأنس والسلوى.

ولكن، مَنْ للعيال بعد خديجة؟! بل من ذا الذى يجرؤ أن يفاتح النبى ﷺ فى أمر زواجه، وكلهم يعرف ويدرك مكانة الطاهرة خديجة من نفسه؟ أم من الذى يملك الشجاعة ليدلى دلوه فى هذا المضمار؟.

لم يكن عند أحد منهم شجاعة، ليفاتح رسول الله ﷺ فى أمر أن تحل امرأة أخرى محل سيدة نساء قريش خديجة، حتى إن سيدنا عمر بن الخطاب العبقرى الشديد، أشفق على نفسه من حمل هذه الرسالة إلى النبى الحبيب ﷺ.

إذن ما العمل؟ لا أحد يقدر على شىء من هذا، ولكن المشيئة الإلهية جعلت خولة بنت حكيم رضى الله عنها واحدة من فضليات نساء الصحابة، ممن كى يدخلن بيت

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٥٦، ٥٧).

النبى ﷺ ويعرفن بعض شئونه، فكانت تراه حزينًا لفراق زوجه الطاهرة خديجة رضى الله عنها وذات يوم بينما كان رسول الله ﷺ فى البيت، إذا بخولة بنت حكيم تستأذن للدخول عليه، ولما رآها رحب بها وأكرم مثواها، فهى من المؤمنات الصادقات الصابرات، قد هاجرت الهجرة الأولى إلى الحبشة مع زوجها عثمان بن مظعون ﷺ، ثم ما لبثت أن عادت معه إلى مكة، ليكونا إلى جوار النبى ﷺ، وإلى جوار المسلمين، يتحملان معهم الصبر فيما ينزل بهم من أذى قريش حتى يجعل الله من ذلك مخرجًا.

وأحبت خولة أن تدخل السرور إلى قلبه الشريف، وأن تقترح عليه أن يتخذ زوجة له لتملأ بعض الفراغ الذى تركته خديجة رضى الله عنها، وراحت خولة تجمع أطراف شجاعتها قبل أن يتحرك لسانها بما أرادت أن تقوله أو بما جاءت من أجله، فقالت فى هدوء وأدب: «يا رسول الله كأنى أراك قد دخلتك خلة حزن لفقد خديجة» فأجاب الرسول الكريم ﷺ فى نبرات حزينة: «أجل كانت أم العيال وربة البيت».

ويبدو أن خولة بنت حكيم رضى الله عنها قد وجدت مدخلاً كريمًا، تدخل به إلى نفس النبى الكريم ﷺ من هذا الباب، ووجدت الفرصة للحديث عن الزواج من إحدى عقيلات قريش، وراحت خولة تجمع أطراف شجاعتها من جديد وقالت: «يا رسول الله، ألا أخطب عليك؟» فقال ﷺ فى رفق: «بلى فإنكن معشر النساء أرفق بذلك» سكتت خولة لحظات، وقد أضاء الأمل طريق مساعيها الحميدة، وتساءلت: «لما لا أحدثه عن سودة بنت زمعة وعن عائشة بنت أبى بكر، فقد تحدثت مع سودة بالأمس القريب، وتحدثت مع أم رومان زوج أبى بكر فى شأن ابنتها عائشة، وها هو ذا رسول الله ﷺ يشهد لى بالرفق فى هذا الموضوع؟!!».

وشعرت خولة براحة عميقة لهذه الفكرة التى تزور مخيلتها الآن، عندئذ فاتحت رسول الله ﷺ بقولها: «يا رسول الله ألا تتزوج، فإنى قد وجدت لك ما يدخل على قلبك السرور، وإن شئت بكرًا، وإن شئت ثيبًا؟» فنظر إليها رسول الله ﷺ وقال: «من؟» قالت: «أما البكر، فعائشة بنت أحب خلق الله إليك أبى بكر، وأما الثيب، فسودة بنت زمعة، وقد آمنت بك، واتبعتك على ما تقول».

ثم إن خولة أشارت على النبى ﷺ بزواج سودة وذكرت له حالها بعد وفاة زوجها السكران بن عمرو، فقال رسول الله ﷺ: «فاذكريها علىَّ» وكذلك قال عن عائشة،

وطار فؤاد خولة فرحًا لأنها نجحت فى مهمتها، ووفقت لإدخال السرور إلى قلب النبى ﷺ، وانطلقت إلى سودة، وقد ارتسم على وجهها الاستبشار، وبان فيه الفرح والسرور.

ولنترك الحديث الآن لخولة لتحدثنا عن بقية مهمتها، ودخولها على سودة بنت زمعة فتقول: «فذهبت إلى سودة وأبيها زمعة، وكان شيخًا كبيرًا قد جلس عن المواسم فقلت: ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة؟ فقالت سودة فى دهشة: وما ذاك يا خولة؟ قلت: أرسلنى رسول الله ﷺ لأخطبك عليه.

غمر سودة سرور عميق، واستشعرت دموع الفرح تبلل وجهها وروحها، وتذكرت ما رأت فى نومها منذ فترة، وها هى ذى رؤياها قد جعلها ربها حقًّا، وما كانت تطمع فى أن تكون زوجًا لرسول الله ﷺ بعد أن نالت منها السنون، وإنه لشرف عظيم لا يدانيه شرف أن تصبح من نساء أهل البيت النبوى، ثم توجهت إلى خولة وقالت لها والبشر يملأ وجهها: وددت ذلك، ولكن ادخلى على أبى فاذكرى له ذلك، قالت خولة: فدخلت على أبى سودة، وحييته وقلت: أنعم صباحًا، فقال: من أنت يا هذه؟ فقلت: خولة بنت حكيم بن أمية السلمى زوج عثمان بن مظعون الجمحى، قالت خولة: فرحب بى والد سودة، وقال ما شاء الله أن يقول، فقد كان على علم بأنى خرجت عن آلهة قومى ودينهم وجاهليتهم، وآمنت وهاجرت إلى الحبشة، ثم عدت إلى مكة، وسألنى عن حاجتى وقال: ما شأنك؟! فقلت: إن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب يذكر ابنتك سودة أم الأسود، قال: إن محمدًا كفء، كريم، ولكن ما تقول سودة؟ قلت: هى تحب ذلك، قال: إذن ادعيها إلىَّ فذهبت ودعوتها، فقال لسودة: أى بنية، إن خولة بنت حكيم تزعم أن محمد بن عبد الله قد أرسل يخطبك، وهو كفء، أتحبين أن أزوجك منه؟.

فقالت سودة فى صوت يفصح عن رغبتها: نعم إن أحببت.

فالتفت زمعة إلى خولة وقال لها: قولى لمحمد فليأتنا.

قالت خولة: فجاء رسول الله ﷺ وعقد عليها، وملكها فزوجه إياها بعد أن أصدقها أربع مئة درهم، ودخلت سودة إلى البيت النبوى الكريم لتغدو من أمهات المؤمنين وممن تشرفن بخدمة خاتم النبيين».

وما أجمل أن نقرأ هذه التغريدة الجميلة التى تترجم زواج النبى ﷺ من سودة بنت زمعة رضى الله عنها:

وتجىء خولة للرسول بصورة المتسائلين
فتقول هل لك فى الزواج أيا إمام المرسلين
فأجابها من ذى تكون فأجالت القول المبين
هى بنت زمعة سودة هى خِيرَةٌ فى المسلمين
قدمات عنها زوجها السكران صارت لا معين
قال الرسول لتذكرينى عندها كالخاطبين
جاءت لسودة أخبرتها رغبة الهادى الأمين
قالت لها هذا أبى فلتخبريه ليستبين
قالت دخلت على أبيها فى تحية جاهلين
أخبرته عن رغبة الهادى لبنت الأكرمين
الشيخ قال لبنته بمحمد هل ترتضين
قالت فإنى أرتضيه على جميع العالمين
جاء النبى إلى أبيها فى الشيوخ الطاعنين
يا فخر سودة قد تزوجها إمام المتقين
هذا الزواج به غدت فى أمهات المؤمنين

ذكر أهل السير والأخبار أنه كان لأم المؤمنين سودة أخ يدعى عبد الله بن زمعة وكان لا يزال على دين قريش، وصادف أن كان خارج مكة، فلما قدمها، وجد أن أخته سودة قد تزوجها محمد ﷺ فطارت نفسه شعاعًا، وتملكه الغيظ، وركبته حمى الجاهلية وحثًّا بالتراب على رأسه أسفًا وحزنًا على هذا الزواج، ودخل على أبيه يرغى ويزبد، ويتوعد ويهدد، فأى عار ـــ بزعمه ـــ قد لحقه إذ تزوج محمد بن عبد الله سودة؟.

ولما فتح الله عز وجل بصيرته على محاسن الإسلام وبصره على نوره، آمن بالله ربًّا، وبمحمد رسولاً ونبيًّا، قال محدثًا عن نفسه: «إنى لسفيه يوم أحثو التراب على رأسى، أن تزوج رسول الله ﷺ أختى»!!.

كانت سودة رضى الله عنها أول من تزوج بها النبى ﷺ، بعد موت خديجة رضى الله عنها، وكان زواجها فى رمضان سنة عشر من النبوة، وانفردت به نحوًا من ثلاث سنين أو أكثر حتى تزوج بعائشة، وهاجر بها إلى المدينة، وبزواجها من رسول الله ﷺ ارتفعت مكانتها إلى أمومة المؤمنين، وهل هناك شىء أعلى من هذه المكانة؟ وأعلى من نساء أهل البيت النبوى؟!.

سودة فى بيت النبى ﷺ:

كانت سودة رضى الله عنها تدرك بثاقب بصيرتها أن فى زواج رسول الله ﷺ منها، إنما هو مواساة لحالها، وتكريم لصبرها، وجهادها، فقد تجاوزت مرحلة الصبا ودخلت مرحلة ما بعد الكهولة، ولكنها فى نضج أنثوى وعاطفة غامرة إلا أنها كانت تدرك أن الرسول الكريم ﷺ لم يتزوجها إلا ليمسح عنها ما قاست من أهوال فى سبيل الله، ولكنها كانت تتجمل بجميل الصبر، وتتغذى برحيق الإيمان لذلك أولاها الله عز وجل هذه المكانة وهو العليم الخبير.

كانت سودة سعيدة غاية السعادة أن تكون بالقرب من رسول الله ﷺ، وكان وجهها يشرق بالابتسام عندما ترى رسول الله ﷺ ناعم البال، راضيًا عنها وأن تخفف عنه بعض ما يلقاه من أذى المشركين.

فى بيت رسول الله ﷺ، راحت سودة تحدثه عن أخبار المؤمنين الذين لا يزالون فى الحبشة عند ملكها الحبشى النجاشى، وتروى ما كان من أمر المؤمنين، وكانت إذا ما تحدثت عن ابنته رقية وعن زوجها عثمان، يبدو الاهتمام فى وجه رسول الله ﷺ إذ كان قلبه الشريف يهفو إلى ابنته رقية التى هاجرت إلى الله ويشتاق قلبه إلى عثمان، وربما كانت سودة تشعر أن الحديث عنهما يدخل السرور إلى قلبه الشريف، فكانت تسهب فى الحديث عنهما لتدخل البهجة إلى نفسه العظيمة وقلبه الكبير.

كان الرسول الكريم ﷺ يصغى إلى أحاديث سودة ليأنس بها، ولكنه لم يكن يحدثها عن آلامه، وعن آماله كما كان يفعل مع خديجة، وكانت أقصى آمال سودة أن تخفف عن رسول الله ﷺ ما كان يلقى من كيد المشركين، وسفاهتهم.

كانت سودة رضى الله عنها، تعلم علم اليقين أنها لن تستطيع أن تملأ الفراغ الذى خلفته الطاهرة خديجة رضى الله عنها فى قلب رسول الله ﷺ، بيد أن كل سعادتها أن تكون بقرب رسول الله ﷺ الذى أخرجها من الظلمات إلى النور، وتهيئ له ما تستطيع من سبل الراحة، فهى تحترم صمته إذا صمت، وتلبى رغباته راضية إن أشار، فقد وطدت نفسها من أول يوم دخلت فيه بيت الرسول ﷺ أن تحترم عواطفه، وتحترم ذكرياته ووفاءه لأم المؤمنين خديجة الراحلة إلى الفردوس فى بيت من قصب لا صخب فيه ولا نصب.

وفى البيت النبوى، كان لسودة رضى الله عنها مواقف نبيلة وكريمة، فقد قلعت مكة رقية بنت رسول الله ﷺ وزوجها عثمان بن عفان من هجرتهما من الحبشة، ووقعت عيناهما على الدار الخديجية الغالية، دار أمها الطاهرة خديجة رضى الله عنها، تلك الدار المباركة التى شاهدت رقية فيها أحلى أيام عمرها، دار الوحى والإيمان، ودار الصدق والوفاء، فانبجست فى جوفها مشاعر متباينة كانت مزيجًا من اللهفة والرهبة، والفرح والحزن، والقلق والهدوء، وطرقت الباب، فانتشر الخبر بقدوم رقية وعثمان، وراحت أم كلثوم وفاطمة ومن كان هناك يستبقون الباب إليها، وتعانقت الأخوات، وسالت العبرات واستيقظت الذكريات، وأحس جميعهم غياب الأم الحنون، فأفرغن حزنهن فى بكاء سخى مدرار...

جاءت سودة بنت زمعة وراحت ترحب برقية وعثمان رضى الله عنهما، وفى مثل لمح البصر، هبت ذكريات سودة عن هجرتها إلى الحبشة مع المهاجرين، وأخذت تسأل رقية وعثمان، عمن تركاه خلفهما فى الحبشة من المسلمين، فقد كانت سودة تمضى أغلب أوقاتها مع رقية وخولة بنت حكيم وبعض النسوة يتذاكرون أمر الإسلام، وأمر رسول الله ﷺ، وأمر المسلمين والمسلمات.

لم تحلم سودة رضى الله عنها فى يوم من الأيام بأن تكون زوجة النبى ﷺ، وأن تصبح أم المؤمنين، وما كان ذلك ليخطر على بال رقية رضى الله عنها أيضًا، ولولا عطف رسول الله ﷺ على ما أصاب سودة من الترمل بعد موت زوجها وتقديره، ولما احتملت من آلام فى سبيل الله ورسوله، ما دخلت بيته ﷺ لتملأ بعض الفراغ الذى خلفته الطاهرة خديجة رضوان الله عليها.

بلغ الحبيب المصطفى ﷺ أن رقية وعثمان رضى الله عنهما قد رجعا من الحبشة، فإذا بوجهه الشريف مسفر ضاحك مستبشر، وإذا بالحنان يتدفق من قلبه الشريف، وضم رسول الله ﷺ ابنته رقية رضى الله عنها إليه، وغمرها بعطفه، وأخذ عثمان بين ذراعيه، ثم جلسوا يصغون إلى رقية وعثمان وهما يرويان حديث الهجرة إلى الحبشة، ويذكران أخبار المسلمين والنجاشي.

مكثت سودة أم المؤمنين رضى الله عنها فى مكة إلى أن أذن الله عز وجل لرسوله وللمؤمنين والمؤمنات بالهجرة إلى المدينة المنورة، ولما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، بعث زيد بن حارثة وبعث معه مولاه أبا رافع، وأعطاهما بعيرين، وخمس مائة درهم، فخرجن جميعًا، وخرج زيد وأبو رافع بفاطمة الزهراء، وبأم كلثوم وبسودة بنت زمعة وبأم أيمن الحبشية زوج زيد بن حاثة ومعها أسامة بن زيد ابنها حتى قدموا المدينة المنورة، ونزلوا فى بيت حارثة بن النعمان الأنصارى ﷺ.

وفى المدينة المنورة مكثت سودة رضى الله عنها تؤدى دورها، واستطاعت أن تقوم على بيت النبوة، وتخدم بنات النبى الطاهرات رضى الله عنها، وأن تدخل السعادة والسرور إلى قلبه الشريف ﷺ بتصرفاتها البريئة.

وبعد سنوات ثلاث تزوج النبى ﷺ عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما، ودخلت عائشة، بيت النبوة، وكان لها مع سودة أخبار جميلة مشرقة، ثم دخلت البيت النبوى نساء أخريات كن أزواج النبى ﷺ مثل: حفصة بنت عمر رضى الله عنهما وزينب بنت جحش وأم سلمة المخزومية وغيرهن رضى الله عنهن وأرضاهن، وحشرنا فى معيتهن، وغفر لنا ورحمنا إنه تواب رحيم.

سودة وعائشة وأخبار لطيفة:

فى البيت النبوى الشريف الكريم الذى أذهب الله عنه الرجس وطهره تطهيرًا، وأفاض عليه البركات لتحفه، والخيرات لتنبعث منه، والنور ليسطع من جنباته كى يضىء الدنيا بأسرها فيخرجها من ظلمات الجاهلية إلى نور الهدى ودين الحق، ويهديها سواء السبيل، ويسدد نطقها بالقول الثابت ويربيها على مكارم الأخلاق، وعلى الفضائل كلها.

فى هذا البيت الذى يعبق بطيوب الإيمان، ويفوح بندى الفضائل، كانت سودة بنت زمعة أم المؤمنين تمارس حياتها إلى جانب أم المؤمنين عائشة بنت الصديق الأكبر، ذات الخصال الحميدة، المتفردة فى عالم النساء، بأنها أفقه نساء الأمة المحمدية على الإطلاق، حبيبة الحبيب ﷺ، وكذلك أبوها الحبيب المحبب من الحبيب المصطفى ﷺ.

أقول: «مع عائشة أم المؤمنين كانت سودة تعيش فى رحاب البيت النبوى الطاهر، وقد هدأت فيها غيرة الأنثى، فلا تطمع إلا بمرضاة رسول الله ﷺ الذى كان يشفق عليها، لذا فقد وهبت يومها لضرتها عائشة ابنة الصديق رضى الله عنهما، رعاية لقلب رسول الله ﷺ تبتغى مرضاته ﷺ».

أخرج ابن داود رحمه الله فى سننه عن هشام بن عروة عن أبيه قال: قالت عائشة: «يا بن أختى، كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض فى القسم، من مكثه عندنا، وكان قَلَّ يوم إلا وهو يطوف علينا جميعًا، فيدنو من كل امرأة من غير مسيس حتى حين أسنت، وفرقت أن يفارقها رسول الله ﷺ قالت: يا رسول الله، يومى لعائشة، فقبل ذلك رسول الله ﷺ منها، قالت نقول فى ذلك: أنزل الله تعالى وفى أشباهها أراه قال: ﴿ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا ﴾ (النساء: ١٢٨)[1].

وهبت سودة يومها للنبى ﷺ، وهذا من خواصها رضى الله عنها، حيث آثرت بيومها حبيبة النبى ﷺ، تقربًا إليه ﷺ، وحبًّا له، وإيثارًا لمقام الصديقة بنت الصديق عنده، فكان ﷺ يقسم لنسائه، ولا يقسم لها، وهى راضية بذلك، مؤثرة لرضى النبى ﷺ.

---

(١) **صحيح:** رواه أبو داود (٢١٣٥) وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود.

ذكر أبو عمر القرطبى رحمه الله فى الاستيعاب عن عائشة رضى الله عنها قالت: «لما أسنت سودة عند رسول الله ﷺ همَّ رسول الله ﷺ بطلاقها، فقالت: لا تطلقنى، وأنت فى حل منى، فأنا أريد أن أحشر فى أزواجك وإنى قد وهبت يومى لعائشة، وإنى لا أريد ما تريد النساء، فأمسكها رسول الله ﷺ حتى توفى عنها سائر من توفى من أزواجه رضى الله عنهن».

وفى رواية ابن سعد رحمه الله أن سودة قالت للحبيب المصطفى ﷺ: «لكنى أحب أن أبعث فى نسائك، وإنى قد جعلت يومى لعائشة».

ولنستمع إلى هذه التغريدة التى تقص علينا قصة سودة، وهبتها يومها لعائشة:

شاء النبى طلاقها لما أسنت بالسنين
قالت فلا تفعل أيا خير الخليقة أجمعين
فلتبقنى كى أبعثن فى أمهات المؤمنين
ووهبت حقى منك للصغرى وبنت الأكرمين
إنى زهدت عن الرجال وإننى فى الصادقين
لقد استجاب لها النبى ونالت الشرف الثمين

والآن، دعونا نستمع إلى ثناء أم المؤمنين عائشة على أم المؤمنين سودة رضى الله عنهما، تقول عائشة: «ما رأيت امرأة أحب إلى أن أكون فى مسلاخها من سودة بنت زمعة إلا أن بها حدة، فلما كبرت جعلت يومها من النبى ﷺ لعائشة، قالت: يا رسول الله قد جعلت يومى منك لعائشة».

ولعائشة وسودة رضى الله عنهما أكثر من موقف لطيف ينبئ عن لطف كل واحدة منهما، مع كمال سرور النبى ﷺ الكريم من كلتيهما، وهذا ما حدث فعلاً فى إحدى الجلسات، وفى بيت عائشة نفسها.

روى النسائى وأبو بكر الشافعى عن عائشة رضى الله عنها قالت: «زارتنا سودة يومًا، فجلس رسول الله ﷺ بينى وبينها إحدى رجليه فى حجرى والأخرى فى حجرها، فعملت له حريرة — أو قال: خزيرة — فقلت: كلى، فأبت، فقلت: لتأكلين أو لألطخن وجهك، فأبت، فأخذت من القصعة شيئًا، فلطخت به وجهها، فضحك رسول الله ﷺ،

فرفع رسول الله ﷺ رجله من حجرها لتستقيد منى، وقال لها: «لطخى وجهها» فأخذت من الصحفة شيئًا، فلطخت به وجهى ورسول الله ﷺ يضحك»[١].

فكاهة ووداعة:

كان رسول الله ﷺ يعامل زوجه سودة بنت زمعة بالرفق والرحمة، لما كانت تحمله من صفات الوداعة والطيب، فكان يستمع لفكاهتها اللطيفة التى كانت تضحكه.

ففى «طبقاته» روى ابن سعد رحمه الله عن سودة رضى الله عنها قالت لرسول الله ﷺ: «يا رسول الله، صليت خلفك البارحة، فركعت بى، حتى أمسكت بأنفى مخافة أن يقطر الدم، قال: فضحك، وكانت تضحكه الأحيان بالشىء».

ويظهر أن أم المؤمنين سودة رضى الله عنها كانت خفيفة الظل، طيبة القلب، ولذا كانت بعض أمهات المؤمنين يمزحن معها، ويداعبنها بغية التماس الفكاهة، وبغية التماس الحكمة الموهوبة أحيانًا، أو الترويح عن النفس أحيانًا أخرى، وكان الرسول الكريم ﷺ يتقبل تلك الدعابات بما يولج حبه فى القلوب، ويؤنس أزواجه الكريمات رضى الله عنهن بما لا يتعارض مع الحقوق والدين...

روت خليسة مولاة حفصة بنت عمر أم المؤمنين رضى الله عنهما، قصة طريفة عن مولاتها حفصة وعائشة مع سودة بنت زمعة ومزحهما معها بأن الدجال قد خرج، فقد ذكرت خليسة «أن عائشة وحفصة رضى الله عنهما كانتا جالستين تتحدثان، فأقبلت سودة فقالت إحداهما للأخرى: أما ترى سودة؟ ما أحسن حالها! لنفسدن عليها، وكانت سودة من أحسنهم حالاً كانت تعمل الأديم الطائفى فلما دنت منهما داعبتاها، وقالت لها: يا سودة، أما شعرت؟ قالت سودة فى بساطة وتعجب: وما ذلك يرحمكما الله؟! قالتا: خرج الأعور الدجال، ففزعت سودة وخرجت فاختبأت فى بيت كانوا يوقدون فيه، واستضحكتا، وجاء رسول الله ﷺ فقال لحفصة وعائشة: «ما شأنكما؟» فأخبرتاه بما كان من أمر سودة، فذهب إليها فقالت: يا رسول الله، أخرج الدجال الأعور؟! فقال

---

(١) رواه النسائى فى عشرة النساء (٣١).

رسول الله ﷺ: «لا وكأن قد خرج» فخرجت، وجعلت تنفض عنها العنكبوت» وأعتقد أن سودة لما علمت بجلية الأمر ضحكت هى الأخرى كثيرًا.

وميدان الدعابة هذا ميدان لطيف، فقد كان رسول الله ﷺ يباسط الخلق ليستضيئوا بنور هدايته فى دياجى الجهل، ويقتدوا بهديه ﷺ، ولذا لم ينكر على زوجاته تلك الدعابة اللطيفة مع سودة رضى الله عنها وعنهن.

إلا أن رسول الله ﷺ كان يمزح ولا يقول إلا حقًا، ومن خلال بساطة سودة وطيب نفسها كان يوجهها التوجيه الهادف، فلا يخلط الجد بالهزل، من ذلك ما أورده الحافظ ابن حجر فى «الإصابة» أن سودة قالت: «يا رسول الله، إذا متنا صلى لنا عثمان بن مظعون حتى تأتينا أنت».

فقال لها: «يا بنت زمعة لو تعلمين الموت لعلمت أنه أشد مما تظنين» وبهذا لفت ﷺ نظر سودة إلى أن الموت ليس شيئًا عاديًا، والتفكير به أشد وأعظم مما نتوقعه أو نظنه.

اعتذار مقبول:

فى غزاة بدر، أنزل الله عز وجل نصره على رسوله، وعلى المؤمنين، وراح المسلمون يقتلون فريقًا، ويأسرون فريقًا، وكان ممن وقع فى الأسر سهيل بن عمرو العامرى، وكان الذى أسره مالك بن الدُخشم، وسار الجيش الإسلامى المنتصر نحو المدينة راجعًا من بدر، تحت راية الحبيب المصطفى ﷺ وقيادته حتى إذا ما اقتربوا من المدينة المنورة، قال سهيل بن عمرو لمالك بن الدخشم الذى أسره: «خل سبيلى للغائط».

فقام مالك معه، فقال سهيل: «إنى أحتشم فاستأخِر عنى».

فاستأخر عنه فمضى سهيل على وجهه، وانتزع يده من الحبال ومضى، فلما أبطأ سهيل على مالك بن الدخشم أقبل فصاح فى الناس، فخرجوا فى طلبه، وخرج النبى ﷺ فى طلبه بنفسه وقال: «من وجده فليقتله».

وأخذوا ينقبون عنه على ظهور الإبل والجياد، وانطلق ﷺ فى أثره، فوجده قد أخفى نفسه بين شجيرات، فتقدم إليه، فإذا بسهيل لا يتحرك من مكانه، بل ظل ثابتًا وهو

مأخوذ، فقبض ﷺ على سهيل، ثم عاد به، فأمر به فربطت يداه إلى عنقه، ثم قرنه إلى راحلته.

راح النبى ﷺ يتقدم على ناقته القصواء، وقد رُبطت يدا سهيل بن عمرو إلى عنقه، وقرن إلى الناقة وراح مالك بن الدخشم الذى أسره يقول:

أسرت سهيلاً فلا أبتغى به غيره من جميع الأمم
وخندف تعلم أن الفتى سهيلاً فتاها إذا تظلم
ضربت بذى الشَّعر حتى انثنى وأكرهت نفسى على ذى العلم

دخل رسول الله ﷺ والمسلمون المدينة وهم مستبشرون بنصر الله عز وجل، الذى أكرمهم به وأعزهم، وأعلى شأنهم ومكانتهم.

فى تلك الأثناء كانت سودة عند آلِ عفراء فى مناحتهم على عوف ومعوذ ابنى عفراء اللذين كانا أول من أصابا أبا جهل، وكانت ثلة أخرى من النساء هنالك، وجاء من قال: «هؤلاء الأسرى قد أتى بهم» خرجت سودة رضى الله عنها إلى بيتها ورسول الله ﷺ فيه، وإذا سهيل بن عمرو مجموعة يداه إلى عنقه فى ناحية الحجرة، فما ملكت نفسها حين رأته على تلك الحالة أن قالت فى دهش: «أى أبا يزيد، أسلمتم أنفسكم، وأعطيتم بأيديكم، ألا متم كرامًا؟!».

لم تكن سودة رضى الله عنها تعلم أن رسول الله ﷺ يسمعها، فما راعها إلا قوله ﷺ من البيت: «يا سودة أعلى ربك ورسوله تحرضين»؟ واستحيت سودة وقالت فى بساطة الصادقات: «يا رسول الله، والذى بعثك بالحق، ما ملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد مضمومة يداه إلى عنقه أن قلت ما قلت».

فتبسم ﷺ ضاحًا من قولها، ووعدها خيرًا بشأن الأسرى، وقبل اعتذارها البرىء، فقد علم ﷺ أنها زلة لسان لا تعنى بها التحريض، فالرجل يرسف فى القيود، وإنما هو ضعف النساء أمام مثل هذه المواقف مع ذوى القربى، وعندئذ قال: استوصوا بالأسرى خيرًا، وكان أحدهم يؤثر أسيره بطعامه.

بهذه الطريقة الأليفة والحكمة اللطيفة كان رسول الله ﷺ يوجه زوجاته الطاهرات ليكن القدوة الكريمة لنساء الدنيا، وليكون نساء بيته منبع الفوائد ومورد المناهل، وزاد المتبلغين إلى ما يرضى الله عز وجل، فكن كذلك رضى الله عنهن.

من مناقبها:

لأم المؤمنين سودة بنت زمعة رضى الله عنها فضائل عديدة، منها ما اختصت به من قبل الحبيب المصطفى ﷺ ومنها ما كان ينبع منه شخصيتها، ويفيض من كرم أخلاقها، ومنها ما كان اقتداء بزوجها رسول الله ﷺ، فمما اختصت به أن أذن لها رسول الله ﷺ فى ليلة المزدلفة، أن تدفع قبل الزحمة من الليل.

أخرج البخارى رحمه الله بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: «استأذنت سودة النبى ﷺ ليلة جمع وكانت ثقيلة ثبطة فأذن لها»[١] ويبدو أن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قد غبطت سودة أم المؤمنين، وودت لو تكون هى التى طلبت الإذن من رسول الله ﷺ، فإن ذلك أحب إليها من كل شىء.

أخرج البخارى رحمه الله بسنده عن القاسم بن محمد عن عائشة رضى الله عنها قالت: نزلنا المزدلفة، فاستأذنت النبى ﷺ سودة أن تدفع قبل حطمة الناس ــ وكانت امرأة بطيئة ــ فأذن لها، فدفعت قبل حطمة الناس، وأقمنا حتى أصبحنا نحن، ثم دفعنا، فلأن أكون استأذنت رسول الله ﷺ كما استأذنت سودة أحب إلى من مفروح به[٢].

وما دمنا فى الحج مع النبى ﷺ وأزواجه الطاهرات رضى الله عنهن، فقد كانت سودة رضى الله عنها مع نسائه اللائى حججن، وكانت متمسكة بهديه وأمره...

روى الإمام أحمد رحمه الله بسنده عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لنسائه فى حجة الوداع: «هذه ثم ظهور الحصر» فكانت سودة تقول: «لا أحج بعدها أبدًا».

وفى رواية قال: «فكن كلهن يحججن إلا زينب بنت جحش وسودة بنت زمعة، فكانتا تقولان: والله لا تحركنا دابة بعد أن سمعنا ذلك من رسول الله ﷺ»[٣] وقالت سودة: «حججت واعتمرت فأنا أقر فى بيتى كما أمرنى الله عز وجل».

---

(١) **صحيح:** رواه البخارى (١٦٨٠) وانظر الفتح (٣/ ٦١٥).

(٢) **صحيح:** رواه البخارى (١٦٨١) وانظر الفتح (٣/ ٦١٥).

(٣) **صحيح:** رواه أحمد (٢/ ٤٤٦) (٦/ ٣٢٤).

وفى ميدان الجهاد كان لأم المؤمنين سودة رضى الله عنها نصيب وافر، فقد حضرت معه ﷺ غزاة خيبر، ويشهد لها بهذا ما أورده ابن سعد رحمه الله فى طبقاته قال: «أطعم رسول الله ﷺ، سودة بنت زمعة بخيبر ثمانين وسقًا تمرًا، وعشرين وسقًا شعيرًا».

وتشير المصادر إلى أن أم المؤمنين سودة كانت كريمة، لا تستقر الدراهم عندها، بل تسارع فى إنفاقها زهدًا وكرمًا وطلبًا لمرضاة الله عز وجل، من ذلك ما ورد فى منافبها فى هذا المجال أن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ بعث إلى سودة بنت زمعة بغرارة من دراهم قالت: «ما هذه؟» قالوا: «دراهم» قالت: «فى الغرارة مثل التمر؟!! يا جارية بلغينى القنع، ففرقتها».

ومن فضائل سودة أم المؤمنين رضى الله عنها أن الله عز وجل قد أنزل فى حقها آيات تتلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وقد ذكر جمهور المفسرين والمحدثين والعلماء وغيرهم ذلك.

فقد أخرج الترمذى والطبرانى والبيهقى وغيرهم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «خشيت سودة أن يطلقها النبى ﷺ فقالت: لا تطلقنى وأمسكنى، وأجعل يومى لعائشة، ففعل، فنزلت: ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ (النساء: ١٢٨)».

سودة والحديث النبوى:

أم المؤمنين سودة رضوان الله عليها، إحدى نساء أهل البيت النبوى اللواتى وعين الحديث النبوى الشريف، وحفظنه وروينه، وبلغنه للناس دينًا وتعليمًا، فقد كانت سودة رضى الله عنها، تروض نفسها بالتقوى وحب العلم، ورواية الحديث حتى كان ذلك، قال الذهبى رحمه الله: «يروى لسودة خمسة أحاديث منها فى الصحيحين حديث واحد عند البخارى»[١].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦٩).

حدث عنها من الصحابة: سيدنا عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما، ومن التابعين: يحيى بن عبد الله الأنصارى رحمه الله.

وها نحن الآن مع الحديث الذى روته أمنا سودة رضى الله عنها عند البخارى، إذ أخرج فى صحيحه بسنده عن الشعبى عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما، عن سودة زوج النبى ﷺ قالت: «ماتت لنا شاة فدبغنا مسكها، ثم ما زلنا ننبذ فيه حتى صارت شنًّا»[١].

ومن مرويات أم المؤمنين سودة رضى الله عنها فى أحكام الحج، ما أخرجه الإمام أحمد رحمه الله بسنده عنها قالت: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أبى شيخ كبير لا يستطيع أن يحج، قال: «أرأيت لو كان على أبيك دين فقضيته عنه قبل منك؟» قال: نعم.

قال: «فالله أرحم، حُجَّ عن أبيك»[٢].

وفى بداية السنة الحادية عشرة من الهجرة توفى رسول الله ﷺ، وهو راض عن سودة التى شهدت معه جانبًا من حياته فى مجالات شتى.

مع الأبرار والمتقين:

امتدت الحياة بسودة أم المؤمنين إلى أيام الخلافة الراشدة، وكان الصديق الأكبر أبو بكر عليه سحائب الرضوان يكرم زوجات النبى ﷺ، ويقدر مواقفهن النبيلة، ثم كان الفاروق عمر رضوان الله عليه يتولى أمهات المؤمنين بالإكرام والرعاية ويتفقد أحوالهن.

كانت سودة رضوان الله عليها ممن نالها عطاء عمر، وقبلت عطاءه وإكرامه، وشكرت له ذلك، ولكنها ـــ كما أسلفنا ـــ لم تستبق شيئًا عندها، وغنما أنفقت المال على من يستحقه من فقراء المدينة المنورة، لتستنير نفوسهم، وتقوى قلوبهم برابطة الحب والاحترام للبيت الطاهر، بيت النبى ﷺ الذى أكرمه الله عز وجل بالطهر، بل خصه بإذهاب الرجس عنه، واختصه بالتطهير، ليكون نقيًّا من كل شائبة.

---

(١) رواه البخارى (٦٦٨٦) وانظر فتح البارى (١١/ ٥٧٧).
(٢) رواه أحمد (٦/ ٤٢٩).

ظلت أمنا سودة رضى الله عنها تقتدى بالهدى النبوى إلى أن أسلمت روحها إلى بارئها وكانت وفاتها فى آخر خلافة سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ ويبدو أنها قد ناهزت الثمانين رضى الله عنها.

وبوفاتها طويت صفحة من صفحات إحدى أمهات المؤمنين الطاهرات وتركت أثرًا كريمًا فى دنيا النساء لا يزال ضوح أريجه ينفح الدنيا بالشذى إلى ما شاء الله، رضى الله عن أمنا سودة، وأعلى مقامها فى عليين مع الأبرار والمتقين، ونرجو الله أن يدخلنا برحمته فى عبادة الصالحين[1].

---

(١) انظر أسد الغابة (٦/ ١٥٨) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦٦).

أم المؤمنين
عائشة بنت أبى بكر
رضى الله عنها

لها أربعون منقبة لم تكن لغيرها، ونزل بحقها قرآن يتلى فى المحاريب.

فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام، وهى زوجة النبى ﷺ فى الدنيا والآخرة.

ملأت الدنيا علمًا، وكان لها مكان الصدارة العلمية فى البيت النبوى الطاهر، وهى أفقة نساء الأمة على الإطلاق.

هى المرأة الأولى فى عالم الرواية والحفظ، روت (٢٢١٠) أحاديث، وكانت من أدق الناس وأضبطهم وأوثقهم فى ذلك.

كان بيتها مهبط الوحى، ومنبع الفوائد، وموئل العلماء، وتوفيت بالمدينة المنورة سنة (٥٧ أو ٥٨هـ) رضى الله عنها.

أم المؤمنين
عائشة بنت أبى بكر
رضى الله عنها

الصديقة ومناقب فريدة:

قال رسول الله ﷺ: «أُرِيْتُكِ فى المنام ثلاث ليال، جاءنى بك الملك فى سرقة من حرير، فيقول: هذه امرأتك، فأكشف عن وجهك فإذا أنت هى، فأقول: إن يك هذا من عند الله يُمضِه» (١).

وأخرج الترمذى رحمه الله فى جامعه: أن جبريل جاء بصورتها فى خرقة خضراء إلى النبى ﷺ فقال: «هذه زوجتك فى الدنيا والآخرة» (٢).

وفى كتابه «الإجابة» عند الزركشى رحمه الله أربعون منقبة فريدة لأمنا هذه لم تكن لغيرها من نساء النبى ﷺ.

---

(١) صحيح:رواه البخارى (٣٨٩٥، ٥٠٧٨).

(٢) صحيح:رواه الترمذى (٣٨٨٧) وصححه الألبانى وأصله فى الصحيحين بنحوه.

كما أن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام.

إن أم المؤمنين هذه أعطيت تسعًا من حميد الخصال، وكريم الفضائل، وحميد الشمائل لم تعطها امرأة فى مشرق الدعوة المحمدية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فمن هذه المرأة الكريمة التى ملأت الدنيا بسيرتها العطرة؟.

ومن هذه المرأة التى تبوأت مكان الصدارة فى البيت الذى كرم الله، فأذهب عنه الرجس وطهره تطهيرًا؟!.

حاولت أن أحصى المصادر الكريمة التى تصدت للكتابة عن أمنا عائشة فوجدتها قد تجاوزت المئات، وقد فاقت تصورى عندما بدأت الحديث عنها... وعلمت أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وهل هناك أجمل من نشر الفضائل والاقتداء بها؟!.

إذن، فلندخل البيت الذى أنزل فيه شطر القرآن ليطيب لنا الحديث عن فضل صاحبته، أو نتعرف بعض مناقبها ونعرف مكانتها، ولتكون لنسائنا قدوة يقتدين بها، ويهتدين بهديها، ليفزن برضوان الله عز وجل، كان الإمام مسروق بن عبد الرحمن الهمدانى الكوفى التابعى رحمه الله إذا حدث عنها قال: «حدثتنى الصديقة بنت الصديق، حبيبة حبيب الله المبرأة فى كتاب الله».

هذه المبرأة فى كتاب الله هى: عائشة أم المؤمنين بنت أبى بكر الصديق الأكبر(١)، القرشية، التيمية، المكية، النبوية، عالمة نساء الأمة، وأفقه نسائها على الإطلاق، زوجة النبى الحبيب محمد ﷺ، وأشهر نسائه الطاهرات رضى الله عنهن أجمعين.

وأمها هى: الصحابية الجليلة أم رومان بنت عامر، التى قال رسول الله ﷺ فى حقها: «من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان».

الصديقة والدوحة السابقة:

عائشة رضى الله عنها إحدى بنات الصحابة اللواتى ولدن فى الإسلام، وهى أصغر من فاطمة الزهراء رضى الله عنهما بثمانى سنين، وكانت تقول عن أبويها: «لم

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبى، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٣٥ - ٢٠١) وطبقات ابن سعد (٨/ ٥٨ - ٨١) حلية الأولياء (٢/ ٤٣ - ٥١) أسد الغابة (٦/ ٣٣١).

أعقل أبوىّ إلا وهم يدينان الدين» إذن، فقد جبلت عائشة على الطاعة والإيمان منذ أن أشرق نور الإسلام فى أم القرى مكة المكرمة.

وفى محضن هذين الأبوين الكريمين، نشأت عائشة، وفتحت عينها على الإسلام ومائدته، فتغذت برحيقه، وتربت على لبانه، واشتد عودها على حبه، واستزلت بظله، فكان أبواها كالدوحة الباسقة الفينانة التى يستظل بظلها، وكالشجرة المباركة ذات القطوف الدانية التى تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها...

ومنذ أن كانت عائشة طفلة صغيرة، كان أبواها يلاحظان بركتها، ويشعران بحفاوة الله تعالى بها، وما كان يومًا من الأيام يحسبان انها ستغدو حبيبة الحبيب ﷺ، وأم المؤمنين، وأن بيتها سيغدو موئل العلماء، ومقصد العارفين، وبركة نساء النبى ﷺ فى العلم والفقه والحفظ والرواية.

لقد اختص الله عز وجل بيت أبى بكر بالصديقة الخالصة، وخصه بالسبق إلى الإسلام، وأنعم عليه بالإيمان، لتغدو عائشة زوج الرسول الكريم ﷺ، وحاملة راية العلم فى عالم النساء ولتقوم بأعظم كرامة، وأكرم مهمة فى تاريخ العلم النسوى فى فجر الإسلام وضحاه.

فأبوها الصديق الأكبر، وشيخ الصحابة، وصديق الرسول ﷺ ورفيق صباه، تخلق بأخلاقه، وسار بسيرته، وعرفه حضرًا وسفرًا، وليلاً ونهارًا، وعرف أحواله الشريفة كلها، فسارع إلى دوحة الإيمان، فكان أسبق السابقين بعد خديجة رضى الله عنها، وهذه الخصال الحميدة كلها غرسها فى أهله، وأولاده، وبناته فكان القدوة الصالحة لهم:

وشهد أن الله خص رسوله ... بأصحابه الأبرار فضلاً وأيَّدا
فهم خير خلق الله بعد نبيه ... بهم يقتدى فى الدين كل من اقتدى
وأفضلهم بعد النبى محمدٍ ... أبو بكر الصديق ذو الفضل والندى
لقد صدق المختار فى كل قولهِ ... وآمن قبل الناس حقًّا ووحَّدا
وناداه يوم الغار طوعًا بنفسه ... وواساه بالأموال حتى تجردا

وقال أحدهم فى فضل الصديق والخلفاء الراشدين:

وخيرهم من ولى الخلافة ... وأمرهم فى الفضل كالخلافة

يعنى أن أولهم فى الفضل: أبو بكر، فعمر، فعثمان، فعلى رضوان الله عليهم أجمعين:

وللصديق رجحان جلى على الأصحاب من غير احتمالِ
وللفاروق رجحان وفضل على عثمان ذى النورين عالِ
وذو النورين حقًّا كان خيرًا من الكرار فى صف القتالِ
وللكرار فضل بعد هذا على الأغيار طُرًا لا تبالِ

وأمها نموذج كريم عن الزوجة الوفية الودود، والأم الواعية التى تنظر إلى الأمور بمنظار البصيرة، لتستقيم الحياة الزوجية، فأرضعت ابنتها عائشة مكارم الأخلاق، وغذتها بمعالى المكارم، فكانت أكرم النساء وأوفى الطاهرات، وأحدوثة النساء المثلى فى الغد القريب، فكانت عائشة العالمة الفقيهة الأديبة.

الصديقة هذه فهل فوق ذلك مَفْخَر؟:

فى حديثه عن السيدة عائشة رضى الله عنها أفرغ الإمام الذهبى رحمه الله براعته البديانية مدادًا لقلمه اللطيف، فأبدع وأحسن، وأجمل وأنصف، وتحدث فقال فى صفتها رضى الله عنها: «كانت امرأة بيضاء جميلة، ومن ثم يقال لها «الحميراء» ولم يتزوج النبى ﷺ بكرًا غيرها، ولا أحب امرأة حبها».

وذهب بعض العلماء إلى أنها أفضل من أبيها، وهذا مردود، وقد جعل لكل شىءٍ قدرًا، بل نشهد أنها زوجة نبينا ﷺ فى الدنيا والآخرة فهل فوق ذلك مفخر وإن كان للصديقة خديجة شأو لا يلحق، وأنا واقف فى أيتهما أفضل، نعم، جزمت بأفضلية خديجة عليها، لأمور ليس هذا موضعها».

تحدث الذهبى رحمه الله عن زواجها من رسول الله ﷺ فقال: «وكان تزويجه ﷺ بها إثر وفاة خديجة رضى الله عنها، فتزوج بها وبسودة فى وقت واحد ثم دخل بسودة، فتفرد بها ثلاث أعوام حتى بنى بعائشة فى شوال بعد وقعة بدر، فما تزوج بكرًا سواها، وأحبها حبًّا شديدًا كان يتظاهر به، بحيث إن عمرو بن العاص ﷺ وهو ممن أسلم سنة ثمان من الهجرة، سأل النبى ﷺ: أى الناس أحب إليك يا رسول الله؟ قال: «عائشة» قال: فمن الرجال؟ قال: «أبوها».

ويتابع الذهبى سلسلة الذهب فى كلامه السلسبيل عن أمنا عائشة رضى الله عنها فيقول: «وما كان ﷺ ليحب إلا طيبًا وقد قال: «لوكنت متخذًا من هذه الأمة لأتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام أفضل» فأحب أفضل رجل من أمته، وأفضل امرأة من أمته، فمن أبغض حَبِيبَىْ رسول الله ﷺ، فهو حرى أن يكون بغيضًا إلى الله ورسوله، وحبه لعائشة كان أمرًا مستفيضًا، ألا تراهم كيف كانوا يتحرون بهداياهم يومها تقربًا إلى مرضاته؟!!».

وفىهذا المجال أقول: «هذه الصديقة رضى الله عنها رضعت لبان الصدق من أبويها، وتغذت على مائدة النبوة المحمدية، فلا عجب أن تكون فريدة بين الناس وأن تحظى بحب رسول الله ﷺ لها، إذ جمعت كل صفات الخير من جميع أطرافه، رضى الله عنها وأرضاها».

ولهذا كله حُق لسيدة النساء الخلود فى دنيا النساء، ودنيا العلم، ودنيا الخلود، ولكنه خلود الذكر الحسن، خلود العلم الذى يرفع الناس بعضهم فوق بعض درجات، وهكذا ظلت، وستظل أمنا عائشة تتبوأ سدة العلم، وتتصدر سدة الفضل إلى ما شاء الله، وفضلها على الجملة أنك تقرأ من أخبارها ما تقرأ فلا تزال تقول بعد كل سمة من سماتها: «إنها الصديقة ابنة الصديق رضى الله عنها، أعلم نساء الأمة وأفقههن على الإطلاق».

الصديقة ونور على نور:

منذ اليوم الأول لولادة عائشة رضى الله عنها بمكة المكرمة، والنورانية والمكرمات تصاحب حياتها المباركة، فقد ولدت فى بيت أبى بكر الصديق، بيت الصدق والإيمان، وكانت ولادتها فى مطلع شمس البعثة النبوية بمكة، وفى مرحلة طفولتها تبلورت الدعوة الإسلامية، واستوت على سوقها، وفى قائمة السابقين إلى دوحة الإسلام، وأفيائه، كانت عائشة بعد ثمانية عشر إنسانًا ممن أسلم.

قال بدر الدين الزركشى رحمه الله فى كتابه «الإجابة»: «لم ينكح ﷺ امرأة أبواها مهاجران سواها، وذكر من مزايا أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أن أباها وجَدُّها صحابيان».

وتتابعت المكرمات النورانية فى حياة السيدة عائشة رضى الله عنها، فعندما بدأت تدخل مرحلة الصبا، جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ بصورتها، وأخبره بأنها زوجته فى الدارين، وإذ ذاك خطبت عائشة إلى النبى ﷺ.

أما الخطبة، فالذى نعلمه من الروايات المتواترة فى أمهات المصادر الموثوقة، أنها جاءت بعد اقتراح سيدة مؤمنة صالحة فاضلة هى خولة بنت حكيم، فقد آلمها ما لاحظته من حزن النبى ﷺ على زوجه الطاهرة خديجة رضى الله عنها، فقالت له: «يا رسول الله، ألا تتزوج؟».

فسألها ﷺ: «إن شئت بكرًا وإن شئت ثيبًا؟».

فسألها فقال: «من البكر ومن الثيب؟».

فذكرت خولة أن البكر عائشة ابنة أحب خلق الله إليه، وأن الثيب سودة بنت زمعة التى آمنت به واتبعته.

عندئذ أوفد النبى ﷺ خولة بنت حكيم إلى كلتيهما، فوفدت خولة إلى بيت أبى بكر، وجرت الخطبة المباركة لعائشة فى مجراها، الذى انتهى بالزواج بعد سنوات فى المدينة المنورة بعد غزاة بدر الكبرى.

كانت عائشة عندما تزوجت فى بداية ربيع حياتها، وكانت قد ملكت بيتها الجديد من اللحظة الأولى، لأنها كانت تدل فيه بمكانة الزوجة المحبوبة عند زوجها العطوف، وبمكانة البنوة الناشئة عند الأبوة الرحيمة، ومكانة ابنة الصدّيق الصدّيق العزيز الذى أضفى عليها المودة والإيثار، ما كان بين النبى ﷺ والصديق من مودةٍ هى أوثق من مودة الرحم، لأنها مودة الوفاء والصفاء والإخاء والإيمان، بل مودة الحياة وما بعد الحياة.

وانتقلت عائشة رضى الله عنها من نور إلى ضياء أبهى، ومن ضياء إلى سناءٍ أشد، وقد سجلت لنا خطرات نفسها خطرة خطرة، ووصفت لنا فى بيت النبوة كل صغيرة وكبيرة، وكل ظاهرة وخافية، بيد أنها لم تذكر كلمة واحدة تنم عن وحشة الانتقال من بيت إلى بيت، ومن معيشة إلى معيشة، ومن ظل أبوين إلى ظل زوج لا تعرف عنه إلا ما تعرفه عن النبى ﷺ من صفات النبوة، لأن عطف النبى ﷺ هو

العطف الغامر الذى لم تحتج عائشة إلى عطف سواه، فكان عطفه ﷺ هو المأوى الذى تلوذ به، وتأوى إليه، وكان النور الذى ألفته فى بيت النبوة هو الضياء والمنبع والأصل، فازدادت نورًا على نور بما اكتسبته من نورانية بيت الزوجية بيت النبى الكريم ﷺ الذى كان مهبط الوحى يتنزل بالقرآن ليتلى فى أصقاع الأرض وجنباتها، وفى بيوت الله الخاصة...

الصديقة وأحداث الهجرة:

كان الإسلام نورًا ينفذ إلى أفئدة الذين أراد الله بهم خيرًا، وكان الكافرون الأقوياء بزعمهم يحاولون جاهدين أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ولو كره الكافرون.

استمر كفار قريش فى التصدى للدعوة وإيذاء المسلمين، واشتدت عداوتهم وأصبحت أكثر ضراوة لما أيقنوا أن محمدًا ﷺ قد بايع الأوس والخزرج على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، وإذ ذاك أذن الرسول ﷺ لأصحابه بالهجرة، إلى المدينة وقال لهم: «إن الله قد جعل لكم إخوانًا ودارًا تأمنون بها».

كان المسلمون يخرجون جماعات إلى المدينة مهاجرين، فلما راحت قريش ترصد طريق المدينة، أخذوا ينسلون آحادًا، وأخذ الأنصار فى عرينهم يستقبلون الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، وكان هؤلاء الأنصار والأطهار يلقون أسماعهم إلى المهاجرين مستبشرين فرحين بهم، فهم أصحاب نبيهم ﷺ الذى تلقوا عنه العلم والحكمة، وحفظوا عنه القرآن المجيد.

أما رسول الله ﷺ فكان ينتظر الإذن بالهجرة، ولما أتى أمر الله بذلك، خرج رسول الله ﷺ مستخفيًا، وانطلق إلى دار أبى بكر فى الهاجرة عند الظهيرة، وهناك رأته أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها، فقالت لأبيها الصديق وكانت عائشة بقربها: «يا أبتِ هذا رسول الله ﷺ متقنعًا» فقال الصديق رضوان الله عليه: «فداءٌ له أبى وأمى، والله ما جاء به فى هذه الساعة إلا أمر!».

وسارع الصديق أبو بكر مهرولاً، فقد أتى الحبيب المصدوق ﷺ فى ساعة لم يكن يأتيهم فيها من قبل فقال ﷺ لأبى بكر: «أَخْرِج مَنْ عندك».

وكانت أسماء وعائشة رضى الله عنهما عنده، فقال: «إنما هم أهلك بأبى أنت يا رسول الله» ولما اطمأن الحبيب المصطفى ﷺ إلى من كان عند الصديق قال: «فإنى قد أذن لى فى الخروج» فقال الصديق بلهفة وحب: «الصحبة يا رسول الله... الصحبة يا رسول الله..» فقال الحبيب الأعظم ﷺ «نعم».

لحظات دقيقة، ودقائق ثمينة، راقت فيها نفس أبى بكر الصديق، فرق قلبه، وترقرق الدمع وسال على وجنتيه من فرط السرور، وهل هناك منة أعظم من أن يصحب حبيبه وصفيه مهاجرًا إلى أرض الله... إلى المدينة المنورة...

هلموا نتصور شعور عائشة رضى الله عنها، كانت لا تزال وقتذاك فى ربيع الحياة الأول، وزهرات العمر الأولى، ماذا كان شعورها وهى ترى رسول الله ﷺ الذى عقد عليها منذ فترة، وها هو ذا يصحب والدها الصديق ليهاجر إلى المدينة؟.

ماذا دار فى خلدها لا شك فى أنها كانت على ثقة من أن الله عز وجل ناصر النبى ﷺ وأباها، فقد سمعت رسول الله ﷺ ورأته وهو يتأهب للهجرة، كان قلبها يخفق بين جوانحها، وكان لسانها يلهج بالدعاء وتبتهل إلى الله عز وجل أن تصاحب السلامة هذا الركب المهاجر.

ودع النبى الكريم ﷺ وأبو بكر ﷺ أسماء وعائشة رضى الله عنهما، بعد أن جهزتاهما أسرع جهاز، وضعتا لهما سفرة، ووضعتاها فى جراب، وتذكر رسول الله ﷺ بناته وزوجه سودة ومن تركهم فى داره من مواليه، فصار يدعو الله عز وجل فى حرارة ويقول: «اللهم اصحبنى فى سفرى واخلفنى فى أهلى» ثم انطلق أفضل ركب فى رعاية الله.

أسرع أبو قحافة والد الصديق إلى دار ابنه لما علم بخروجه مهاجرًا فاستقبلته حفيدتاه: أسماء وعائشة، وأراد أن يطمئن فيما إذا كان الصديق قد ترك مالاً لأهله وقال: «والله إنى لأراه قد فجعكم بماله فى نفسه» فقالت أسماء: «كلا يا أبت، إنه قد ترك لنا خيرًا كثيرًا» وأخذت بيد جدها ووضعتها فى كوة البيت، فى المكان الذى كان أبوها يضع ماله، وكانت قد وضعت أحجارًا ووضعت عليها ثوبًا ثم قالت: «يا أبت

ضع يدك على هذا المال» فوضع يده عليه وقال: «لا بأس إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن، وفى هذا بلاغ لكم».

رأت عائشة رضى الله عنها هذا كله، وانطبعت فى ذهنها تلك الصورة الفريدة من أختها أسماء التى خطت مجد شهرتها من مثل هذه المواقف المونقة... بلغ الرسول ﷺ وأبو بكر ﷺ مأمنهما فى المدينة المنورة، وما أن استقر بالرسول ﷺ المقام فى مهاجره، حتى بعث مولاه زيد بن حارثة ومولاه الآخر أبا رافع ليُحْضِروا أهل النبى ﷺ وبناته، وأرسل معهما أبو بكر ولده النجيب عبد الله بن أبى بكر ليحضر كذلك أم رومان وأسماء وعائشة رضى الله عنهن، فى طريق هجرة أم المؤمنين عائشة، شعرت بما نالها من إكرام الله عز وجل، وشعرت بالعناية الإلهية تحف بركبها ذات اليمين وذات الشمال، وأحست كذلك بلطف خفى يكتنفها، وهى تسير مع ركب النساء المهاجرات إلى عرين الأنصار فى المدينة المنورة.

وها هى ذى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها تصف ما حدث فى طريق الهجرة فتقول: «قدمنا مهاجرين، فسلكنا فى ثنية صعبة، فنفر بى جمل كنت عليه نفورًا قويًّا منكرًا، فوالله ما أنسى قول أمى: يا عُويشة ــ أو يا عريسة ــ فركب بى رأسه، فسمعت قائلاً يقول: ألقى خطامه، فألقيته، فقام يستدير كأنما إنسان قائم تحته».

وتابع الركب مسيرته إلى أن قدم المدينة المنورة، ونزلت عائشة رضى الله عنها فى دار أبيها بالسُّخ، وأقامت هنالك قرابة سنتين، حتى كانت وقعة بدر، ونصر الله عز وجل المسلمين فيها، وإذ ذاك انتقلت عائشة من دار أبيها إلى رحاب البيت النبوى لتغدو من نساء أهله الذين طهرهم الله تطهيرًا.

الصديقة والزواج المبارك:

مضى شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، حتى إذا كان شهر شوال، كان رسول الله ﷺ والمسلمون فرحين بنصر الله فى بدر، وهناك رأى النبى ﷺ أن يتزوج عائشة ابنة صديقه وصديقة أبى بكر، وحدد يوم الزواج، وظل ذلك اليوم ماثلاً فى فؤاد أم المؤمنين عائشة، فهو أسعد أيام حياتها، فهل هناك أمنية أغلى من أن تكون زوج النبى المصطفى ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين؟!.

أما ذلك الحديث والحدث المبهج فقد تكفلت المصادر الحديثية وكتب الطبقات والسيرة والتأريخ وغيرها بروايته عن أمنا عائشة رضوان الله عليها، ونحن مرسلو القول فى الجمع بينها وتبسيطها.

ففى ذلك اليوم الميمون اجتمع فى بيت أبى بكر ﷺ رجال ونساء من الأنصار، وجاءت أم رومان إلى ابنتها عائشة وهى فى أرجوحة بين نخلتين، فأنزلتها من الأرجوحة، وسوت شعرها، ومسحت وجهها بالماء، ثم أقبلت تقودها حتى وقفت بها عند الباب وهى تنهج حتى إذا ما سكن بعض نَفَسها، أدخلتها الدار فإذا نسوة من الأنصار فى البيت فيهن أسماء بنت يزيد الأنصارية، فقلن: «على الخير والبركة وعلى خير طائر» وأسلمتها أم رومان إليهن، فأصلحن من شأنها، حتى إذا تم ذلك دخلت بها إلى حيث كان رسول الله ﷺ جالسًا، وعنده رجال ونساء من الأنصار، فأجلستها فى حجره ثم قالت: «هؤلاء أهلك يا رسول الله، فبارك الله لك فيهن، وبارك لهن فيك».

وقام الرجال والنساء، وخرجوا، وبنى رسول الله بعائشة، فما نحرت جزور ولا ذبحت شاة، ولكن سعد بن عبادة الأنصارى ﷺ، أرسل إليهم بجفنته التى كان يرسلها، ومعها قدح من لبن فشرب الحبيب المصطفى ﷺ بعضه وشربت عائشة بعضه[1].

صار لشهر شوال أثر بهيج فى نفس أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، ففيه كان أعظم ذكرياتها وأعزها، ومن أجل ذلك أحبت هذا الشهر، قال أبو عبيدة معمر بن المثنى رحمه الله: «كانت تستحب أن يُبنى بناؤها فى شوال» وعن هذا كله حدثت أمنا عائشة رضى الله عنها فقالت: «تزوجنى رسول الله ﷺ فى شوال، وبنى بى فى شوال فأى نسائه كان أحظى عنده منى؟»[2] أضحى شهر شوال عند أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها شهر الذكريات المثيرة، والبركات الكثيرة، والخيرات التى لا حصر لها، بل شهر الفضل والفضائل والإحسان والمودة.

لم يكن مهر الصديقة عائشة رضى الله عنها ذلك المهر الضخم، وإنما كان بسيطًا، خمس مائة درهم فقط، وقد ذكرت عائشة مقدار مهر كل واحدة من زوجاته الطاهرات

---

(١) **صحيح**:رواه البخارى (٣٨٩٤) مسلم (١٤٢٢).

(٢)رواه مسلم (١٤٢٣) أحمد (٦/ ٥٤، ٢٠٦).

عندما سألها التابعى الجليل أبو سلمة بن عبد الرحمن ــ وهو أحد الرواة الثقات ــ «كم كان صداق رسول الله؟».

قالت: «كان صداقه لأزواجه ثنتى عشرة أوقية ونشًا».

قالت: «أتدرى ما النش؟».

قال: «قلت: لا».

قالت: «نصف أوقية، فتلك خمس مائة درهم، فهذا صداق رسول الله ﷺ لأزواجه»[١].

حُملت عائشة رضى الله عنها إلى البيت الذى أعد لها، بيت النبى ﷺ الذى كان ملتصقًا بالمسجد النبوى الشريف وهناك...هناك أضحى بيتها مهبط الوحى، ومنبع الفوائد، وموئل العلماء والفقهاء، ومنه خرج شطر العلم للعالم كله...

من الجدير معرفته أن حجرات أزواج النبى ﷺ قد ضمت إلى المسجد النبوى، إلا حجرة أمنا عائشة عليها سحابات الرضوان، ففيها دفن النبى ﷺ وصاحباه العمران أبو بكر وعمر رضى الله عنهما، ولا تزال إلى الآن ــ فى ظلال القبة الخضراء ــ فوَّاحة الشذاء، تهفو إليها نفوسهم وأفئدتهم من مشارق الأرض ومغاربها، يسعون إليها من كل فج عميق، ليشهدوا جلىَّ المكان، ورواء التاريخ الأنور وليشاهدوا مهبط الوحى، ويسلموا على رسول الله ﷺ وعلى صاحبيه الصديق والفاروق رضى الله عنهما وأرضاهما.

فى ذلك البيت الطاهر المطهر، ومنذ ذلك اليوم الميمون الذى دخلت فيه عائشة رحاب البيت النبوى، كان رسول الله ﷺ مدرستها التى تخرجت فيها بعلم زاخر وفقه وافر وأدب زاهر، ليأخذ عنها المسلمون دينهم، فكانت عائشة بفضل تلك التربية الحسنة والبركات الميمونة أفقه نساء الأمة ومعها أمهات المؤمنين عليهن سحابات الرضوان.

---

(١) رواه مسلم (١٤٢٦).

الصديقة فى البيت النبوى الطاهر:

كانت السعادة الروحية ترفرف على بيوت النبى ﷺ على الرغم من حياة الزهد التى عاشها النبى ﷺ وأهله، فقد كانت تمر الأيام والأسابيع، ولا توقد فى بيوت النبى ﷺ نار، وإنما كانوا يأكلون الأسودين: التمر والماء.

حياة سعيدة، ما دام القلب موصولاً بالله، حياة رقيقة مع الطاعة والزهد، سعيدة بالعطف الذى كان يغمرها به الحبيب المصطفى ﷺ صاحب القلب الكبير، حتى صارت زينة الدنيا وزخرفها عند أزواجه لا يقام لها وزن فى نفوسهن ولا تخطر ملاذها فى بالهن، فسجدة لله عز وجل وذكره وتسبيحه هى هناء أفئدتهن وطريق الخلود فى آخرتهن.

وهذا ما جعل أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها سيدة فى كل مكرمة، ولكل مكرمة سيدة فى السخاء، وفى الزهد، وفى كل فضيلة، وإن تاريخها الوضىء ليحكى تلك المكارم التى اقتبستها من البيت النبوى، واحتضنتها حتى آخر نفسٍ من حياتها.

لندخل أعماق السيدة الأم العظيمة أمنا عائشة رضى الله عنها، ولندخل معها — إن أذنت — بيتها الطاهر الموفق، وكيف لا وقد أطلق عليها رسول الله ﷺ اسم موفقة[١]، لندخل الحجرة النبوية التى خصصت لعائشة رضى الله عنها.

منذ الأيام الأولى لزواج عائشة رضى الله عنها، أحبت أن تحتل مكان خديجة فى البيت المحمدى الطاهر، وأن تأخذ مكانها فى قلبه الشريف ﷺ منذ الأيام الأولى لدخولها البيت النبوى.

لكن أوفى الأوفياء الرسول الكريم ﷺ كان مخلصًا لخديجة رضى الله عنها، فمقامها ومكانتها لن تشاركها فيه امرأة أخرى مهما علا شأنها، ولقد سبق عائشة إلى البيت النبوى زوجة أخرى هى سودة بنت زمعة العامرية، وكانت قد جاوزت مرحلة الصبا، وكان زواجه ﷺ منها — بالإضافة إلى أنه وحى — زواج عطف ومودة ومواساة، وحكمة محمدية تتضح بالرحمة المهداة من الله رب العالمين.

---

(١) رواه الترمذى فى الشمائل (٣٨٠).

كانت عائشة رضى الله عنها تحب رسول الله ﷺ وترجو أن يكون لها ولد منه، كما كان لخديجة، ولكن حكمة الله اقتضت ألا يكون منها الولد، إلا أن رسول الله ﷺ قد طيب خاطرها فقال لها: «اكتنى بابن أختك عبد الله بن الزبير» فكانت كنيتها أم عبد الله.

الصديقة واللطف النبوى:

سجلت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ذكرياتها الحلوة وخطرات نفسها الفطنة، وما كانت تلقاه من الرعاية النبوية، واللطف والعطف عليها فى حياتها الزوجية فى البيت النبوى، كان رسول الله ﷺ يمتلك من العطف والرحمة، ما يغنى زوجه الصغيرة عائشة عن عطف أبويها فقد تركها على سجيتها تلعب بالعرائس فى بيته، كما كانت تلعب بها فى بيت أمها وأبيها، وربما جاء أترابها الصغار، فكى يستحين منه ﷺ، ويدخلن وراء الستر، فكان رسول الله ﷺ يرسلهن إلى عائشة كى يلعبن معها لما يعلم من سرورها بذلك.

روى البخارى رحمه الله وغيره عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت: «كنت ألعب بالبنات ــ تعنى اللعب ــ فيجىء صواحبى، فينقمعن من رسول الله ﷺ فيخرج رسول الله فيدخلن علىَّ، وكان يسرّبُهن إلىَّ، فيلعبن معى»(١).

وروت عائشة رضى الله عنها أيضًا قالت: «دخل علىَّ رسول الله ﷺ، وأنا ألعب بالبنات، فقال: «ما هذا يا عائشة»؟ قلت: خيل سُليمان ولها أجنحة، فضحِك»(٢).

كان الرسول الكريم ﷺ يقدر حداثة سن عائشة، وحاجتها إلى اللهو حتى تستكمل أنوثتها، ولذلك كانت رضى الله عنها تسدى النصائح إلى الآباء، وإلى الأمهات، أن ينتبهوا لهذه الناحية فتقول: «فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو» وفى رواية: «فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن التى تسمع اللهو» وكانت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، ترى السودان وهم يلعبون بحرابهم فى المسجد، حتى تنصرف

---

(١) رواه البخارى (٦١٣٠) مسلم (٢٤٤٠) أحمد (٦/ ٢٣٤).

(٢) رواه أبو داود (٤٩٣٢) النسائى فى عشرة النساء (١/ ٧٥).

وقد سُرت بهم، روت أمنا عائشة هذه الحادثة فيما أخرجه أهل الحديث فقالت: «قدم وفد الحبشة على رسول الله ﷺ، فقاموا يلعبون فى المسجد، فرأيت رسول الله ﷺ يسترنى بردائه، وأنا أنظر إليهم حتى أكون أنا التى أسأم» رواه البخارى (٤٥٤) مسلم (٨٩٢).

وهكذا كان الحبيب المصطفى ﷺ يتعهد عائشة بما يسرها ــ وهى فى السنوات الأولى من زواجها ــ وإن عجب الصحابة لذلك، فقد كان ﷺ المثل الأعلى فى كل ما يفعل، فالصحابة الكرام لا تتسع أحلامهم لما يتسع له حلمه وصدره ﷺ...

فربما مر أبو بكر الصديق ﷺ ببيت ابنته، فيسمع صوتها عاليًا فى حضرة النبى ﷺ، فيستأذن على النبى ﷺ، فإذا عائشة ترفع صوتها عليه، وهنا يكاد يغضب فيقول منبهًا: «يا بنت فلانة، ترفعين صوتك على رسول الله ﷺ!» وربما همَّ بلطمها، ولكن النبى الكريم ﷺ حال بينه وبينها، ثم يخرج أبو بكر ﷺ، وقد علا وجه عائشة الحزن، فجعل ﷺ يترضاها وقال لها: «ألن ترينى حُلت بين الرجل وبينك؟» فرضيت رضى الله عنها، ثم يستأذن أبو بكر الصديق مرة أخرى، فسمع تضاحكهما وعندئذ قال ﷺ: «أشركانى فى سِلْمِكما كما أشركتمانى فى حربكما»[1].

وكانت السيدة عائشة رضى الله عنها تلقى العطف النبوى ورعايته الكريمة على الدوام، فكان يسابقها مرة، ويمزح معها...

روت عائشة حديث السباق هذا فقالت: «سابقنى النبى ﷺ فسبقته ما شاء، حتى إذا رهقنى اللحم، سابقنى فسبقنى فقال: «يا عائشة هذه بتلك»[2].

الصديقة وأحكام الجهاد:

من المؤكد أن الإسلام أصدر أحكامًا بشأن المرأة تنبنى على مراعاة طبيعتها التى جبلت عليها، وعلى استعدادها الخلقى والعقلى، مما يتيح لها دورًا فى شراكتها للرجل فى خدمة أمتها ومجتمعها الإسلامى صقلاً لشخصيتها وإشعارًا بأهميتها.

ففى مجال الجهاد أباح الإسلام مشاركة المرأة فى ساحات القتال وكان جهادها يتناسب مع أنوثتها، كاستخدام المرأة فى التمريض، ومداواة الجرحى، وإيصال الطعام

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ١٧١) بتصرف.

(٢) رواه أبو داود (٢٥٧٨) النسائى فى عشرة النساء (٢/ ٧٤) ابن ماجه (١٩٧٩) أحمد (٦/ ٣٩، ٢٦٤).

والماء إلى المجاهدين، وما كانت تشارك فى القتال الفعلى، إلا فى حالات الضرورة القصوى، كما فعلت أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية فى غزاة أحد، إذ شاركت فى صفوف المجاهدين وشرعت تقاتل دفاعًا عن رسول الله ﷺ.

أما عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها، فقد ضربت بسهم وافر فى مجال الجهاد، وكان لها الأثر المحمود فى غزوات الرسول ﷺ، وكانت أولى مشاهدها فى غزوة أحد، إذ خرجت تؤدى دورها، فكانت تسقى المجاهدين الماء، وبصحبتها أم سليم بنت ملحان الأنصارية رضى الله عنها، وكان الجيش الإسلامى يوم أحد يصحب أربع عشرة امرأة من خيار الصحابيات، بينها سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء، رضى الله عنها، وأم أيمن الحبشية، وحمنة بنت جحش، رضى الله عنهن وغيرهن.

ولما اشتدت المعركة رُئيت عائشة رضى الله عنها، تنقل الماء لساقية المجاهدين، روى شاهد عيان وهو أنس بن مالك رضى الله عنها دور النسوة ودور عائشة فى غزاة أحد فقال: «ولقد رأيت عائشة بنت أبى بكر، وأم سليم، وإنهما لمشمرتان أرى خدم ــ خِلخَال ــ سوقهما تنقلان القِرَبَ على متونهما، ثم تفرغانه فى أفواههم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان، فتفرغانه فى أفواه القوم».

انتهت المعركة، وجرت عائشة فى نسوة تستروح الخبر فلقيت هند بنت عمرو بن حرام الأنصارية أخت عبد الله بن عمرو بن حرام تسوق بعيرًا لها، عليه زوجها عمرو بن الجموح، وابنها خلاد بن عمرو بن الجموح، وأخوها عبد الله بن عمرو بن حرام، فقالت لها عائشة: «عندك الخبر، فما وراءك؟» فقالت هند: «خيرًا، أما رسول الله ﷺ فصالح، وكل مصيبة بعده جلل ــ هينة ــ واتخذ الله المؤمنين شهداء».

فقالت لها عائشة: «فمن هؤلاء؟».

قالت هند: «أخى، وابنى، وزوجى».

قالت عائشة: «فأين تذهبين بهم؟».

قالت هند: «إلى المدينة أقبرهم بها».

وأخذت هند تزجر بعيرها فبرك البعير، ثم زجرته فقام، ولما وجهت به نحو المدينة المنورة برك، وكررت مرارًا والجمل يبرك، عندئذ وجهته راجعة إلى أحد

فأسرع، فرجعت بهم إلى النبى ﷺ ليدفنهم مع الشهداء، وفى أحُدٍ أخبرها رسول الله ﷺ أنهم ترافقوا فى الجنة جميعًا.

تابعت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها رحلة الجهاد، فكانت فى عداد المجاهدات فى غزاة الأحزاب، فقد نزلت من الحصن الذى كانت فيه مع النساء والأطفال، وتقدمت إلى الصفوف الأمامية، واقتحمت حديقة فيها نفر من المسلمين، ومعهم عمر بن الخطاب الذى أنكر جرأتها، وتعجب من إقدامها، وقال لها: «ما جاء بك؟ والله إنك لجريئة، وما يؤمنك أن يكون بلاء أو يكون تحوز؟» وما زال يلومها حتى تمنت أن الأرض تنشق وتدخل فيها، وإذ ذاك قال طلحة بن عبيد الله لعمر رضى الله عنهما: «يا عمر، إنك قد أكثرت منذ اليوم، وأين التحوز أو الفرار إلا إلى الله تعالى».

وعادت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها إلى الحصن فى المدينة، حتى أنزل الله عز وجل نصره على المؤمنين، وأرسل جنودًا لم يروها، وتفرقت جموع الأحزاب، وقذف الله فى قلوبهم الرعب، فهاموا على وجوههم، وعادوا من حيث أتوا، وهم مضطربون لا يعقلون شيئًا...

وفى السنة السادسة من الهجرة، خرجت القرعة على عائشة رضى الله عنها لتكون فى عداد الجيش المنطلق إلى المريسيع لغزو بنى المصطلق، وفى هذه الغزوة الممحصة للإيمان، وقعت أخطر حادثة أدخلت على كل مسلم ومسلمة من البلاء ما لم يدخل عليه مثله فى محن الشدائد والأزمات التى ابتلى بها المسلمون، تلك الحادثة هى دسيسة الإفك التى كشفت عن خسة المنافقين وفجورهم ومن خلفهم جموع اليهود الذين تغلى قلوبهم بالحقد على الإسلام وعلى المسلمين وعلى رسول الله ﷺ خاصة، وفى السطور التاليات نقرأ ذلك.

الصديقة ومحنة ومنحة:

إن محنة الإفك التى اخترعها المنافقون والمرجفون فى مصانعهم الهزيلة الخاوية، قابلها المسلمون بصبر جميل، وتجلدوا لها، واحتملوا لهيبها، ونيران فتنتها، لأنهم فوجئوا بها، فلم يعرفوا لها مدخلاً ولا مخرجًا.

أعتقد أن المقادير الإلهية، والتدابير الربانية، أرادتها لتكون أبلغ درس فى التربية الاجتماعية الصافية للمجتمع المسلم الذى كان نواته البيت النبوى الذى باركه الله، فأذهب عنه الرجس وطهره تطهيرًا، ولقد بدأت تلك الحادثة بالمحنة، ولكنها ختمت بالمنحة الإلهية، وهل هناك كرامة أعظم من المنح الإلهية؟!.

كانت حادثة الإفك أسوأ مكر، وأخبث فجور، كاد به المنافقون المجتمع المسلم النقى القائم فى تركيبه على الطهارة والتطهر من دنس الأرجاس المعنوية والحسية، وعلى من كان التقول والافتراء؟! ومن هى تلك التى قيل عنها ما قيل؟!!.

هى بنت الصديق الأكبر أبى بكر الذى لم يوصم بيته بوصمةٍ فى الجاهلية، حتى يوصم بهذه الوصمة فى الإسلام! ومع نبى الإسلام! وفى بيت الإسلام مع نساء أهل البيت النبوى!!.

الله أكبر.. الله أكبر، ألا ما أعظم تلك الفرية التى اختلقها المنافقون! وما أسوأ الكذبة التى خلفها المرجفون فى المجتمع المسلم النقى، لا، بل فى البيت النبوى الطاهر الذى أذهب الله عنه الرجس وطهره تطهيرًا، ولنا وقفات مضيئات مع القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، ولنا وقفات كاشفات أيضًا مع الحديث النبوى الشريف الذى خص الصديقة بنت الصديق بالمكرمات من قبل حديث الإفك، ومن بعده.

فلنرهف الأسماع ولنوقظ الأحاسيس، ولنقف وقفة إعظام وإكبار أمام كلام العليم الخبير الذى فضح شرازمة المنافقين، وأذاب شخصيتهم من المجتمع الطاهر فى عصر النبوة، ليكون المجتمع خالصًا نقيًّا نديًّا يفوح برائحة الطهر والطهارة والعفة.

الصديقة وحسد الحُسَّاد:

كان المسلمون بقيادة الحبيب الأعظم محمد ﷺ قد أنهوا معركة بنى المصطلق بنصر مكين على جموع هذه القبيلة، وكانت انتصارات رسول الله ﷺ تملأ قلوب المنافقين حنقًا وغيظًا، وتشحن نفوسهم كمدًا وهمًّا، وتعترض فى حلاقيمهم غصة مرة تكادتكتم منهم الأنفاس، فلا يتنفسون إلا من وراء أستار الظلام، لكونهم لا يملكون الشجاعة التى يفتقدونها فى كل المواقف، وخصوصًا فى ميادين القتال، فهم فجرة

جاحدون إذا خلوا إلى شياطينهم مع فجار اليهود، وهم مسلمون بزعمهم – إذا رأوا نجاح المسلمين، ولكى كانوا كما ذكر الله عز وجل فى الذكر الحكيم: ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ (التوبة: ٥٦).

وأتى القرآن الكريم بأدق التفاصيل لوصف هؤلاء المنافقين فقال: ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ (التوبة: ٥٧).

كان زعم المرجفين، وكبير المنافقين، وفاجر الأفاكين عبد الله بن أبى ابن سلول الذى اختلق تلك الحادثة الأليمة حادثة التقول بالكذب والباطل، والافتراء المختلق فى مصانع الفجور والنفاق، على أطهر الطاهرات المطهرات بنص القرآن والحديث الصديقة بنت الصديق رضى الله عنهما، حبيبة الحبيب، محمد ﷺ، أم المؤمنين عائشة رضوان الله عليها وعلى أبويها.

قلنا: كان الذى تولى كبر هذا الإفك والبهتان وأشاعه، واستوشاه، هو الخبيث الفاجر، رأس النفاق، وزعيم المنافقين عبد الله بن أبى ابن سلول قبحه الله وأخزاه وجاراه فى ذلك بعض من استزلهم الشيطان وسول لهم، وأملى لهم فاستحوذ على مكامن الإيمان من أنفسهم فغطاها بظلام ضلالاته، وأوشكت تكون فتنة قاصمة لظهر المجتمع المسلم لولا فضل الله ورحمته بنبى المسلمين وأهل بيته .

الصديقة وشدة بلاء الإفك:

فى حادثة الإفك العصيبة كادت تكون فتنة عمياء، إذ أصابت المسلمين بهزة عنيفة أذهلتهم، ولم يكن الناس فيها سواسية، ولكنهم كانوا مختلفين فى آرائهم تجاه حادثة الافتراء والظلم، سكت بعضهم فلم يدر من شدة الدهش والذهول ما يقول، وأفصح بعضهم بعظيمة العظائم وقبيحة القبائح، وكع أناس عن الإفصاح بالحق فى تنزيه حليلة النبى ﷺ الطاهرة المطهرة عائشة رضى الله عنها، وأنزل الله عز وجل عقابه على من جَبُن وسكت ولم يدفع الإفك والبهتان عن ساحة الطهر والكمال، الساحة النبوية، وادخر للمنافقين الذين صرحوا وكذبوا جهنم كلما خَبَت زادها توقدًا وسعيرًا.

أجل كان فى هذا الحديث الجلل من خَطَرِ الحديث وشدة البلاء لرسول الله ﷺ ما لا يعلم مداه إلا العليم الخبير، ولكن رسول الله ﷺ كان إمام الصابرين وقدروتهم، صبر

أجمل الصبر، وعالج الأمر بحكمة وهدوء فقد كان همه ﷺ أن يقى المجتمع المسلم من عواصف الفتن، وهزات المحن، وقواصم المكائد، النفاقية المنبثقة عن بعض الرواسب الجاهلية الحاقدة على أهل العفة والصيانة والدين.

كان هذا الحدث الخطير والحادثة اللئيمة لأم المؤمنين رضى الله عنها أوضح دلالة على خطر المنافقين واستفحال أذاهم، إلا أن رحمة الله تعالى بالنبى ﷺ وأهله أبطلت كيدهم، فكشف الغمة، وفرج الكربة، وأنزل وحيه بالقرآن المجيد على رسوله الكريم محمد ﷺ إذ كان يظن أن يرى الرسول ﷺ رؤيا منامية فى تبرئة أطهر الطاهرات، وأفقه الفقيهات، أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق رضى الله عنهما، بيد أن الله عز وجل أراد أن يجعل من الآيات خصيصة ومكرمة ليرفع من شأن أمنا عائشة رضى الله عنها إظهارًا لشرفها الذاتى والاجتماعى، وإنافة لمكانتها فى أهل البيت طهرًا وفضلاً وشرفًا، وثقلاً فى ميزان الفضائل والمكارم الإنسانية والايمانية لمكانتها من قلب رسول الله ﷺ ونفسه.

وها نحى أولاء فى الفقرات الآتيات نشهد الحديث كاملاً، تقصه علينا أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بأسلوبها المشرق الأدبى الرصين الذى يعتبر بحق قطعة أدبية فريدة فى عالم الأدب الخالص وعالم الرواية الحديثية.

الصديقة وبداية الموقف:

تصور أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بداية الموقف الأليم الذى ألم بالبيت النبوى الطاهر المطهر من خلال حديثها الطويل عند الإمام البخارى رحمه الله فى الصحيح إذ قالت: «فقدمت المدينة فاشتكيت حين قدمت شهرًا، والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشىء من ذلك، وكان ذلك يُريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذى كنتُ أرى منه حين أشتكى، إنما يدخل علىَّ رسول الله ﷺ ثم يقول: «كيف تِيكم؟» ثم ينصرف، فذلك يريبنى ولا أشعر بالشر» وتتابع أم المؤمنين عائشة رواية تفاصيل الحادثة فتقول: «فأخبرتنى أم مسطح بقول أهل الإفك، فازددت مرضًا على مرضى، فبكيت يومى ذلك كله، لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم، وأصبح أبواى عندى وقد بكيت ليلتين ويومًا، لا يرقأ لى دمع، ولا أكتحل بنوم، حتى

إنى لأظن أن البكاء فالق كبدى، فبينا أبواى جالسان عندى وأنا أبكى دخل رسول الله ﷺ علينا فسلم، ثم جلس، ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل، وقد لبث شهرًا لا يوحى إليه فى شأنى شيء، فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: «يا عائشة إنه بلغنى عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله، وتوبى إليه، فإن العبد إذا اعترف، ثم تاب تاب الله عليه» فلما قضى رسول الله مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبى: أجب عنى رسول الله ﷺ فيما قال، فقال أبى: والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمى: أجيبى عنى رسول الله ﷺ فيما قال، قالت أمى: فوالله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ.

الصديقة وشهادة البراءة الربانية:

حز الحزن نفس الصديقة عائشة رضى الله عنها وآلمها افتراء المنافقين، ولكنها بعد أن رأت أن أبويها عجزا عن الكلام أمام النبى ﷺ، ولم يتكلم أى واحدٍ منهما بكلمة، وهى الأثيرة عندهم جميعًا، هنالك فوضت أمرها للعليم الخبير ليفرج ما حل بها وبالبيت النبوى، ولنستمع الآن إلى بقية الرواية العائشية الشائقة، ونحن نرقب الفرج القريب مع أمنا عائشة رضى الله عنها وأرضاها ورضى عن أبويها...

قالت عائشة رضى الله عنها تروى حديث البراءة:

فقلت وأنا جارية حديثة السن، لا أقرأ من القرآن كثيرًا: إنى والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت: إنى بريئة، لا تصدقونى، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقن فوالله لا أجد لى ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حين قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (يوسف: ١٨) ثم تحولتُ فاضطجعتُ على فراشى، والله يعلم أنى حينئذ بريئة، وإن الله مبرئى ببرائى، ولكن والله ما كنت أظن أن الله تعالى منزل فى شأنى وحيًا يتلى، لشأنى فى نفسى، كان أحقر من أن يتكلم الله فىَّ بأمر ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها، فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه العرق مثل الجُمَّان ـ وهو فى يوم شاتٍ ـ من ثقل القول الذى أنزل عليه، فسرى عن رسول

الله ﷺ وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: يا عائشة، أما الله فقد برأك فقالت أمي: قومي إليه، فقلت: لا والله، لا أقوم إليه، فإني لا أحمد إلا الله عز وجل، وأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ (النور: ١١) العشر الآيات، ثم أنزل الله تعالى في هذا اليوم براءتي [(١)].

وهكذا أنزل الله عز وجل فرجه، وأزاح الهم عن قلب البيت النبوي، والبكري، وكل بيوت المؤمنين الذين أهمهم هذا الأمر الذي يشير إلى خبث المنافقين وفجورهم، ولؤم نحيزتهم.

إن المتأمل في آيات سورة النور (١١ - ٢٠) يجد أنها جاءت بأكفأ وأجود الحفاوة والتشريف والمنافحة عن حرم رسول الله ﷺ وتنزيه ساحته، وتعزية المجتمع المسلم، وتسلية رسول الله ﷺ فيما أصابه من البلاء وشدة المحنة، وفيما جاء به أعداء الله وأعداء رسوله، وأعداء أهله الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا، وكذلك أعداء دينه من المنافقين، ومرضى القلوب الحاسدين المرجفين، كل هذا تعظيمًا لقدر الحبيب المصطفى ﷺ، وصونًا لساحته أن يكون متنزلاً للبهتان المفتري، وإعزازًا لأحب الناس إليه، أن يحوم حول حمى شرفها وطهرها رشح من بهتان الحاقدين وافترائهم وجهلهم.

وسأعرض عليك أيها القارئ الكريم نموذجًا من فجور أولئك الحاقدين حتى تكتمل الصورة، ويتم التصور عن نظرة هؤلاء الذين أعمى الحقد قلوبهم وبصائرهم وأبصارهم، فساروا في طريق العناد واللدد.

ففي العصر الحديث، تحرك المفرضون لينبشوا في أحداث الماضي ويثيروا حولها الشبهات، ويلبسوا على المسلمين أمورهم تعيدهم إلى دائرة الشك وإيقاظ الفتنة للنيل من مقام النبوة بالتشكيك في نزاهة البيت النبوي وطهره وعفافه، وجاء هذه المرة من قبل المستشرقين الذين عرف عن أغلبهم الدس والكيد للإسلام والمسلمين، فأثاروا حادثة الإفك وصاغوها في روايات شتى نورد منها هاهنا ـــ وعلى سبيل المثال ـــ رواية

---

(١) رواه البخاري (٤١٤١) ومسلم، وانظر الفتح (٧/ ٤٩٦ - ٤٩٩) (٨/ ٣٠٦- ٣٣٩).

المستشرق الألمانى اليهودى «بروكلمان صاحب كتاب تاريخ الشعوب الإسلامية وإليك نص تعريبه: ... وقام النبى خلال سنة (٦٢٧م) أيضًا بحملات عدة، على بعض القبائل البدوية، ولقد أبعد فى إحداها، حتى لقارب مكة، وكانت هذه الغزوات آمنة إلى حد ساعده على أن يصطحب فيها اثنتين من أزواجه، فاتفق مرة، أن أضاعت زوجه المفضلة عائشة بنت أبى بكر ــ وكانت آنذاك فى الرابعة عشرة من عمرها ــ قلادتها، فخرجت تبحث عنها مساءً ففاتتها قوافل الغزاة، ولم تعد إلى المعسكر إلا فى اليوم التالى، وبرفقتها شاب كانت قد عرفته من قبل، وتطرق الشك فى إخلاص عائشة إلى نفس النبى، فردها إلى بيت أبويها، ولكن الله لم يلبث أن برأها بعد شهر واحد فى إحدى الآيات الموحاة إلى النبى، مضيفًا فى الوقت نفسه أن أى اتهام لامرأة بالخيانة الزوجية، لا يؤيده أربعة شهود عيان، يعتبر فرية، أو قذفًا يستحق عليه صاحبه مائة جلدة وكان علىٌّ صهر النبى أحد خصوم عائشة الذين ألحوا عليه فى طلاقها، وليس من شك فى أن جذور العداء الذى تكشفت عنه عائشة لعلى بعد أن استحلف على المسلمين ترجع إلى هذه الحقبة، ومهما يكن من شىء، فلم يكن لحادثة العقد هذه أدنى تأثير على وضع المرأة الاجتماعى فى الإسلام كما يُظن، فالحجاب الذى تصطنعه النساء المتزوجات كان عادة عربية قديمة، وكان النبى قد فرضه، قبل هذه الحادثة لأسباب أخرى، والواقع أن الحجاب لم يحل بين النساء فى الجاهلية، وفى الإسلام أيضًا حتى عهد الأمويين، وبين الظهور بين الناس فى كثير من الحرية والتأثير فى المجتمع العربى تأثيرًا مذكورًا فى بعض الأحيان، إن مؤسسة الحريم التى وضع قواعدها العباسيون على غرار النموذج المسيحى البيزنطى، هى وحدها المسئولة عن انحطاط المرأة فى الشرق .

لاحظ معى عزيزى القارئ صياغة بروكلمان لهذه الحادثة، بما فيها من دس السموم ونفث الحقد، وبث الشك وبذره فى النفوس، وقلب الحقائق وتشويهها فى الأذهان، ولاحظ الخلل والخطأ والتحامل الخفى الذى يحاول بروكلمان بخبثه إخفاءه، ويأبى إلا أن يظهر فى أسلوبه، من ذلك قوله: فردها إلى بيت أبويها وقوله: جذور

العداء الذى تكشفت عنه عائشة لعلى وقوله: علىٌّ صهر النبى أحد خصوم عائشة وقوله: انحطاط المرأة فى الشرق وما شابه ذلك.

ولكن الله عز وجل يرد كيد الخائنين إلى نحورهم، ويجللهم بالخزى والعار، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون... والحاقدون.. وأتباعهم فى كل زمان ومكان...

إن تلك الرواية الاستشراقية وأمثالها من غير الروايات غير الاستشراقية، لا تضير رصيد أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، بل تجعل المنصف يبحث عن الحقائق فى مكانها حتى يصل إلى الغاية النبيلة الكريمة.

الصديقة ووقفة تأمل:

عندما يقف الإنسان ويتدبر معانى الآيات الكريمة التى برأت عائشة رضى الله عنها، تجول فى خاطره تلك الساعات الحرجة التى مر بها البيت النبوى، وبيت أبى بكر، وكيف تلقى النبى ﷺ هذا الخبر، وكيف صبر رسول الله ﷺ وآل أبى بكر إزاء حديث الإفك؟.

لقد آذى رسول الله ﷺ ما بلغه عن عائشة الصديقة التى أحبها مع أبيها حبًّا يفوق تصور المتصورين، فهو لا يعلم عن زوجه عائشة إلا خيرًا، ولكن ما بال المنافقين يتقولون عليها؟.

لبث رسول الله ﷺ صابرًا إزاء المحنة القاسية صبرًا لم يعرف فى تاريخ النوازل والبلايا والخطوب لأحد من قبله، ولا لأحد من بعده، حتى نزلت آيات براءة عائشة بعد سبع وثلاثين ليلة من بداية المحنة، فقد بلغه ﷺ حديث الإفك عند وصوله إلى المدينة، بعد أن ظفر ببنى المصطلق، تحدث به أهل النفاق ومرضى القلوب، ولاكته ألسنتهم وهم يعلمون أنهم كاذبون مفترون، يحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم.

وما بالك بحال آل أبى بكر الصديق رضوان الله عليه.

أقول: لم يكن حالهم أقل حزنًا من حزن رسول الله ﷺ فإنه منذ بلغهم حديث الإفك، وما افتراه به المنافقون وأتباعهم، وهم يعانون من تحت فجيعه هذا البلاء العاصف، لا يدرون ما يقولون، ولا ما يفعلون، تلاحقهم النظرات المتنوعة من كل

مكان، وفى كل مكان، ولك أن تتخيل تلك اللحظات الحرجة، والساعات والأيام التى قضوها، وهم يعيشون مرارة المحنة، ولكنهم استسلموا لقضاء العزيز الحميد الذى له ما لك السموات والأرض، منتظرين حكمه بكشف الغمة ورد كيد المنافقين وكان أمر النبى ﷺ أهم لديهم من أمر أنفسهم .

وصفت أمنا عائشة حالها وحال أبويها فى أحرج لحظات البلاء التى شوشت راحتهم وهدت تفكيرهم وفى حالة نفسية يرثى لها، تقول عائشة: والله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبى بكر فى تلك الأيام .

فى تلك اللحظات الحرجة، وعند نزول الوحى على رسول الله ﷺ، وصفت أم المؤمنين حالها وما نزل بها حين نزول الوحى، فقالت: فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت، فوالله ما فزعت ولا باليت، قد عرفت أنى بريئة، وأن الله عز وجل غير ظالمى، وأما أبواى فوالذى نفس عائشة بيده ما سرى عن رسول الله ﷺ حتى رأيت لتخرجن أنفسهما فرقًا من أن يأتى تحقيق ما قال الناس... .

لكن الوحى حسم ذلك كله بشهادة الطهر والبراءة لعائشة رضى الله عنها، وأنزل الله عز وجل فى شأن قصة الإفك، وشأن المتكلمين فيه بالباطل والكذب، وتبرئة الصديقة عائشة رضى الله عنها والثناء عليها ــ وذكر ما أعده الله لها من عظيم الثواب فى الآخرة، ونقاء السيرة والسريرة فى الدنيا، وعلو الدرجة فى المجتمع المسلم أينما كانت أجياله وأوطانه ــ قرآنًا يتلى، ويتعبد بتلاوته وتشريعاته، ويصلى به، آيات محكمات، ملزمًا لكل مؤمن ومؤمنة بما جاء به من هداية وأحكام إلى يوم القيامة، وبذلك فى نحو ست عشرة آية من صدر سورة النور، تبدأ بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ ونختم بقوله عز وجل ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (النور: ١١ - ٢٦).

قال الزمخشرى رحمه الله: كل آية منها مستقلة بما هو تعظيم لشأن رسول الله ﷺ، وتسلية له، وتنزيه لأم المؤمنين رضى الله عنها، وتطهير لأهل البيت، وتهويل لمن تكلم فى ذلك أو سمع به، فلم تمجه أذناه... .

ومن ثمرات الصبر فى تلك الحادثة، أن الله عز وجل أخبر بأن ما قيل فيها من الإفك كان خيرًا لعائشة رضى الله عنها، ولم يكن ذلك الذى قيل شرًّا لها، ولا خافضًا من شأنها، بل رفعها الله بذلك، وأعلى قدرها، وأعظم شأنها وكرامتها، وصار لها ذكر بالطيب والبراءة بين أهل الأرض والسماء، فيا لها من منقبة ما أجلها وما أعظمها!![1].

الصديقة وخصائص مميزة:

فى حياة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها خصائص كريمة تستحق الوقوف، هذه الخصائص الشريفة مميزة فى حياتها مع رسول الله ﷺ وقد تفردت بها فى عالم النساء، ورقت إلى ذروة المعالى فى البيت النبوى، ومن يتبوأ تلك المنزلة فحق له أن يفخر.

وقد أظهرت عائشة رضى الله عنها أبلغ بيان، فى أجمل أسلوب إذ تحدثت عن نفسها بعد أن برأها الله وأكرمها بشهادة زكية فى القرآن المجيد الذى أنزله الله عز وجل، وتكفل بحفظه إلى ما شاء سبحانه.

فى جلسة ندية مباركة أفصحت عائشة عما تفردت به عن غيرها من النساء، قالت: لقد أعطيت تسعًا ما أعطيتهن امرأة:

لقد نزل جبريل عليه السلام بصورتى فى راحته حين أمر رسول الله ﷺ أن يتزوجنى.

ولقد تزوجنى بكرًا وما تزوج بكرًا غيرى.

ولقد توفىَ رسول الله ﷺ وإن رأسه لفى حجرى.

ولقد قُبر فى بيتى.

ولقد حفت الملائكة ببيتى، وإن كان الوحى لينزل عليه وأنا معه فى لحافه، فما يبيننى عن جسده.

وإنى لابنة خليفته وصديقه.

ولقد نزل عذرى من النساء.

ولقد خلقت طيبة عند طيب.

ولقد وعدت مغفرة ورزقًا كريمًا .

---

(١) جلاء الأفهام (ص١٨٣) بتصرف.

ولقد صدقت أم المؤمنين عليها سحائب الرضوان فى كل ما حدثت به عن نفسها من الفضل والشرف والخصائص النبيلة، والصفات الكمالية التى لم تجتمع فى امرأة قبلها ولا بعدها رضى الله عنها.

إن كثيرًا من العلماء والأدباء والشعراء قد أغرموا فى تلك الخصائص العائشية النبيلة المباركة، وأخذوا ينظمون فيها أبدع ما تجود به قرائحهم من روائع القول، وبدائع البدائه التى أضفت إلى أدبنا القيم زادًا طيبًا يتحف العقول، ويغذى النفوس، ويهذب الطباع ويزيد الخير والنماء فى رصيد أمنا عائشة رضوان الله عليها.

ويظهر أن عددًا من العلماء الأدباء، والشعراء العلماء، قد سمعوا ما وصفت به أم المؤمنين عائشة نفسها من خلال حديثها، فنظموا ذلك شعرًا، وكان الشيخ أبو عمران موسى بن محمد بن عبد الله الأندلسى، ممن راقته تلك المعانى، فنظم قصيدة جميلة موفقة يمتدح بها الموفقة أمنا أم المؤمنين عائشة، ويعدد شمائلها وخصائصها ومناقبها...

وهذه القصيدة تقترب من ستين بيتًا أجاد فيها أبو عمران الأندلسى إجادة رائعة، وتسمى هذه القصيدة بالقصيدة الوضاحية فى مدح السيدة عائشة أم المؤمنين وقد اشتهرت فى عالم الأدب وخمسها كثيرون لجمالها، وحفظها المحبون، وأنشدوها فى مجالسهم، وها نحن أولاء نورد هذه القصيدة كاملة لندرتها وجمالها وحسن سبكها:

ما شان أم المؤمنين وشانى	هدى المحب لها وضل الشانى
إنى أقول مبينًا عن فضلها	ومترجمًا عن قولها بلسانى
يا مبغضى لا تأت قبر محمدٍ	فالبيت بيتى والمكان مكانى
إنى خصصت على نساءِ محمدٍ	بصفات بر تحتهن معانى
وسبقتهن إلى الفضائل كلها	فالسبق سبقى والعنان عنانى
مرض النبى ومات بين ترائبى	فاليوم يومى والزمان زمانى
زوجى رسول الله لم أر غيره	الله زوجنى به وحبانى
وأتاه جبريل الأمين بصورتى	فأحبنى المختار حين رآنى
أنا بكره العذراء عندى سره	وضجيعه فى منزلى قمرانِ

وتكلم الله العظيم بحجتى ... وبراءتى فى محكم القرآنِ
والله خفرنى وعظم حرمتى ... وعلى لسان نبيه برانى
والله فى القرآن قد لعن الذى ... بعد البراءة بالقبيح رمانى
والله وبخ من أراد تنقصى ... إفكًا وسبح نفسه فى شانى
إنى لمحصنة الإزار بريئة ... ودليل حسن طهارتى إحصانى
والله أحصننى بخاتم رسله ... وأذل أهل الإفك والبهتانِ
وسمعت وحى الله عند محمدٍ ... من جبرئيل ونوره يغشانى
أوحى إليه وكنت تحت ثيابه ... فحنى على بثوبه وخبانى
من ذا يفاخرنى وينكر صحبتى ... ومحمد فى حجره ربانى؟
وأخذت عن أبوى دين محمدٍ ... وهما على الإسلام مصطحبانِ
وأبى أقام الدين بعد محمدٍ ... فالنصل نصلى والسنان سنانى
والفخر فخرى والخلافة فى أبى ... حسبى بهذا مفخرًا وكفانى
وأنا ابنة الصديق صاحب أحمدٍ ... وحبيبه فى السر والإعلانِ
نصر النبى بماله وفِعاله ... وخروجه معه من الأوطانِ
ثانيه فى الغار الذى سد الكوى ... بردائه أكرم به من شانِ
وجفا الغنى حتى تخلل بالعبا ... زهدًا وأذعن أيما إذعانِ
وتخللت معه ملائكة السما ... وأتته بشرى الله بالرضوانِ
وهو الذى لم يخش لومة لائم ... فى قتل أهل البغى والعدوانِ
قتل الأولى منعوا الزكاة بكفرهم ... وأذل أهل الكفر والطغيانِ
والله ما استبقوا لنيل فضيلة ... مثل استباق الخيل يوم رهانِ
إلا وطار أبى إلى عليائها ... فمكانه منها أجل مكانِ
وويل لعبد خان آل محمدٍ ... بعداوة الأزواج والأختانِ
طوبى لمن والى جماعة صحبه ... ويكون من أحبابه الحسنانِ
بين الصحابة والقرابة ألفة ... لا تستحيل بنزغة الشيطانِ
هم كالأصابع فى اليدين تواصلاً ... هل يستوى كف بغير بنان

حصرت صدور الكافرين بوالدى ... وقلوبلهم ملئت من الأضغانِ
حب البتول وبعلها لم يختلف ... من ملة الإسلام فيه اثنانِ
أكرم بأربعة أئمة شرعنا ... فهم لبيت الدين كالأركانِ
نسجت مودتهم سدى فى لُحمةٍ ... فبناؤها من أثبت البنيانِ
الله ألف بين ود قلوبهم ... ليغيظ كل منافق طعانِ
رحماء بينهم صفت أخلاقهم ... وخلت قلوبهم من الشنانِ
فدخولهم بين الأحبة كلفة ... وسبابهم سبب إلى الحرمانِ
جمع الإله المسلمين على أبى ... واستبدلوا من خوفهم بأمانِ
وإذا أراد الله نصرة عبدهِ ... من ذا يطيق له على خذلانِ
من حبنى فليجتنب من سبنى ... إن كان صان محبتى ورعانى
وإذا مُحبى قد ألظ بمبغضى ... فكلاهما فى البغض مستويانِ
إنى لطيبة خلقت لطيب ... ونساء أحمد أطيب النسوانِ
إنى لأم المؤمنين فمن أَبَى ... حبى فسوف يبوء بالخسرانِ
الله حببنى لقلب نبيه ... وإلى الصراط المستقيم هدانى
والله يكرم من أراد كرامتى ... ويهين ربى من أراد هوانى
والله أسأله زيادة فضلهِ ... وحمدته شكرًا لما أولانى
يا من يلوذ بأهل بيت محمدٍ ... يرجو بذلك رحمة الرحمانِ
صل أمهات المؤمنين ولا تَحِد ... عنا فتسلب حُلة الإيمانِ
إنى لصادقة المقال كريمة ... إى والذى ذلت له الثقلانِ
خذها إليك فإنما هى روضة ... محفوفة بالروح والريحانِ
صلى الإله على النبى وآله ... فبهم تشم أزاهر البستانِ

ومن فضائل أمنا عائشة وشمائلها هذه اللطيفة المباركة التى أوردها القرطبى فى تفسيره قال: قال بعض أهل التحقيق: إن يوسف عليه السلام لما رمى بالفاحشة برأه الله على لسان صبى فى المهد، وإن مريم لما رميت بالفاحشة برأها الله على لسان ابنها عيسى

صلوات الله عليه، وإن عائشة لما رميت بالفاحشة برأها الله تعالى بالقرآن، فما رضى لها ببراءة صبى، ولا نبى، حتى برأها الله بكلامه من القذف والبهتان .

وأود فى نهاية هذه الفقرة المونقة أن أشير إلى أن بعض العلماء ذهب إلى أن أمنا عائشة رضى الله عنها أفضل الصحابيات على الإطلاق، فقد نقل الإمام الآمدى فى كتابه أبكار الأفكار عن الزمخشرى فى الإجابة قوله: مذهب أهل السنة: أن عائشة أفضل نساء العالمين وأيدوا ما ذهبوا إليه بقوله ﷺ عنها: فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام .

وقد أيد العلماء ما ذهبوا إليه بأن عائشة أفضل النساء لأن لها من الفضل فى العلم النافع، والفقه الناصع ما ليس لغيرها من سائر أزواجه ﷺ، حتى إن الأكابر من أصحاب النبى ﷺ كانوا إذا أشكل عليهم أمر من الدين استفتوها فيجدون علمه عندها.

ومن العلماء من توقف عن ذكر التفاضل بين الصحابيات على الإطلاق، وهذا هو القول الراجح، لأن الأفضلية على الإطلاق لا يعلمها إلا الخلاق، وإنما الأفضلية تكون فى ناحية خاصة، فكل واحدةٍ قد يكون لها من المزايا والخواص ما تفضل بها على غيرها من سائر النساء...

وممن أيد هذا الرأى الحصيف الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله إذ قال ما مفاده:

الخلاف فى كون أم المؤمنين عائشة أفضل، أم سيدتنا فاطمة الزهراء أفضل، وإذا حرّر محل التفضيل صار وفاقًا، فالتفضيل دون التفصيل لا يستقيم، فإن أريد بالفضل كثرة الثواب عند الله عز وجل، فذلك أمر لا يطلع عليه إلا بالنص، لأنه بحسب تفاضل أعمال القلوب لا بمجرد أعمال الجوارح، وكم من عاملين أحدهما أكثر عملاً بجوارحه، والآخر أرفع منه فى الجنة!.

وإن أريد بالتفضيل: التفضيل بالعلم فلا ريب أن عائشة أعلم وأنفع للأمة، وأدت إلى الأمة من العلم ما لم يؤد غيرها، واحتاج إليها خاص الأمة وعامتها.

وإن أريد بالتفضيل: شرف الأصل وجلالة النسب فلا ريب أن فاطمة أفضل، فإنها بضعة من النبى ﷺ، وذلك اختصاص لم يشاركها فيه غير إخوتها، وإن أريد السيادة: ففاطمة الزهراء سيدة نساء الأمة.

وإذا ثبتت وجوه التفضيل، وموارد الفضل وأسبابه، صار الكلام بعلم وعدل، وأكثر الناس إذا تكلم فى التفضيل لم يفصل جهات الفضل، ولم يوازن بينها، فيبخس الحق، وإن انضاف إلى ذلك نوع تعصب وهوى لمن يفضل تكلم بالجهل والظلم.

وقد سئل ابن تيمية عن مسائل عديدة من مسائل التفضيل، فأجاب فيها بالتفصيل الشافى إلى أن قال: ومنها: أنه سئل عن خديجة وعائشة أمَّى المؤمنين أيهما أفضل، فأجاب: بأن سبق أمنا خديجة رضى الله عنها وتأثيرها فى أول الإسلام، ونصرها وقيامها فى الدين لم تشركها فيه عائشة ولا غيرها من أمهات المؤمنين، وتأثير عائشة فى آخر الإسلام، وحمل الدين وتبليغه إلى الأمة، وإدراكها من العلم ما لم تشركها فيه خديجة ولا غيرها مما تميزت به عن غيرها، فتأمل الجواب الذى لو جئت بغيره من التفضيل مطلقًا لم تخلص من المعارضة [١].

الصديقة وأمهات المؤمنين:

لم تكن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وحدها فى البيت الذى أذهب الله عنه الرجس وطهره تطهيرًا، وإنما كان لها شريكات فى البيت النبوى من أمهات المؤمنين، مثل: سودة بنت زمعة، وأم سلمة، وزينب بنت جحش، وحفصة بنت عمر رضى الله عنهن.

وكان من أجل النعم الإلهية على البيت النبوى، وعلى المسلمين أن الله عز وجل قد حمى أمهات المؤمنين الطاهرات كلهن عن التكلم فى محنة هذا البهتان الخبيث، فلم يؤثر عن أية واحدةٍ منهن أنها تكلمت فى عائشة كلمة واحدة، أو أشارت توحى إلى هذا الأمر خفية، وهن ضرائرها وشريكاتها فى القرب من رسول الله ﷺ.

ولكن الله ذو الفضل العظيم والخير العميم، حفظهن جميعًا حفظًا مباركًا لمقام حرم رسوله ﷺ أن تظل عروش بيوتهن فى خلوتهن أو جلوتهن معه ﷺ بما يعصمهن عن الانزلاق إلى مزالق الباطل، والتقول على من يعرفن أنها أحب الناس إليه ﷺ، وأعزهن

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٦١ - ١٦٣) بتصرف يسير.

عنده، وأعرفهن بمطارح أنظاره، وأسرعهن إلى التعلق بأسباب رضاه فى كل ما تقر به عينه ﷺ.

وقد خص الله عز وجل أم المؤمنين زينب بنت جحش رضى الله عنها، بموقف نبيل كريم من عائشة رضى الله عنها فى قصة الإفك، وهى التى تساميها عند رسول الله ﷺ مما كان يخاف منه العشرة، ذلك أن رسول الله ﷺ خصها بالسؤال عن عائشة قبل أن ينزل الوحى ببراءتها وطهارتها من رجس الإفك، وافتراء البهتان، فقال لها: يا زينب ماذا علمتِ أو رأيتِ فقالت: يا رسول الله أحمى سمعى وبصرى، والله ما علمت إلا خيرًا رواه البخارى (٤٧٥٠).

قالت عائشة رضى الله عنها تثنى على زينب، وتعرف لها فضلها فى دينها وأدبها وجودها ومعروفها: وهى التى تسامينى من أزواج النبى ﷺ فعصمها الله بالورع .

إنه من الصعب أن ننتزع ثناء امرأة على امرأة فى مثل هذه المواقف، ولكن نساء النبى ﷺ كن من نوع آخر، فكانت الواحدة منهن تثنى على صاحبتها بما هى أهله.

روى أن أمنا عائشة أثنت على أمنا زينب بنت جحش فقالت: كانت زينب بنت جحش تسامينى فى المنزلة عند رسول الله ﷺ وما رأيت امرأة خيرًا فى الدين من زينب، وأتقى لله، وأصدق حديثًا، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة رضى الله عنها [١].

أما المنافقون وزعيمهم عبد الله بن أبى ابن سلول، فقد رد الله كيدهم إلى نحورهم، وانكمد ابن سلول غيظًا بحقده، وخاب سعيه وبار، وكتب فى سجل الأشقياء والمحرومين، وكانت حادثة الإفك شاهد على فجوره ونفاقه إلى ما شاء الله تعالى.

الصديقة ورخصة التيمم:

من نفحات أم المؤمنين عائشة ويمنها وبركاتها أن نزلت بسببها آية التيمم، وهى تشريع الرحمة، ورفع الإصر عن هذه الأمة.

ففى إحدى مغازى رسول الله ﷺ ــ وربما فى غزوة بنى المصطلق ــ خرجت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها فى هودجها مع نساء المسلمين، حتى إذا كانوا فى

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٣ - ٢١٤) وانظر مسلم (٢٤٢٢).

مكان يسمى: البيداء، أو ذات الجيش، أو تربان، انسلت قلادة من عنق عائشة ووقعت، فأقام رسول الله ﷺ على التماسها وأقام الناس معه حتى طلع الفجر، وليس مع القوم ماء، فجاء الناس إلى أبى بكر الصديق ﷺ، فقالوا له: ألا ترى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله ﷺ، وبالناس، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء فجاء أبو بكر ﷺ إلى عائشة، ورسول الله ﷺ واضع رأسه الشريف على فخذها قد نام، فقال: حبست رسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء، وليس معهم ماء؟! .

وغدا أبو بكر ﷺ يعاتبها، وجعل يطعن بيده فى خاصرتها، ولا يمنعها من التحرك إلا مكان رأس رسول الله ﷺ على فخذها، وراح أبو بكر يزيد فى عتابها، وقد وصفت السيدة عائشة ذلك فقالت: فلقيت من أبى ما الله به عليم من التعنيف والتأفيف وقال: فى كل سفر للمسلمين منك عناء وبلاء، وقال أبى ما شاء الله أن يقول .

نام رسول الله ﷺ حتى أصبح على غير ماء، وعندئذ أنزل الله عز وجل الرخصة فى التيمم: ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ﴾ (النساء: ٤٣) وعندئذ قام المسلمون مع رسول الله ﷺ فتيمموا، ثم وقفوا خلفه يصلون، وأشرقت نفوسهم بأنوار اليقين، وقضيت الصلاة... فتقدم أسيد بن الحضير الأنصارى ﷺ فقال: ما هذا بأول بركتكم يا آل أبى بكر، لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبى بكر، ما أنتم إلا بركة لهم .

أما أبو بكر ﷺ فقد تقدم من ابنته عائشة على ما روت فقالت: يقول أبى حين جاء الله من الرخصة للمسلمين: والله ما علمت يا بنية إنك لمباركة ماذا جعل الله للمسلمين فى حبسك إياهم من البركة واليسر .

وأما عقد عائشة فكما قالت: فبعثنا البعير الذى كنت فيه، فوجدنا العقد تحته [(١)].

وقد اغتبط المسلمون، وفرحوا فرحًا شديدًا بفضل الله عليهم، إذ فرج عنهم ضائقتهم ببركة عائشة رضى الله عنها، وجاءها أبوها الصديق وقد رأى غبطة

(١) رواه البخارى (٣٣٤).

المسلمين بحفاوة الله تعالى بهم حفاوة عامة فى كل زمان ومكانٍ ببركتها وإكرمًا لها، وإظهارًا لفضلها، وتشريفًا لمقامها، فقال لها ووجهه يتبلج بنور المحبة الأبوية: إنك لمباركة ما أكرم تلك القلادة!! القلادة التى قلدت الأمة المحمدية رخصة التيمم والتى فرح المسلمون بنزولها من لدن حكيم مجيد، وما ذاك إلا من يمن عائشة رضى الله عنها، وإشراق روحها، ناهيك بمنزلتها عند الله عز وجل فى علمها وفقهها وعملها وورعها رضى الله عنها وأرضاها.

الصديقة أولى حافظات الحديث:

عندما لحق النبى ﷺ بربه، كانت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها لم تخط إلى التاسعة عشرة، على أنها ملأت أرجاء الأرض علمًا، فهى فى رواية الحديث وحفظه كانت نسيجًا وحدها، ولم يكن بين أصحاب رسول الله ﷺ من كان أروع منها، ومن أبى هريرة رضى الله عنهما، على أن عائشة كانت أدق منه، وأوثق وأضبط.

امتازت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بالصدق فى العلم والأمانة فى الرواية، وكانت من أنفذ الناس رأيًا فى أصول الدين، ودقائق الكتاب المبين، وكان كبار الصحابة إذا أشكلت عليهم الفرائض فزعوا إليها، فحسرت حُجُب الإشكال، وكشفت سحبها، وأبانت حقيقتها ومقاصدها.

رزقت عائشة رضى الله عنها حافظة قوية جعلتها واحدًا من المراجع المهمة فى عالم الحديث النبوى الشريف وحده، ولم يكن نفاذ رأيها ورجاحة كفتها وقفًا على الحديث الشريف فحسب، وإنما بلغت السما فى رواية الشعر، ومعرفة الأدب، والتاريخ، وكذلك كان نفاذها فى الطب، وعلم الأنساب، وما إلى ذلك، فهذا عروة بن الزبير فقيه المدينة المنورة، وأحد علمائها الأفذاذ الذى يقصد من كل فجٍّ عميق يقول: ما رأيت أحدًا أعلم بفقهٍ ولا بطبٍّ ولا بشعر من عائشة .

أن نظرة واحدة إلى مسند عائشة رضى الله عنها نعرف إلى أى مدى بلغت من الإحاطة بالعلم، بل بحوادث الأمم ومشكلات التاريخ، ودقائق الأحكام، ورقائق العبادات.

وكانت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها تحسن أن تقرأ، ولكن لا تكتب، ولم يكن يعرف ذلك إلا عدد محدود من أصحاب رسول الله ﷺ، ومن يعرف القراءة والكتابة كان يدعى الكامل .

ومن الإنصاف أن نقول: كانت أزواج النبى الطاهرات جميعًا رضى الله عنهن قسيمات عائشة فى إذاعة العلم، وإفاضة الدين، وتعليم الفقه، ورواية حديث النبى ﷺ على المسلمين، وعلى طلاب العلم، وشداته من أصقاع المعمورة روت أمنا عائشة رضى الله عنها عن النبى الكريم ﷺ علمًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، ووعت كل كلمة قالها النبى ﷺ وحفظتها حفظ من يتبرك بها، ولا يغفل عنها، وكانت من أكثر الصحابة حفظًا وفتيًا.

ولم تقف عائشة فى العلم عند هذا فحسب، وإنما روت كذلك عن أبيها سيدنا أبى بكر الصديق، وعن عمر بن الخطاب، وسعد بن أبى وقاص، وحمزة بن عمرو الأسلمى، رضى الله عنهم: وقد روت عن النساء أيضًا، فروت عن سيدة النساء فاطمة الزهراء، وعن جذامة بنت وهب رضى الله عنهما.

روى عن عائشة طائفة كبيرة من الصحابة الكرام رجالاً ونساء.

روى عنها عدد من جلة التابعين من الرجال منهم: عروة بن الزبير، وعامر الشعبى، وعطاء بن أبى رباح، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وغيرهم كثيرون جدًا لا يحصون.

ويبدو أن النساء اللاتى روين عن أم المؤمنين عائشة لم يكنّ أقل حظًا من الرجال، وقد أثرين عصر التابعين فى نقل ما سمعوه عن سيدة النساء الصادقات، وسيدة البيت النبوى بلا منازع، وسيدة العالمات الحافظات القانتات العابدات السائحات.

أقول: تصدت نساء العصر النبوى ونساء عصر التابعين لفنون العلم، وخصوصًا رواية الحديث النبوى الشريف، وأمعن فى ذلك إمعانًا حلقن فيه فى مواطن، وكان لهن مظهر خلقى كريم فى العلم والتعليم».

نستطيع الآن أن نورد أسماء بعض العالمات الفقيهات اللاتى روين عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، وممن تركن أنصع الآثار العلمية فى تاريخها المونق المعطاء، أذكر منهن:

زينب بنت أبى سلمة المخزومية الصحابية المعروفة، وخيرة أم الحسن البصرى، وحفصة بنت عبد الرحمن بن أبى بكر، وصفية بنت أبى عبيد، وعائشة بنت طلحة التيمية، وعمرة بنت عبد الرحمن، ومعاذة العدوية، وأم كلثوم بنت أبى بكر أخت عائشة لأبيها، ونهية مولاة سيدنا أبى بكر الصديق، وجسرة بنت دجاجة، وذفرة بنت غالب، وزينب بنت نصر، وزينب السهية، وسمية البصرية، وشميسة العتكية، وصفية بنت شيبة، وغيرهم كثيرات.

ويدل هذا على سعة علم عائشة رضى الله عنها التى انتزعت إعجاب علماء التابعين، لما حباها الله من فضله فى مجال العلم، وقد بلغ ما روته الصديقة عائشة رضى الله عنها من الأحاديث الشريفة ألفين ومائتين وعشرة أحاديث، وهو أكبر عدد ترويه امرأة عن رسول الله ﷺ، وهى معدودة من الصحابة السبعة الذين بلغت مروياتهم أكثر من ألف حديث نبوى شريف، وهم: أبو هريرة، عبد الله بن عمر بن الخطاب، أنس بن مالك، عائشة بنت أبى بكر، عبد الله بن عباس، جابر بن عبد الله الأنصارى، وأبو سعيد الخدرى واسمه سعد بن مالك رضى الله عنهم .

وقد أغرم أحد الشعراء بهؤلاء الحفاظ الأعلام من الصحابة فضاغهم شعرًا ونظمهم بقوله:

سبع من الصحب قبل الألف قد نقلوا ... من الحديث عن المختار خير مُضَر

أبو هريرة سعد جابر أنس ... صديقة وابن عباس كذا ابن عمر

إن مرويات السيدة عائشة رضى الله عنها منثورة فى كتب الصحيح، وفى السنن، والمسانيد، وقد اتفق لها الشيخان البخارى ومسلم على مائة وأربعة وسبعين حديثًا، انفرد البخارى بأربعة وخمسين، وانفرد مسلم بتسعةٍ وستين.

ومما أخرجه البخارى ومسلم وابو داود وغيرهم لأمنا عائشة رضى الله عنها ما رواه القاسم بن محمد عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رَدٌّ [1].

إن نظرة واحدة فى كتب الحديث، ندرك من خلالها مدى علم أم المؤمنين عائشة، فهى معلمة العلماء، وسيدة المفسرين، وأستاذة المحدثين، وفقيهة نساء الأمة على الإطلاق، ناهيك بمعارفها وآدابها المنثورة فى ثنايا المصادر، تلك التى تشهد لها بعلو مقامها، ونفاذ رأيها، وروائع كلماتها المستمدة من فيض نور النبوة.

وبالإضافة إلى تلكم المزايا الرفيعة فى شخصية أمنا عائشة رضى الله عنها، فقد كانت من الصحابة المكثرين فى الفتيا، الذين يرجع إليهم فى كل ما يتعلق بأحكام الشريعة.

والمكثرون من الصحابة فيما روى عنهم من الفتيا سبعة وهم: عائشة أم المؤمنين، عمر بن الخطاب، ابنه عبد الله بن عمر، على بن أبى طالب، عبد الله بن عباس، عبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت رضى الله عنهم .

وفى كتابه الممتع أنساب الأشراف أخرج البلاذرى رحمه الله بسنده عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه قال: كانت عائشة قد اشتغلت بالفتوى فى خلافة أبى بكر، وعمر، وعثمان وهلم جرا إلى أن ماتت وكانت ملازمة لها .

الصديقة وثناء الأكابر عليها:

خص الله عز وجل أمنا عائشة رضى الله عنها بفضائل حسان ومناقب جسام، جعلت كثيرًا من أفذاذ العلماء، وكبار الزهاد، وأصفياء العباد، يفصحون بأدق المديح، وأخص الثناء لها، وتبارى الأعلام فى ذلك، فأدلوا دلاءهم فى مضمار الثناء والامتداح، لمن خصها البارى عز وجل بشهادة الطهر والبراءة من فوق سبعة أرقعةٍ، وليس بعد هذا الثناء ثناء.

---

(١) رواه البخارى (٢٦٩٧) مسلم (١٧١٨) وأبو داود (٤٦٠٦) وابن ماجه (١٤) أحمد (٦/ ٢٧٠).

تبارى العلماء والكتاب فى نشر فضائل عائشة رضى الله عنها فى مجالسهم، وسجلوها فى مصنفاتهم، لتبقى قدوة للمؤمنات إلى ما شاء الله، ولا أجد فى هذا المجال أجمع وأوجز من ثناء ابن أختها عروة بن الزبير رحمه الله إذ قال: صحبت عائشة، فما رأيت أحدًا قط كان أعلم بآية أنزلت، ولا بفريضة، ولا بسنة، ولا بشعر، ولا أروى له، ولا بيوم من أيام العرب، ولا بنسب، ولا بكذا، ولا بكذا، ولا بقضاء، ولا بطب منها، فقلت لها: يا خالة: الطب من أين عُلِّمتيه؟ فقالت: كنت أمرض فينعت لى الشىء، ويمرض المريض فينعت له، وأسمع الناس ينعت بعضهم لبعض فأحفظه [١] قال عروة: فلقد ذهب عامة علمها لم أسأل عنه .

وقال عروة أيضًا: لو لم يكن لعائشة من الفضائل إلا قصة الإفك، لكفى بها فضلاً، وعلو مجد، فإنها نزل فيها من القرآن ما يتلى إلى يوم القيامة [٢].

ولعل الإمام مسروق بن الأجدع رحمه الله من أكثر الذين رووا عن أم المؤمنين عائشة، ونهلوا من معين علمها، ولذلك سئل مسروق: هل كانت عائشة تحسن الفرائض؟ فقال مسروق: والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ الأكابر يسألونها عن الفرائض [٣] وفى رواية: رأيت مشيخة الصحابة يسألونها عن الفرائض وقال أبو بردة بن أبى موسى عن أبيه أبى موسى الأشعرى قال: ما أشكل علينا أصحاب محمد ﷺ حديث قط، فسألنا عنه عائشة، إلا وجدنا عندها منه علمًا [٤].

وقال الإمام الزهرى رحمه الله: لو جمع علم عائشة إلى علم جميع النساء، لكان علم عائشة أفضل [٥].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ١٨٣) وحلية الأولياء (٢/ ٤٩).
(٢) أسد الغابة (٦/ ١٩١).
(٣) رواه الدارمى (٢/ ٣٤٢، ٣٤٣).
(٤) رواه الترمذى (٣٩٧٠).
(٥) المستدرك (٤/ ١١).

أما عطاء بن أبى رباح وهو ممن روى عن عائشة وهو من جلة التابعين وأكابرهم، فقد أثنى على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها باوجز لفظ، وأجمعه، فقال: كانت عائشة أفقه الناس، وأحسن الناس رأيًا فى العامة [(١)].

الصديقة والفضائل الكريمة:

لا يستطيع الباحث أن يحصى فضائل أم المؤمنين عائشة ومناقبها بين دفتى الكتاب، ولكننا نورد زهرًا من رياض حببية الحبيب محمد ﷺ، ونعرض بعض مناقبها التى تعلو كالأنجم فى السماء الصافية.

ففى مجال الزهد: كانت أم المؤمنين عائشة من أشد الناس زهدًا فى الدنيا، وبلغت ذروة الزهد بإعراضها عن متاع الدنيا، على الرغم من السعة التى أوسع الله على المسلمين، ولكن كانت كما وصفها أبو نعيم رحمه الله فى حليته فقال: كانت للدنيا فالية، وعن سرورها لاهية، وعن فقد أليفها باكية [(٢)].

وقصص زهد عائشة رضى الله عنها لا تملها الأسماع، على الرغم من كثرتها، ولكنها توقظ الهمم فى النفوس، وتأخذ بمجامع القلوب إلى عين الحياة الحقيقية التى ترنو إليها عائشة رضى الله عنها ألا وهى الدار الآخرة، فكانت تريدها وتسعى لها سعيها، وهى مشاقة إليها حتى تلتقى رسول الله ﷺ عند مليك مقتدر...

إذا ما فتحنا باب الجود، وخضنا بحره، وجدنا عائشة لجته المعروف، وجودها ليس له قرار، إذ بلغت فى السخاء مبلغًا لفت إليها الأنظار، من ذلك ما ذكره عروة بن الزبير قال: لقد رأيت عائشة رضى الله تعالى عنها تقسم سبعين ألفًا، وإنها لترقع جيب درعها [(٣)].

وذكر عروة أيضًا زهد خالته وجودها فقال: بعث معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما مرة إلى عائشة بمائة ألف درهم، فوالله ما أمست حتى فرقتها، فقالت لها

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبى وأسد الغابة (٦/ ١٩١).

(٢) حلية الأولياء (٢/ ٤٤).

(٣) حلية الأولياء (٢/ ٤٧).

مولاتها: لو اشتريت لنا من هذه الدراهم بدرهم لحمًا؟ فقالت عائشة رضى الله عنها: ألا قلت لى؟ وكانت عائشة يومذاك صائمة فأكرم بجودها وزهدها!!.

والله در الإمام الذهبى إذ قال عن أمنا عائشة: كانت أم المؤمنين من أكرم أهل زمانها، ولها فى السخاء أخبار (١).

أما عبادة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، فكانت شيئًا مذكورًا يستحق التسجيل والمذاكرة والتذكير، فقد نشأت فى البيت النبوى الكريم الطاهر، وشهدت أعظم آيات النبوة، وآيات الوحى، فتأثرت كثيرًا بعبادة النبى ﷺ ومنهجه فيها، وراحت تقتفى أثره الشريف فى ذلك حتى غدت المرجع المهم، فى هذا المضمار المبارك، ويبدو أنها كانت تقوم الليل، وتصوم الدهر، حتى شُغِفَت بهما...

روى أنها كانت تصوم الدهر، وتحب الاعتمار، والحج، ولها فى ذلك أخبار كثيرة، وحجتها فى ذلك قول رسول الله ﷺ عندما سألته: يا رسول الله هل على النساء جهاد؟ قال: نعم، عليهن جهاد لا قتال فيه: الحج والعمرة رواه ابن ماجه.

ولعل لأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها فضيلة باهرة، لم تلحقها بها واحدة من نساء أهل البيت، وهى أنها تلقت السلام من جبريل عليه السلام، فقد جاء فى الصحيح أن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: يا عائش هذا جبريل وهو يقرأ عليك السلام قالت: وعليه السلام ورحمه الله ترى ما لا نرى يا رسول الله (٢).

وهذا مما حدا بأبى نعيم الأصبهانى لأن يقول فى مطلع ترجمة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها فى حليته: الصديقة بنت الصديق، العتيقة بنت العتيق، حبيبة الحبيب، وأليفة القريب، سيد المرسلين محمد ﷺ، المبرأة من العيوب، عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها (٣).

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ١٩٨).
(٢) رواه البخارى (٨/ ٣٧٦) مسلم (٢٤٤٧).
(٣) حلية الأولياء (٢/ ٤٣).

ولو رحنا نتتبع مناقب الصديقة بنت الصديق وفضائلها لحصلنا على مجلدات كثيرة، ولكنه يكفيها من الفضل يكفيها، أن رسول الله ﷺ قال فيها: فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام [١].

ولعل من أعظم المكرمات التى حظيت بها عائشة أن صارت حجرتها المباركة الميمونة مثوى الحبيب الأعظم محمد ﷺ، تزار من كل فج عميق، وتقف مسلمة على النبى ﷺ وصاحبيه، ولقد رأت عائشة ذلك الفضل من قبل، فقد قالت لأبى بكر الصديق رضى الله عنهما: رأيت كأن ثلاثة أقمار سقطن فى حجرى، فقال لها: إن صدقت رؤياك دفن فى بيتك ثلاثة من خير أهل الأرض، فلما دفن النبى ﷺ، قال أبو بكر هذا أحد أقمارك، وهو خيرها .

ثم دفن القمر الثانى فكان أبو بكر نفسه، ثم دفن القمر الثالث، فكان عمر ﷺ، وبهذا تم تأويل رؤيا عائشة من قبل وقد جعلها الله حقًا.

وقد نظم عبد الرحيم العراقى الشافعى فى ألفية السيرة النبوية حلم أم المؤمنين عائشة فقال:

وفسر الصديق للصديقة	منامها إن سقطت فى الحجرة
حجرتها ثلاثة أقمارا	ها خير أقمارك حل الدارا
صلى عليه ربنا وسلما	وصاحبيه نُعِّما وأُنْعِما
هما الضجيعان من الأقمار	قد جاورا فى اللحد خير جار

الصديقة والأدب:

لئن حلقت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها عاليًا فى سماء العلم ورواية الحديث، وفى الزهد والورع، وفى الفقه والعبادة، لقد حلقت فى سماوات البلاغة والفصاحة، وبلغت ما لم تبلغه امرأة قط فى عصر النبوة ولا فى عصور بعدها.

---

(١) رواه البخارى (٣٧٦٢) ومسلم (٢٤٤٦).

وقد شهد بكمال وجمال فصاحة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها الإمام الذهبى رحمه الله فقال: ولها حظ وافر من الفصاحة والبلاغة، مع ما لها من المناقب رضى الله عنها .

ولا شك فى أن أمنا عائشة عليها سحائب الرضوان، قد أسست على أساس متين من الفصاحة فى بيت الصديق، فقد كان أبو بكر ﷺ معروفًا بفصاحته ومعرفته الأنساب وأيام العرب، ثم انتقلت من بيت أبيها إلى كنف الرسول ﷺ، فغدت تتأدب بأدبه، وترد موارد البيان القرآنى، تنهل منه، وتعبُّ عَبّا حتى أضحت كلماتها كأنها فيض من نور النبوة، فلا تكاد تقف على كلامها إلا تملكك العجب بفصاحة معانيها، واستولى عليك الإعجاب بروعة بيانها، ولا أدل على ذلك من روايتها حديث الإفك الذى مر معنا بعض منه، فإنه قطعة أدبية نادرة فى دنيا الأدب وعالم البلاغة والبيان والتبيين...

كانت بلاغة عائشة رضى الله عنها مضرب المثل فى عصر النبوة وصدر الإسلام وفصائحهم، فهذا معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما وهو من بلغاء الصحابة ومن فصحاء البلغاء يشهد بفصاحة عائشة فيقول: والله ما سمعت قط أبلغ من عائشة، ليس رسول الله ﷺ .

وقال موسى بن طلحة رحمه الله: ما رأيت أحدًا أفصح من عائشة أما الأحنف ابن قيس — وما أدراك ما الأحنف — فقد شهد لعائشة — وهو الفصيح الذى ضرب المثل بفصاحته وحلمه — بالبلاغة وحسن الخطاب فقال: سمعت خطبة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى والخلفاء بعدهم، فما سمعت الكلام من فم مخلوقٍ أفخم ولا أحسن منه من عائشة رضى الله عنها .

وقد عززت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أدبها بحفظ الشعر ونوادره البلاغية، روى ابن سعدٍ فى طبقاته عن عروة بن الزبير قال: ربما روت عائشة القصيدة ستين بيتًا وأكثر .

وتتحفنا أم المؤمنين عائشة نفسها بهذا الخبر الجميل فتقول: رويت للبيد بن أبى ربيعة نحوًا من ألف بيت .

ولبيد هذا واحد من الشعراء المخضرمين، فكيف بغيره من فطاحل الشعراء الذين ملئوا الدنيا وشغلوا الناس؟! ولهذا كان الإمام عامر الشعبى رحمه الله وهو تابعى جليل وثقة فقيه يذكر أم المؤمنين عائشة، ويتعجب من فقهها وعلمها، ثم يقول بعد أن ينتهى من حديثه عنها: ما ظنكم بأدب النبوة؟! .

ولأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها نظرة علمية ثاقبة فى تلقين الأولاد، وتنمية ملكاتهم فى مجال العلم، وفهم منابع الأدب، وعيون الشعر، فكانت توصى دائمًا بتعليم الأولاد الشعر، لما له من صقل للمواهب والطباع وحسن النطق فكانت تقول: روّوا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم .

والشعر مكان أثير عند أم المؤمنين عائشة رضوان الله عليها، فلا تكاد تمر حادثة الإفك إلا أنشدت فيها ما يلائمها، قال عروة بن الزبير: ما كان ينزل بعائشة شىء إلا أنشدت فيه شعرًا .

ولعل أدب أم المؤمنين عائشة وبلاغتها له رافد أيضًا من خطب ووفود العرب وإنشادهم الشعر، فقد كانت حجرتها ملاصقة للمسجد النبوى الذى تأتيه الوفود من كل مكان، فتسمع ما تجود به قرائحهم، وتعى أحاديث رسول الله ﷺ لهم، وخطبه فيهم، فلا عجب أن تحوز قصب السبق فى ميدان البلاغة والفصاحة، ولهذا لم يجد زياد بن أبيه حرجًا فى الإفصاح عن رأيه بأفصح الناس، عندما سأله معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما وعزم عليه بقوله: أى الناس أبلغ يا زياد؟ قال زياد: أما إذا عزمت علىَّ يا أمير المؤمنين فعائشة بنت أبى بكر أم المؤمنين رضى الله عنها فقال معاوية ﷺ معلقًا وموثقًا قول زياد: إى والله ما فتحت بابًا من أبواب العلم تريد أن تغلقه إلا أغلقته، ولا أغلقت بابًا تريد أن تفتحه إلا فتحته .

والحقيقة، فهذه ذروة البلاغة البيانية فى مقدرة عائشة رضى الله عنها على صوغ الكلام المفيد والمعانى الرائقة والألفاظ الموحية المونقة، فكأن مقاليد البلاغة قد ذللت لها لكى تجود بأنفس الكلام، وأجود المبانى الكلامية، وأحلى المعانى، وأعلى أنواع البيان، فلم يؤثر عنها أنها لحنت فى شىء من كلامها قط، بل كانت تزجر بشدة من يقع فى

اللحن والخطأ، وترشده إلى سلامة الألفاظ، وارتقاء المعانى وكمال البلاغة والفصاحة...

الصديقة وأثارة من أقوالها:

أذا نظرنا إلى الأقوال المأثورة التى حفظت عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، ألفينا أنها ذات سحر بيانى آسر لمجامع القلوب والنفوس، وقد غذت عائشة ملكاتها الأدبية من المائدة القرآنية، تلك المائدة التى لا تنفدُ، ولا ينضب معينها الصافى، وعززت عائشة أدبها بأدب النبوة أيضًا، ومن هذه التربة البلاغية الخصبة نجد أن كلمات أم المؤمنين عائشة قد رقت وراقت ورفدت العقول بروائع الأدب والتجارب، من ذلك قولها: لله دَرُّ التقوى ما تركت لذى غيظ شفاء .

ومن كلماتها المأثورة التى تشير إلى حكمتها وأدبها وحسن نظرتها إلى الأمور قولها: لا سَهَرَ إلا لثلاثة: مُصَلٍّ، أو عروس، أو مسافر .

وفى امتداح الأنصار لم تفتها الكلمات الرقيقة الندية التى تلامس القلوب، فتجعلها تنبض بالدفء والعطاء، كقلوب الأنصار الذين كانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة اسمع ما تقوله عنهم: ما تبالى المرأة إذا نزلت بين بيتين من الأنصار صالحين إلا تنزل من أبويها .

ومن رقائقها الرائعة التى تصافح الأسماع، فتزرع فيها الإمتاع قولها فى طلب الرزق: التمسوا الرزق فى خبايا الأرض .

ورأت رضى الله عنها رجلاً متماوتًا يظهر الزهد والتعبد، فقالت متعجبة: ما هذا؟ فقالوا: زاهد قالت: قد كان عمر بن الخطاب ﷺ زاهدًا، وكان إذا قال أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب فى ذات الله أوجع .

وتقصد عائشة أن عمر من أئمة الزهد، فلماذا يتظاهر هذا الرجل ويتماوت فى صورة مفتعلة، إن هذا الشىء عجاب!.

وإذا أرادت أم المؤمنين أن تعظ الناس، أتت ببيان مشرق، وكلام بليغ مفيد مقنع، من ذلك قولها تنصح بالمحافظة على الطاعة وعدم اقتراف الذنوب: إنكم لن تلقوا الله

عز وجل بشىء خير لكم من قلة الذنوب، فمن سره أن يسبق الدائب المجتهد، فليكف نفسه عن كثرة الذنوب .

والحقيقة، فهذا القول يشير إلى كمال دينها، وورعها، ومعرفتها لحقوق الله عز وجل، ولذلك كانت تقول دائمًا وتوصى الناس: من عمل بما يسخط الله عز وجل عاد حامده من الناس له ذامًّا .

نعم، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق عز وجل، وعلى هذا الأساس كانت رضى الله عنها تحث الناس على الإكثار من الإحسان، والبعد عن مواطن الشك والتهم والسمعة والقالة، وقد سئلت: متى يكون الرجل مسيئًا؟ فأجابت رضى الله عنها إجابة الواثق العالم: إذا ظن أنه مُحْسِن .

وقد حفظت لنا أمهات المصادر، ما تركته أم المؤمنين من نفائس الأقوال فى شتى المجالات، ونزين ختَام هذه الفقرة ببعض تلكم النفائس:

قالت: يا بنى، لا تطلبوا ما عند الله من غير عند الله، بما يسخط الله .

وقالت: خلال المكارم عشر، تكون فى الرجل، ولا تكون فى أبيه ولا فى ابنه، وقد تكون فى العبد، ولا تكون فى سيده، يقسمها الله لمن أحب: صدق الحديث، ومداراة الناس، وصلة الرحم، وحفظ الأمانة، والتذمم للجار، وإعطاء السائل، والمكافأة بالصنائع، وقرى الضيف، والوفاء بالعهد، ورأسهن كلهن الحياء .

ومن نفيس قولها فى معالى المكارم: رأسُ مكارم الأخلاقِ الحياءُ .

ولها فى الألفة والإيلاف قولها: جُبِلَتِ القلوب على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها .

ومن روائع أقوالها: إن لله خلقًا قلوبهم كقلوب الطير كلما خفقتِ الريح خفقت معها، فأف للجبناء، فأف للجبناء .

وفى صدق الطاعة تقول: من أرضى الله بإسخاط الناس كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن أرضى الناس بإسخاط الله، وكَّلَهُ الله إلى الناس .

ومن بدائع أقوالها فى الناس ومعرفة كنههم ما كانت تقول: كل شرف دونه لؤم، فاللؤم أولى به، وكل لؤم دونه شرف، فالشرف أولى به .

الصديقة وبنات حواء:

للمرأة نصيب كبير عند أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، إذ أنها لم تترك بابًا من الأبواب المفيدة إلا طرقته، وأبدعت فيه، وفى ثنايا حياة أمنا عائشة نلمح عنايتها بالمرأة فى مراحل حياتها، فهناك عناية بالفتيات، وعناية بالنساء المتزوجات، كما نلمح توجيهاتها لكل فئات النساء فى كل الأعمار، وهذا إذا دل على شىء فإنما يدل على أن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها تريد من المرأة أن تكون مفتاح خير فى مسارات الحياة ومساربها، وعونًا للرجل على المضى فى طاعة الرحمن، ليصلان إلى الجنة التى أوعد الله بها عباده المتقين...

إننا نلمح أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها تنصح الرجال أولاً فى حسن اختيار المرأة، والبحث عن فضائلها قبل الإقدام على الزواج، كما تنصح الآباء فى البحث أيضًا عن الزوج الوفى الكريم الكفء، وفى هذا المجال تقول: النكاحُ رَقّ فلينظر أحدكم عند من يُرق كريمته .

وتوصى كذلك الآباء والأمهات بمراعاة شعور الفتيات الصغيرات فتقول: اقدُرُوا قدْرَ الجارية الحديثة السن التى تسمع اللهو .

كانت عائشة رضى الله عنها تنصح النساء المتزوجات أن يأخذن شيئًا من الزينة لأزواجهن، وسُمِعَت تقول لإحداهن: إن كان لك زوج فاستطعتِ أن تنزعى مقلتيك، فتصنعينها أحسن مما هما فافعلى وكانت ترشد النساء إلى ألوان الطيب، فهذه إحدى النسوة تدخل عليها وتسألها عن الحناء، فتجيبها عائشة رضى الله عنها إجابة رائعة: شجرة طيبة، وماء طهور .

لم تنطق عائشة رضى الله عنها بنصائحها هذه عن عبث، بل كانت هى نفسها قدوة صالحة للمرأة المثالية التى عناها رسول الله ﷺ بقوله: الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة، إن نظر إليها سرته، وإن أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته فى نفسها ومالها .

ولكى تدوم المودة بين الرجل والمرأة، كانت عائشة تنادى بنات حواء إلى إيجاد المودة، وإلى زرعها فى قلب بيوتهن، تقول فى المجال: أميطى عنك الأذى وتصنعى

لزوجك كما تصنعين للزيارة، وإذا أمرك فلتطيعيه وإذا أقسم عليك فأبريه، ولا تأذنى فى بيته لمن يكره .

وكانت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها تكره أن ترى المرأة بلا عمل، بل كانت تحضُّ النساء أن يقمن بأعمال تعود عليهن بالخير والبركة والنماء، فنراها تلفت نظر بنات حواء إلى الاهتمام ببعض شئوون الحياة حتى يساعدن أزواجهن فى التغلب على مصاعب الحياة، وهاك قولها فى هذا: المغزل بيد امرأة أحسن من الرمح بيد المجاهد فى سبيل الله .

فهذه لفتة عائشية طريفة للنساء، كى يشغلن أنفسهن بما يعود بكبير النفع عليهن وعلى أولادهن وبيوتهن، وكانت تزرع الحماس والأمل والرجاء والثواب فى نفوس النساء اللاتى يعملن لأنفسهن ولأزواجهن ولأولادهن، فمما يروى عنها رضى الله عنها فى هذا المضمار، أنها رأت أثر المغزل فى يد امرأة فقالت لها عائشة رضى الله عنها: أبشرى بما لك عند الله عز وجل، لو رأيتن بعض ما أعد الله لكن معاشر النساء لما أقررتن ليلاً ولا نهارًا، أما من امرأة غزلت لزوجها ولنفسها ولصبيانها، إلا أعطاها الله عز وجل بيتًا فى الجنة، وما على ظهر الأرض تسبيح يعدل عند الله من صوت صرير يخرج من مغزل النساء!!!... أبشرن معاشر النساء بما لكن عند الله عز وجل بطاعتكن لبعولتكن وخدمتكن لأولادكن أنتن المسكينات فى الدنيا، والسابقات إلى الجنة مع الصالحات، يغفر الله لكن كل ذنب عملتن ما خلا الكبائر .

ولقد سئلت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها عن أفضل النساء فأجابت: هى التى لا تعرف عيب المقال، ولا تهتدى لمكر الرجال، فارغة القلب إلا من الزينة لبعلها، والإبقاء فى الصيانة على أهلها .

الصديقة ورحلة الخلود:

امتدت الحياة بأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بعد وفاة رسول الله ﷺ، قرابة نصف قرنٍ من الزمن، امتلأت فيها الدنيا علمًا ودينًا وأدبًا ومعرفة، وكانت حجرتها قبلة قصاد العلم، ومحبى الفقه والمعرفة، يقصدون نبع العلم عندها، ويروون منه تعطشهم إليه، فكانت رضى الله عنها موسوعة علمية ودينية لمن أراد المعارف، فقد

احتاج إليها خاص الأمة وعامتها، فكانت تهدى الحائر، وتعلم الجاهل، وترشد الطالب إلى الفضائل، وتشد أزر العالم، وظل الناس على اختلاف طبقاتهم ــ الخلفاء الراشدون، فمن دونهم ــ يقبلون ليأخذوا المعرفة عنها، ويزورون النبى ﷺ الذى كان مرقده الشريف فى حجرتها، فأضحت حجرتها مقصد المشتاقين، وروضة المحبين، وموئل العارفين، ومعقد رجاء المؤمنين، ومجمع الأبرار المخلصين...

وفى شهر رمضان من السنة السابعة والخمسين للهجرة وقيل ثمان وخمسين، ألم المرض بأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، وكانت وصيتها أن تدفن بالبقيع مع أمهات المؤمنين وأهل بيت رسول الله ﷺ.

عن عروة بن الزبير أن عائشة رضى الله عنها قالت له: إذا أنا مت فادفنى مع صواحبى فى البقيع وكان فى بيتها موضع، وقالت: لا أرى به أبدًا وفى ليلة الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شهر رمضان، توفيت أم المؤمنين عائشة، وصعدت روحها إلى ربها راضية مرضية، ولما سمعت أم المؤمنين أم سلمة الصرخة على عائشة قالت: والله لقد كانت أحب الناس إلى رسول الله ﷺ إلا أباها .

ودفنت من ليلتها بعد صلاة الوتر وهى يومئذ ابنة ست وستين سنة وقدم أبو هريرة ﷺ فصلى عليها، فاجتمع الناس، ونزل أهل العوالى، وحضروا جنازتها، فلم تر ليلة أكثر ناسًا منها.

ومن الجدير بالذكر، أنه نزل خمسة من محارمها فى قبرها وهم: عبد الله بن محمد ابن عبد الرحمن بن أبى بكر، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر، والقاسم بن محمد، وعبد الله وعروة ابنا الزبير بن العوام، ولما توفى رسول الله ﷺ كان عمر عائشة ثمان عشرة سنة.

وفى البقيع، يثوى جثمان أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها إحدى نساء أهل البيت الذى أذهب الله عنه الرجس وطهره تطهيرًا، وإحدى نساء الدنيا فضلاً وعلمًا وجودًا وسخاء وحسبًا ونسبًا...

وقبل أن نقول وداعًا، فلا يحسبن الذين يقرءون سيرة أمنا عائشة أنا أحطنا بسيرتها خُبْرًا، فذلك ما لا يقدر عليه، ولكنا حاولنا أن نبرز دورها العلمى فى مجال

نساء أهل البيت النبوى الطاهر الكريم، وإبراز شخصيتها الأدبية والاجتماعية لتكون لنسائنا أسوة حسنة يقتدين بها، نرجو الله عز وجل أن يوفقنا لما فيه الخير والسداد فى أقوالنا وأعمالنا، وأن يلهمنا أن نتبع نهج أهل البيت وهديهم، وأن يحشرنا فى معيتهم وأن يعفو عنا، ويعتق رقابنا من النار، إنه سميعٌ بصيرٌ غفار.

أم المؤمنين
حفصة بنت عمر رضى الله عنها

صوامة، قوامة، تقية، نقية، من أهل الجنة.

تلميذة نجيبة فى مدرسة نساء أهل البيت، وقد روى عنها ستون حديثًا.

فقيهة عالمة من عالمات نساء النبى ﷺ.

كانت من الكاتبات، وكانت حارسة للقرآن الكريم، ولها أثر كريم فى جمع القرآن العظيم.

فضائلها كثيرة ومناقبها جمة وتوفيت بالمدينة سنة (٤٥هـ).

أم المؤمنين
حفصة بنت عمر رضى الله عنها

طِيْبُ عرْفِ العُوْد:

هل نستطيع أن نهمس فى أذن الجوزاء لنقول: «إن سيدتنا اليوم تنتظم فى عقد أهل البيت الذى أذهب الله عنه الرجس وطهره تطهيرًا؟».

ومن تكون أمنا هذه التى نرصع كتابنا بذكرها ونمتع الأسماع بسيرتها وسيرة من انتظمن فى العقد الفريد... العِقد النبوى تحت ظلال بيت النبى ﷺ الشريف؟.

قبل أن نفصح عن شىء من سيرتها، لا بد لنا أن نعرف أن أباها معروف بطيب عرف عُودِه، ثابت الأصول فى الحسب والنسب، معروف عند الخاص والعام... ومن منا لا يعرف الذى لا تطيب المجالس إلا بذكره؟ ولا تحسن السير إلا بصحبته؟.

ذلكم هو عمر بن الخطاب ﷺ، والد أمنا اليوم، ومن نعيش أرغد اللحظات فى استجلاء سيرة حياتها، وحياة أهل البيت النبوى الكرماء، فما أمتع اللحظات التى نقضيها مع سير أعلام النبلاء!!! مع سيرة أم من أمهات المؤمنين رضى الله عنهن أجمعين.

هذه الكريمة ابنة الكريم، النبيلة ابنة النبيل، اختصتها أم المؤمنين عائشة بقولها: «هي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ»[(١)] ولم تكن أم المؤمنين عائشة لتخلع هذا الثناء عليها من أجل الثناء فحسب، بل لأنها كانت من النسوة اللاتي ذهب الدهر بمقالاتهن، وعرف مقاماتهن فضلاً ودينًا وصيانة وورعًا، عندما بدأ الحافظ أبو نعيم الأصبهاني رحمه الله في ترجمتها، قدم لها بقوله: «الصوامة القوامة المزرية بنفسها اللوامة، وارثة الصحيفة الجامعة للكتاب»[(٢)].

وهل هناك منزلة أرفع في العبادة من الصلاة والصيام؟! وهاتان الصفتان من أخص صفات أمنا في هذه الصفحات.

إذن فحديثنا سيكون عن واحدةٍ ممن شملتهن العناية الإلهية، فارتقين إلى سدة أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، وهي كما ذكرها الذهبي رحمه الله «حفصة أم المؤمنين، الستر الرفيع بنت أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنها وعنه»[(٣)].

وعمر بن الخطاب ﷺ هو الرجل الثاني في الإسلام، والخليفة الثاني، والوزير الثاني بعد سيدنا أبي بكر الصديق رضوان الله عليه:

ومن بعده الفاروق لا تنس فضله ... لقد كان للإسلام حصنًا مشيدًا

لقد فتح الفاروق بالسيف عنوة ... جميع بلاد المسلمين ومهدا

وأظهر دين الله بعد خفائه ... وأطفأ نار المشركين وأخمدا

أنسام رغيدة مع السابقين:

الحياة حلوة رقيقة متدفقة بعطائها مع قصص السابقين الأولين والسابقات إلى دوحة الإيمان الباسقة هؤلاء هم الصفوة المختارة من أصحاب رسول الله ﷺ، أولئك الذين عمرت قلوبهم بمحبته واتباعه، وعرفوا الله عز وجل عن طريقه فاستضاءت نفوسهم به، واستنارت عقولهم بهديه، وفاءت قلوبهم إلى ذكره آناء الليل وأطراف النهار.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٧).

(٢) حلية الأولياء (٢/ ٥٠).

(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٧ - ٢٣١) الإصابة (٤/ ٢٦٤) الاستيعاب (٤/ ٢٦٨).

فمن هؤلاء الذين سبقوا إلى دوحة الإيمان، حفصة بنت الفاروق عمر رضى الله عنهما، فقد نشأت، ونشأ معها حبها للإسلام، ومنذ أن عرفت الحياة رأت الإسلام يضىء من حولها، ويفيض بأنواره على البيت العُمَرِى الذى غدا البيت الثانى الصديقى البكرى بيت أبى بكر الصديق فى أم القرى ومن حولها.

رأت حفصة أباها وهو يجهر بإسلامه، ورأت أخوالها أبناء مظعون، وهم من سادات الصحابة، كما رأت عمها زيد بن الخطاب أحد فرسان مدرسة النبوة، ورأت عمتها فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد، رأت هؤلاء جميعًا يهتدون بهدى نور النبوة الذى حفهم بسنائه، وأضاء قلوبهم بصفائه، فهانت أمامهم مصاعب الدنيا وزهدوا بزخرفها، لأنهم نظروا فرأوا أن الآخرة خير وأبقى...

تفاعلت حفصة رضى الله عنها مع هذه البيئة النقية الطاهرة، ورأت الفيوضيات الإلهية تكتنف أباها الذى كان يرى فى ابنته حفصة سرًّا لم يستطع أن يكتشفه وهو فى مكة، فقد كان يشعر نحوها بعطف أبوى دفاف واحترام فائق يحمل بين جوانحه شعور التقدير.

بلغت حفصة سن الزواج، فتقدم لخطبتها أحد أشراف بنى سهم، وهو خُنيس بن حذافة السهمى وكان أحد أفذاذ السابقين الأولين إلى الإسلام، أعلن إسلامه مبكرًا قبل دخول النبى الكريم ﷺ دار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى، وكان إسلامه قد تم على يد شيخ الصحابة وسيدهم: «سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ وحشرنا فى معيته».

تم زواج حفصة بنت عمر من خنيس بن حُذافة، وفرح عمر ﷺ بهذا الزواج الميمون، وبهذا الصهر الكريم، وأخذ الزوجان المؤمنان يتابعان حياتهما بصبر وثبات متمسكين بمنهج الدين القويم، ولكن جموع فجار المشركين فى مكة، غصت حلاقيمهم وشرقت لإسلام هذه النخبة الممتازة من صفوة المجتمع القرشى ومن شبابهم خاصة، وراحت تصب أذاها وغضبها على كل من تقدر عليه وأخذت تعارض الدعوة بكل سبيل، وإذ ذاك أخذت جموع المسلمين تتوجه نحو الحبشة فرارًا بدينهم فى كنف عدل ملكها الذى لا يظلم عنده أحد...

كان خُنيسُ بن حذافة فى مقدمة المهاجرين إلى الحبشة، وكان فى الثُّلة التى هاجرت وتركت أرض مكة لتنشر الإسلام فى الحبشة، وتنجو من عذاب المشركين، لكن فترة إقامته لم تطل، وهزه الشوق إلى رسول الله ﷺ، وتذكر البيت العتيق، وراحت الذكريات تراود ذهنه صباح مساء، فلم يقو على الصبر والبقاء فى أرض الحبشة، فشد رحاله وعاد إلى مكة، ومن ثم جاء الأمر الإلهى بالهجرة إلى عرين الأنصار فى المدينة المنورة.

صحب خُنيس زوجه المؤمنة الصابرة حفصة بنت عمر، وانطلقا مهاجرين إلى المدينة المنورة، وهنالك استقبله أحد الأخيار، وهو رفاعة بن عبد المنذر، الذى أكرم مثواه وأحسن نُزُلَه.

ولما تمت هجرة المؤمنين، هاجر النبى ﷺ ولحق بأصحابه فى المدينة، وهنالك آخى بين أصحابه، وكان أخو خنيس فى الإسلام أحد فرسان الأنصار، وأحد الفدائيين الأخيار ويدعى أبو عَبْس بن جبر الأنصارى.

سر خنيس وأبو عبس بهذه المؤاخاة، فكلاهما فارس من فرسان المدرسة المحمدية، ومتخرج فى مدرستها، وهذا يعد خنيس ﷺ من أصحاب الهجرتيين: إلى الحبشة، ثم إلى المدينة المنورة.

زَوْجُ الشَّهِيد:

كانت حفصة وخنيس رضى الله عنهما يتلقيان أحكام الإسلام فى المدينة المنورة، وينعمان بظله، فحفصة رضى الله عنها قد تابعت حياة العلم، فأخذت تحفظ ما يتنزل به الروح الأمين على رسول الله ﷺ، وتعيه، وتفكر فى معانى القرآن الكريم تفكيرًا رفعها إلى مصاف العابدات العالمات.

أما زوجها خنيس بن حذافة، فقد راح يرقب تحركات المشركين الذين أخذوا يثيرون الشغب على المسلمين، ويعد نفسه ليوم المواجهة مع المشركين، والجهاد فى سبيل الله حق جهاده، وأطلت السنة الثانية لهجرة النبى ﷺ إلى المدينة المنورة، وحان يوم الانتصاف من كفار قريش، فخرج النبى ﷺ فى رمضان يعترض قافلة لقريش راجعة من الشام، فيها تجارتهم وأموالهم، لكن القافلة نجت، ورأت قريش أن تتخذ تلك

الحادثة ذريعة لاستئصال المسلمين، فراحت تعد العدة لقتال المسلمين فى بدر، وأقسم زعيم فجار الكفار أبو جهل بن هشام قائلاً: «والله لا نرجع حتى نرِد بدرًا، فنقيم عليه ثلاثًا، فننحر الجُزُر، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها».

سار المشركون نحو بدر، وهناك خرج المسلمون بقيادة الحبيب المصطفى ﷺ، وكان من بين جنود الرحمن خنيس بن حذافة زوج حفصة رضى الله عنهما، فقد خرج ابتغاء مرضاة الله عز وجل، ومرضاة رسوله ﷺ وشاركه شرف الخروج نفر من أهل حفصة وأقربائهم وهم: أبوها عمر بن الخطاب، وعمها زيد بن الخطاب، وأخوالها: عثمان وعبد الله وقدامة بنو مظعون، وابن خالها: السائب بن عثمان بن مظعون، فيكون سبعة رجال من أهل حفصة شاركوا فى غزاة بدر، ونظموا فى عقد البدريين الذين قيل لهم: «اعملوا ما شئتم فقد وجَبَتْ لكم الجنة»[1] وكانوا من خيار المسلمين.

وجاهد خنيس ﷺ فى معركة بدر حق الجهاد ولم يكن من بنى سهم غيره فى فريق المسلمين وقاتل قتالاً شديدًا أغاظ به المشركين، إذ خاض فى صفوفهم ومزقها، وراح أبطال المسلمين وفيهم فتى الفتيان وفارس الميدان على بن أبى طالب، وفتى قريش وأسد الله ورسوله حمزة بن عبد المطلب، يقاتلون المشركين قتالاً أدخل الرعب فى قلوبهم، فخر من هوله صناديدهم بين قتيل وجريح وأسير.

كان خنيس يرى بسالة فرسان المسلمين وشجاعتهم فيزداد اندفاعًا وإقدامًا، وشاهد أسد الله وأسد رسوله يمشى إلى الكفار، وقد أطل من حد حسامه المنون، فما أن يرى صناديدهم ريشة النعام التى فى صدره حتى تنخلع قلوبهم، فقد بدأ المعركة بقتل عدد من أسيادهم منهم: عتبة بن ربيعة العبشمى، والأسود بن عبد الأسد المخزومى، وعقيل ابن الأسود وغيرهم.

أما خنيس بن حذافة ﷺ فقد راح يقاتل بضراوة وبسالة، حتى أصابته سيوف المشركين فى مواضع من جسمه، وانبعثت الدماء دفاقة من جراحه وهو ثابت ثبات

---

[1] رواه البخارى (٣٧٦٢).

الرواسى يقاتل مع المسلمين حتى الرمق الأخير، وحتى ولى المشركون الأدباء منهزمين، وهم لا يلوون على شىء، ترهقهم ذلة، وتغشى وجوههم علامات الاضطراب والخوف...

وعندئذٍ وضعت الحرب أوزارها، ولما تغب شمس ذلك اليوم، وفرح المؤمنون بنصر الله عز وجل، فقد تم القضاء على عتاة الشرك وأئمة الضلال كأبى جهل بن هشام، وعتبة وشيبة ابنى ربيعة، وأمية بن خلف، وغيرهم ممن لاقوا حتفهم فى بدر، وغرقوا فى طوفان الخزى ولجة النيران تحت التراب، والحجارة، وقذفوا فى قليب بدر جيفًا منتنةً، وتلك نهاية الظالمين وعاقبة المعتدين.

أقام رسول الله ﷺ ثلاثة أيام فى بدر، ريثما يسترد المسلمون نشاطهم، وكان النزف قد توقف من جراح خنيس، وها هو ذا يسير فى ركاب رسول الله ﷺ ومن معه تخفق على رءوسهم رايات النصر، وفى المدينة أخذ سهمه من الغنائم، وعاد خنيس إلى زوجه حفصة التى تلقت أنباء النصر الإلهى من قبل، وأثنت على زوجها الذى عاد وآثار الجهاد على جسمه، تشهد له لا عليه، وربما حدثها خنيس عما لاقوه من العناية الإلهية فى هذه الغزوة المباركة.

نزل القرآن الكريم يشرح خطوات تلك المعركة، وقرأت حفصة سورة الأنفال، ولعلها قد توقفت كثيرًا عند قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال: ١٠) وفرحت حفصة بنصر الله، وراحت تعالج جراح زوجها، فقد أخذت تنتقض عليه وتؤثر فى صحته، فلم تمض سوى أيام قلائل حتى أسلم رحه إلى بارئها، ومات خنيس ﷺ متأثرًا بجراحاته وكتب فى قائمة الشهداء الذين هم أحياء عند ربهم يرزقون، ولما علِمَ رسول الله بوفاة خنيس، صلى عليه، وأمر أن يدفن فى البقيع إلى جانب السلف الصالح عثمان بن مظعون خال حفصة رضى الله عنهم أجمعين، حزنت حفصة حزنًا شديدًا على زوجها خنيس الذى قضى نحبه بعد زواج لم يطل كثيرًا، ولكن أمر الله كان قدرًا مقدورًا ولا راد لحكمه، فهو العليم الخبير...

أسلمت حفصة أمرها إلى الله عز وجل، واستسلمت لقضائه الذى لا مرد له، وانصرفت لعبادتها وصلتها مع الله عز وجل واستقرت فى بيت أبيها محتسبة صابرة، وقد واصلت طاعة الليل بعبادة النهار، لعل الله يجبر كسر قلبها، فقد ترملت وهى فى ربيعها الثامن عشر تقريبًا.

حَفْصَةُ وسُنَّةٌ عُمرِيّةٌ حَسَنَةٌ:

بقيت حفصة أرملة بضعة أشهر، وكانت بوادر الذكاء ظاهرة على قسمات وجهها، تلفها مسحة من الحزن مرتسمة على محياها وبادية على تصرفاتها، ولم تخف علامات الحزن على العبقرى الذكى عمر الذى كان ينظر بعينه اللماحة، ويبصر بنور فراسة المؤمن إلى ما تعانيه حفصة ابنته من ألم وضيق، ولكنه كان يشعر بالسرور يغمر أرجاء نفسه حينما يلحظ تعلقها بالعبادة، وصلتها بالصلاح ومحامد المكارم.

كان الحبيب المصطفى ﷺ يسأل عن أحوال أصحابه، وعن شئونهم، ولا شك فى أنه عرف ما حل بحفصة زوج الشهيد خنيس، وابنة صديقة عمر بن الخطاب، وأنها ولا ريب تقضى فترة العدة حدادًا على زوجها، وقد رثى لحالها.

ويبدو أن أبا بكر الصديق ﷺ، وهو الصديق الصدوق، قد لاحظ أن رسول الله ﷺ يعرض بخطبة حفصة لتدخل رحاب البيت النبوى ولتغدوا إحدى أمهاته اللاتى أذهب الله عنهن الرجس، وأكرمهن ومنَّ عليهن بالطهارة، لكن سرَّ رسول الله ﷺ سيحفظ فى صدر الصديق أبى بكر ولن يطلع عليه أحد من العالمين.

أحب الفاروق عمر أن يسن سنة حسنة فى المجتمع الإسلامى، فأخذ يبحث عن منبع السعادة لابنته حفصة بطريقة لعلها تكون جديدة على الصحابة الكرام ولكنها منطقية، فيها دفء الإسلام، وصدق الجنان، وفيها كل معانى الخير والصلاح...

وأخذ الفاروق ﷺ يفكر فى الطريق الذى تثمر فيه فكرته التى برقت فى ذهنه منذ فترة، فوجد أن أقرب الأساليب لتحقيقها أن يفاتح أحبابه وأصحابه بما يعتمل فى صدره، وبما يجول فى خاطره.

نظر عمر ﷺ إلى صديقه عثمان بن عفان، فإذا بعثمان يتلوى من الألم والحزن على فراق زوجه رقية ابنة رسول الله ﷺ، وتكاد نفسه تذوب حزنًا على موتها، وإن

بين ضلوعه نارًا تتلظى، وفى الحلق جفاف، وفى القلب سهام على رحيل ابنة الحبيب المصطفى ﷺ الوفية الكريمة.

رفرفت على شفاه عمر فكرة أيمسح آلام عثمان بن عفان بأن يعرض عليه ابنته حفصة لتكون زوجة له، وهو يعلم علم اليقين أن حفصة ليست كرقية بنت النبى ﷺ، ولكنه آثر أن يبعد عنه وحشة الوحدة، ولما قويت فى ذهنه هذه الفكرة، تعرض لعثمان ﷺ وعرض عليه ــ بعد أن واساه برقية ــ وقال له: «إن شئت أنكحتك ابنتى حفصة!».

ويظهر أن عثمان ﷺ قد هزته هذه المفاجأة، ولكنه أجاب عمر إجابة شافية فقال: «سأنظر فى أمرى».

ولبث عمر بضعة أيام، ثم لقى عثمان ثانية، وذكره بزواج حفصة، فقال عثمان: «دعنى يا بن الخطاب، فقد بدا لى أن لا أتزوج فى يومى هذا».

وشعر عمر بن الخطاب إذ ذاك بضيق فى صدره وحزن فى أعماقه، ووجد فى نفسه شيئًا من عثمان لأنه رفض ابنته العابدة القانتة، وربما عذر عثمان، فحزنه على زوجه رقية لا يزال يحز بنفسه، ويرسم بقلبه الأسى واللوعة.

مكث عمر أيامًا يفكر بمن يعرض عليه ابنته، فإذا به يلتقى الصديق، ومن كان الصديق؟ إنه نعم الصديق، ونعم العون على المصاعب، وربما يجد عنده السعادة لابنته حفصة، فتقدم منه وقال له: «يا أبا بكر، إن شئت زوجتك حفصة بنت عمر».

وصمت أبو بكر ﷺ بعد أن ارتسمت على شفتيه ابتسامة رقيقة رفيقة بعمر، ولكن عمر وجد عليه أكثر من عثمان، وتأثر من موقف هذين الصديقين اللذين أحب أن يكونا عونًا على ما حل به وبابنته، وحسب أنه قد أسدى إليهما معروفًا يزيد من رصيده عندهما.

إلا أن عمر ﷺ لم يتوقف عند ذلك الحد، وأحب أن يبث حزنه إلى حبيبه محمد، وذهب إلى المصطفى ﷺ، وشكى حاله، فقال له رسول الله ﷺ مواسيًا متبسمًا: يتزوج حفصة من هو خير من عثمان ويتزوج عثمان من هو خير من حفصة [1].

---

(١) رواه البخارى (٥١٢٢) أحمد (١/ ١٢).

ومضت أيام فإذا النبى يزوج عثمان ابنته أم كلثوم بعد وفاة أختها رقية وبرقت فى ذهن عمر فكرة ندية حقًّا إن أم كلثوم خير من حفصة!!! ولكن من هو خير من عثمان؟.

وأشرقت فى نفس عمر بارقة أمل رفيقة، أيكون الرسول ﷺ خيرًا من عثمان؟! ويكون هو هو الذى يشرف حفصة بالزواج؟!.

أتكون حفصة زوجًا له؟ إن رسول الله ﷺ يتزوج بوحى إلهى وهو والله خير من عثمان ومن عُمر وآل عمر.

وجاء ما بنفس عمر، فقد خطب رسول الله ﷺ ابنته حفصة، ثم تزوجها، وارتقت إلى شرف لا يدانيه شرف إذ أضحت من أمهات المؤمنين ونساء أهل البيت الخيرات، وهذا ما جعل عمر ﷺ يسعد بهذا النسب الزاكى وبالحسب الطاهر الميمون.

وفى هذه الواقعة اللطيفة يقول سعيد بن المسيب رحمه الله ـ وهو أحد كبار فقهاء التابعين ـ: «فخار الله لهما جميعًا، كان رسول الله لحفصة خيرًا من عثمان وكانت بنت رسول الله ﷺ لعثمان خيرًا من حفصة».

وبرز الصديق أبو بكر ﷺ ليعتذر من عمر قائلاً له: «لا تجد علىَّ يا عمر، فإن رسول الله ﷺ قد ذكر حفصة، فلم أكن لأفشى سر رسول الله ﷺ، ولو تركها، لتزوجتها»[1].

وعندها ظهر لعمر مقام سيدنا أبى بكر، وأوليته فى الوفاء والصدق، وصون سر رسول الله ﷺ، وأدرك الحكمة البلاغية من هذا الزواج الميمون، وحمد الله عز وجل، ولعله هتف قائلاً: ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ (النمل: ٤٠).

وطفق عمر ﷺ يثنى على الله عز وجل بما هو أهله، ويكثر من الشكر لله، فقد مَنَّ عليه وعلى ابنته بالنبى المصطفى ﷺ، الذى أخرجهم من الظلمات إلى النور، وأكرمه وابنته، فقد صار ﷺ زوجًا لحفصة العابدة القانتة...

---

(١) رواه البخارى (٥١٢٢).

كان هذا الزواج المبارك على الراجح سنة ثلاث من الهجرة النبوية وكانت حفصة إذ ذاك قد ختمت العقد الثانى وقاربت العشرين من عمرها.

ومع نهاية هذه الفقرة الجميلة تعالوا نقرأ هذه التغريدة الجميلة التى تحكى القصة الحفصية قصة عرض عمر ابنته على أهل الخير:

عن ابنة الفاروق حفصة فلنكن متحدثين
قد مات عنها زوجها السهمى موت المسلمين
قد كان هذا بعد بدر غزوة النصر المبين
عمر يقول لصحبه عنها كقول الخاطبين
فأتى إلى عثمان يسأله بأسلوب أمين
خذ ابنتى لك زوجة هى من خيار المخلصين
فأجابه عثمان لست لكل أمرى مستبين
ويقول للصديق هيا فلنكن متصاهرين
إن شئت زوجًا هاك حفصة ذاك إخلاص ودين
فأجابه الصديق بالصمت المحير لا يبين
فأحس عمر بالأسى من صاحبيه لقد أهين
علم النبى بما جرى بين الصحاب المكرمين
فيقول للفاروق قولاً أذهب الحقد الدفين
الحل عندى فاسترح لا لا تكن فى العاتبين
ستكون حفصة زوجتى من أمهات المؤمنين
عثمان يأخذ ابنتى هذا هو الرأى الثمين
فأكون صهركما معًا، هذا هو الحل المتين

حفصة والوصية العمرية:

عندما دخلت حفصة البيت النبوى زوجة كريمة لرسول الله ﷺ، عَمِلَتْ جهدها لتكسب مرضاة الله عز وجل، ومرضاة رسول الله ﷺ، وبذلت من الرصانة والتقوى وحب المعرفة، ما أحلها محلاً كريمًا لدى النبى الكريم ﷺ، فقد كانت فى عصمته

ورعايته، يفيض عليها من عطفه ومودته ما جعلها تخطو فى العلم والتقوى خطوات عظيمة جعلت منها تلميذة نبوية نجيبة، وكانت حفصة تعمل لتصل إلى درجة الصديقة عائشة فى العلم واكتساب رضى النبى الكريم ﷺ.

ظلت وصية عمر رضي الله عنه ماثلة أمام عينى حفصة بألا تزاحم الصديقة بنت الصديق فى شىء، وحاولت حفصة بوسعها أن تنفذ هذه الوصية بخذافيرها، وكان عمر يتفقد أحوال حفصة من حين لآخر، ويراقب سلوكها فى البيت النبوى الطاهر.

كانت حفصة رضوان الله عليها تدرك أنها ليست فى درجة عائشة فى العلم، وتدرك أن عائشة قد سبقتها إلى قلب النبى ﷺ، وسبقتها بعلمها وفطنتها وإدراكها، ولهذا كله لزمت حفصة الوصية العمرية، وأحبت أن تكون فى صف عائشة رضوان الله عليها وفى معيتها.

وفى غضون السنوات القليلة القادمة، وفدت إلى البيت النبوى الطاهر زوجات أخريات، وانتظمن فى بيت النبوة إلى جانب حفصة وسودة وعائشة وَصِرْنَ أمهات للمؤمنين، فلم تبق الأمور على ما كانت عليه، ويبدو أن شيئًا من الغيرة قد تسللت إلى نفس حفصة، ووجدت فيها بعض الضعف البشرى، فكان رسول الله ﷺ يعالج بحكمته تلك الأمور علاجًا رفيقًا رقيقًا كمس الندى للزهر، وكالأم الرءوم لرضيعها الوحيد، حتى لا يتعكر صفو الحياة، وتفسد الحياة الزوجية.

لا تُرَاجِعى رَسُول الله ﷺ:

قلنا: إن عمر رضي الله عنه كان يهتم بأمر النبى الكريم ﷺ، ويعمل على مرضاته بكل سبيل، وكان ينقل شعوره هذا إلى ابنته حفصة أم المؤمنين رضى الله عنها، ولكن حفصة وأمهات المؤمنين عشن فى كنف رسول الله ﷺ الذى كان يعاملهن معاملة رفيقة رقيقة رقة النسيم الربيع لم تكن عند أحد من الصحابة الكرام رضى الله عنهم، وربما تعجب أحدهم وتملكه الدهش من تلك المعاملة الندية لأمهات المؤمنين اللواتى يراجعن رسول الله ﷺ أحيانًا فى بعض الأمور، ويسألنه عن بعض الآيات أو الأحكام أو الأمور الفقهية، وما شابه ذلك، فكان يجيبهن بحكمة تناسب سؤالهن على وجه الاسترشاد والتعليم .

فى مثل هذه الأمور وردت أحداث وأمور فى حياته ﷺ مع زوجاته الطاهرات، ومع أصحابه الكرام، أو من كان يفد عليه، وكانت حفصة أم المؤمنين رضى الله عنها ممن استرشدت الحبيب الأعظم ﷺ فى بشارته الشجريين بالجنة.

أخرج الإمام مسلم رحمه الله بسنده إلى جابر بن عبد الله الأنصارى ﷺ قال: أخبرتنى أم مبشر أنها سمعت النبى يقول عند حفصة: لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد، الذين بايعوا تحتها .

قالت: بلى يا رسول الله فانتهرها.

فقالت حفصة: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ (مريم: ٧١) فقال النبى ﷺ: قد قال الله عز وجل: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ (مريم: ٧٢)[١].

والذى يظهر أن هذا الخبر قد انتشر بين نساء المدينة، وعلمت به نساء النبى ﷺ، ونساء الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وعرفن ما جرى بين النبى ﷺ وبين حفصة، وكيف أرشدها إلى الفهم السليم الصحيح.

وفى يوم من الأيام، كان عمر بن الخطاب عليه سحائب الرضوان يحادث امرأته بحديث فيما بينه وبينها، واعترضت عليه فى أمر من الأمور، فكبُر عليه ذلك أن تعترض عليه، ورأى أن هذا التصرف غير عادى، وكاد ينزل غضبه بها لولا أن أخبرته أنها ليست وحدها التى تراجعه، وإنما هناك من هى أفضل منها تراجع من هو أفضل منه ابنته حفصة أم المؤمنين...

ويبقى رسول الله سائر يومه غضبان!!..!...

كان عمر يسمع كلام امرأته وهو شبه مذهول لما يتلقى، كأنها تحدثه بشىء من الخرافة، قال عمر فى نفسه: أتراجع حفصة رسول الله ﷺ؟ لا أكاد أصدق ما أسمع، لعل فى الأمر شيئًا؟! لم يتوقف عمر بعد أن سمع ما سمع من امرأته، ثم خرج مسرعًا نحو المسجد النبوى الشريف، ثم اتجه نحو بيت حفصة أم المؤمنين، فدخل عليها والغضب يبدو فى وجهه، ثم توجه إليها بالسؤال مستفهمًا فقال: يا بنية هل صحيح أنك تراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان؟! .

---

(١) رواه مسلم (٢٤٩٦) وانظر شرح النووى (١٦/ ٥٨).

فتجيب حفصة إجابة طبيعية: نعم يا أبتِ، والله إنا لنراجعه .

قال عمر: وهل تهجره إحداكن اليوم إلى الليل؟ .

قالت حفصة: نعم يا أبتِ تفعل إحدانا ذلك .

وعندها قال عمر بلهجة صارمة: تعلمين يا حفصة أنى أحذرك عقوبة الله عز وجل، وغضب رسوله، وقد خاب من فعل ذلك منكن وخَسرَ، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ؟! ثم أضاف عمر قائلاً وقد بين لها مكانتها ومكانها فى البيت النبوى: يا بنية لا يغرنك هذه ــ أى عائشة ــ التى قد أعجبها حسنها، وحب رسول الله ﷺ إياها، لا تراجعى رسول الله ﷺ وتسأليه شيئًا، وسلينى ما شئت وما بدا لكِ ثم إن سيدنا عمر ﷺ أخبرها بواقعة حالها من البيت النبوى وقال لها: والله لقد علمت أن رسول الله ﷺ لا يحبك، ولولا أنا لطلقك .

وصمتت حفصة رضى الله عنها، واستجابت لنصيحة والدها، وقد كانت سامعة مطيعةً لرسول الله ﷺ، ولكن لم تكن وحدها التى تراجع النبى ﷺ بأدب النبوة، وتؤدى ما عليها تجاه ربها وزوجها رسول الله ﷺ، وتجاه البيت النبوى الطاهر الذى أذهب الله عنه الرجس وطهره تطهيرًا.

حفصة ومارية وتوجيه قرآنى:

لما قدم سيدنا حاطب بن أبى بلتعة من سفارته الموفقة من مصر، كان بصحبته هدايا من المقوقس عظيم القبط، ومن بين الهدايا جاريتان لهما مكان عظيم فى القبط، هاتان الجاريتان هما: مارية وسيرين بنتا شمعون .

وبينما كان حاطب فى طريق عودته إلى المدينة المنورة، عرض الإسلام على مارية القبطية ورغبها فيه، ففتح الله على بصيرتها، ورأت محاسن الإسلام وفضائله، فأسلمت وشهدت شهادة الحق، وأسلمت كذلك أختها سيرين.

وفى المدينة المنورة اتخذ النبى ﷺ مارية سُرِّية له، وأنزلها فى بيتٍ لحارثة بن النعمان الأنصارى فكانت مارية على قرب من مسجد النبى ﷺ وقرب دور نسائه الطاهرات رضى الله عنهن.

أعاد وفود مارية القبطية فى هدايا المقوقس إلى رسول الله ﷺ، واصطفاؤها لنفسه ذكريات بعيدة، ذكريات ندية عبقة، ترشح برحيق القرآن الكريم، ذكريات إهداء ملك مصر فى الماضى البعيد، السيدة هاجر المصرية إلى إبراهيم خليل الرحمن وأبى الأنبياء عليه السلام إذ أضحت هاجر أم العرب لما أنجبتا إسماعيل عليه السلام أبا العرب، ومن يدرى فلعل مارية هذه تنجب غلامًا زكيًّا للحبيب المصطفى ﷺ؟!.

أما نساء النبى ﷺ فقد أخذن يرقبن هذه الوافدة الجديدة الجميلة التى قدمت من مصر، وكانت من أشدهن مراقبة لها: السيدتان عائشة وحفصة رضى الله عنهما، ولما كانت حفصة وعائشة صديقتين لا سر بينهما، فقد راحت كل واحدة منهن تبث للأخرى قلقها ومخاوفها من مارية التى أخذت جزءًا من اهتمام رسول الله ﷺ بها.

وذات يوم كان رسول الله ﷺ فى بيت أمنا حفصة رضى الله عنها، فاستأذنته حفصة فى زيارة أبيها ــ أو عائشة ــ فأذن لها، وحدث أن أتت مارية فدخلت بيت حفصة، وأقامت مع النبى ﷺ زمنًا وعادت حفصة من زيارتها فأبصرت مارية فى بيتها، فلم تدخل، وجعلت تنتظر خروجها، فلما خرجت، دخلت حفصة على النبى ﷺ وقالت له: لقد رأيت من كان عندك فى البيت ثم حملتها الغيرة على البكاء فقالت: يا رسول الله، لقد جئت إلى بشىء ما جئت به إلى أحد من نسائك، فى يومى، وفى بيتى، وعلى فراشى، والله لقد سببتنى، وما كنت لتصنعها لولا هوانى عليك .

ورأى الرسول الكريم ﷺ أن الغيرة ترتسم على وجه حفصة وتحتل صدرها، وأدرك أن هذه الغيرة قد تدفعها إلى إذاعة ما رأت، والتحدث به إلى صديقتها عائشة، أو إلى غيرها من أزواجه، فأراد إرضاءها بما يدفع غيرتها عن مارية، فقال لها: ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها ؟.

قالت حفصة: بلى يا رسول الله .

وحلف لها أن مارية عليه حرام إذا هى لم تذكر شيئًا مما رأت، وقال لها: لا تذكرى ذلك لأحد وو عدته حفصة أن تفعل ذلك، وألا تتحدث بحديث مارية لكن الغيرة لم تترك حفصة دون أن تحرك مكامن السر فيها، فلم تستطع كتمان ما وعدت، بل

انطلقت إلى صفيتها عائشة رضى الله عنهما، وقالت لها: لقد حرم رسول الله مارية على نفسه».

ويعتقد أن هذا الأمر لم يقف عند عائشة وحفصة، بل سرعان ما ذاع الخبر بين أزواج النبى ﷺ، ولعلهن جميعًا قد رأين أن مارية قد تبوأت مكانة رفيعة عند رسول الله ﷺ، فتابعن عائشة وحفصة حين ظاهرتا على النبى ﷺ على إثر قصة مارية المصرية وعرف رسول الله ﷺ أن حفصة لم تكتم عليه، وأنها أنبأت عائشة بأمر مارية القبطية، فلما أخبرها ببعض ما أسرته لعائشة تعجبت وقالت: من أنبأك هذا؟ قال: نبأنى العليم الخبير .

حفصة وتربية نبوية:

عندما علمت نساء النبى ﷺ خبر حفصة ومارية، رحن يخضن فى الحديث، ولجت بهن الغيرة أعظم لجاج، فكان لا بد لحفصة وضرائرها من درس نبوى فيه حزم، وفيه شدة، إلى أن تعود الأمور إلى نصابها، فأقسم ألا يجتمع بنسائه شهرًا كاملاً.

وصَعِدَ الحبيب المصطفى ﷺ إلى مشربة لن يرقى إليها بدرج، وينحدر منها عليه، وغلام له يقال له رباح قد وقف على باب الغرفة.

ظل النبى الكريم ﷺ بعيدًا عن نسائه شهرًا كاملاً، لا يكلم أحدًا فى شأنهن، ولا يجرؤ أحد من أصحابه أن يفاتحه فى حديثهن، حتى سرى الهمس ببين المسلمين أن النبى ﷺ مطلق أزواجه، بل لقد قيل: إن النبى ﷺ طلق حفصة بنت عمر بعد الذى كان من إفشائها ما وعدت أن تكتمه [1].

فى تلك الفترة، كانت أزواج النبى ﷺ مضطربات نادمات، وخصوصًا حفصة، فقد دفعتها الغيرة إلى إفشاء سر الزوج الرفيق بها وبنسائه...

وفى اليوم الذى أوفى رسول الله ﷺ الشهر الذى نذر فيه هجر نسائه، أقام المسلمون بالمسجد مطرقين ينكتون الحصى ويقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه ويأسون لذلك أسى يبدو على وجوههم، قام عمر بن الخطاب من بينهم، ودخل على ابنته حفصة وهى تبكى، فقال: أطلقكن رسول الله ﷺ؟ .

---

(١) رواه أبو داود (٢٢٨٣) ابن ماجه (٢٠١٦).

فقالت: لا أدرى، هو ذا قد اعتزلنا فى المشربة .

فقام عمر وقصد النبى ﷺ فى غرفته، ونادى غلامه رباحًا ليستأذن على رسول الله ﷺ.

انتظر عمر رضى الله عنها، ونظر إلى رباح يرومُ الجواب، فإذا رباح صامت لا يقول شيئًا، إشارة إلى أن رسول الله ﷺ لم يأذن، فكرر عمر النداء، ولكن رباحًا لم يجب مرة أخرى، وألح عمر بالإذن مرارًا، ولم يأت رباح بجواب، وعندئذ رفع عمر صوته قائلاً: يا رباح استئذن لى عندك على رسول الله ﷺ فإنى أظن أن رسول الله ﷺ ظن أنى جئت من أجل حفصة، والله لئن أمرنى رسول الله ﷺ بضرب عنقها، لأضربن عنقها... .

وساعتئذ قال رباح لعمر: ادخل فقد أذن لك .

فدخل عمر بن الخطاب ﷺ، وسلم على رسول الله ﷺ، ثم أجال عمر بصره فيما حوله، فرأى حصيرًا قد أثر فى جنب النبى ﷺ والغرفة لا شىء فيها إلا قبضة من شعير، وجلد معلق، فتأثر لما رأى وبكى، فقال رسول الله ﷺ: ما يبكيك ؟.

فذكر له عمر السبب وقال: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر، فيما فيه من النعيم وأنت رسول الله!...!...! .

ولما ذكر عمر ما أبكاه وأشجاه، أحب الحبيب المصطفى ﷺ أن يرده إلى طمأنينة الإسلام وجادة الصواب، وقال: أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة ؟! ثم علمه حقيقة الإعراض عن الدنيا، وأن الآخرة خير وأبقى، فقال: أوَفى شك أنت يا بن الخطاب؟ أولئك قوم قد عجلت لهم طبياتهم فى الحياة الدنيا فقالت عمر: أستغفر الله يا رسول الله [1].

ثم إن عمر ﷺ قال لرسول الله ﷺ مخففًا ومواسيًا ورحيق الإيمان ينضح من كلامه المفعم بالصدق: يا رسول الله، ما يشق عليك من أمر النساء، إن كنت طلقتهن فإن الله معك، وملائكته، وجبريل، وميكائيل، وأنا، وأبو بكر، والمؤمنون معك .

---

(١) رواه البخارى (٦/ ١٩٦) وانظر تفسير القرطبى (١٨/ ١٩١).

ثم طفق عمر ﷺ يحدث رسول الله ﷺ حتى زال عنه الغضب، وارتسم على وجهه الشريف الابتسام وضحك... ولما راى عمر ﷺ سرور النبى الكريم ﷺ وأنسه، ذكر له ما أمر المسلمين بالمسجد، وما يذكرون من طلاقه نساءه، فذكر النبى ﷺ أنه لم يطلقهن، ولم يحدث شيء من هذا، وإذ ذاك طار عمر فرحًا وقال: الله أكبر ثم استأذن رسول الله ﷺ أن يفيض بهذا الأمر إلى المسلمين المقيمين بالمسجد، فأذن له بذلك.

نزل عمر ﷺ من المشربة فرحًا مسرورًا، ونادى بأعلى صوته: لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه .

وأنزل الله عز وجل فى محكم التنزيل قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ﴾ (التحريم: ١ - ٥)[١].

وعند ذلك كفّر رسول الله ﷺ عن يمينه وثاب إلى نسائه رشادهن، وعاد إليهن وهن عابدات مؤمنات تائبات إلى الله عز وجل، وعادت إلى حياته البيتية السكينة، وخيم الاستقرار والصفاء على البيت النبوى الطاهر، وازدادت حفصة يقينًا بالله عز وجل، وازدادت بخلعة الإنعام التى أكرمها الله بشرف أمومة المؤمنين، وراحت ترقب كل ما يرضى رسول الله ﷺ، لكى تسارع إلى تلبيته ومرضاته وأحسب أنها كانت تقرأ دائمًا: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ﴾ (التحريم: ٥).

---

(١) رواه البخارى فى تفسير سورة التحريم، ومسلم (١٤٧٤).

فتسارع إلى اجتذاب رضاء النبى ﷺ عليها بكل ما تستطيع من سبيل.

زَهْرٌ من رياض شمائلها:

عاشت حفصة رضى الله عنها فى البيت النبوى الطاهر تمارس واجباتها على أكمل وجه، صوامة قوامة وبهذا جاءتها شهادة زاكية زكية، حملها جبريل الأمين عليه السلام إلى رسول الله ﷺ فيها كرامة ومكرمة لها.

قال جبريل عليه السلام عن حفصة أم المؤمنين: إنها صوامة، قوامة، وهى زوجتك فى الجنة وفى رواية: إنها صئوم قئوم، وإنها من نسائك فى الجنة [١] وقد شهد شاهد من أهلها بحسن صلتها بالله عز وجل بكثرة الصيام، فقد قيل: إنها ماتت حتى ما تفطر .

ومنذ نشأة حفصة فى بيت أبيها عمر، عرفت بين أترابها بذكائها، وفطنتها، ولما أشرف نور الإسلام على مكة، آمنت مع السابقات وهى فى سن مبكرة، مما ساعدها على تنمية مواهبها، فقد كانت حادة الذكاء محبة للتزود من المعرفة، وذات حافظة قوية، وكانت تحفظ ما تسمعه من آى الذكر الحكيم الذى كان يتنزل نديًّا على الحبيب المصطفى ﷺ ولذلك فإنها اشتاقت إلى معرفة الكتابة، فوافتها بذلك إحدى الصحابيات الفاضلات وشفت ما بنفسها، وعلمتها الكتابة، هذه المعلمة الكاتبة الفاضل تدعى: الشفاء بنت عبد الله العدوية القرشية، إحدى فضليات نساء قريش الكاتبات، أسلمت قديمًا وكانت من المهاجرات الأوليات اللاتى بايعن رسول الله ﷺ وكانت من علاقات النساء وفضلياتهن، وكان النبى الكريم ﷺ يزورها، ويقيل عندها، وكانت قد اتخذت له فراشًا وإزارًا ينام عليه.

ولما انتقلت حفصة إلى البيت النبوى ظلت الشفاء، رضى الله عنها، تتردد على أم المؤمنين حفصة رضى الله عنها، وذات يوم دخل النبى ﷺ على حفصة وكانت الشفاء عندها فقال لها: علميها رقية النملة كما علمتيها الكتابة .

وفى هذا جواز تعلم المرأة الكتابة، والالتفات إلى المعرفة، ولعله من الفائدة أن نشير إلى أن بعض نساء النبى ﷺ يعرفن القراءة أو الكتابة، فقد كانت الصديقة بنت

---

(١) رواه أبو داود (٢٢٨٣) وابن ماجه (٢٠١٦).

الصديق عائشة رضى الله عنهما تقرأ فى المصحف ولا تكتب، وكانت أم سلمة أم المؤمنين تقرأ ولا تكتب.

وكان هناك بعض الصحابيات الفاضلات ممن كن يعرفن الكتابة منهن: أم كلثوم بنت عقبة الأموية، ومن نساء عصر التابعين كانت عائشة بنت سعد بن أبى وقاص، تقول: علمنى أبى الكتابة وكذلك كريمة بنت المقداد، وغيرهن كثيرات، ممن كتبن أنصع الصفحات فى تاريخ النساء الوضىء وأثرين تاريخ المرأة المسلمة بألوان المعرفة وأنواع العلوم...

ولعل حفصة أم المؤمنين رضى الله عنها، كانت واحدة من مراجع الفقه فى العصر الراشدى، فقد كان عمر ﷺ يعود إليها ليسألها عن بعض الأحكام المتعلقة فى فقه المرأة المسلمة.

ولئن أبدعت حفصة رضى الله عنها فى مجال الفقه والعبادة والصلاح، لقد حلقت فى فضاء الأدب، وإن الآثار الأدبية التى وصلت إلينا عن أمنا حفصة تدل دلالة بينة على بيانها الناصع، وعلى ثروتها الأدبية ذات الروافد القرآنية والحديثية، وأعتقد أن أسلوبها الرائع ينم عن ملكاتها الأدبية التى جعلتها من ذوات الفصاحة، وربات البلاغة فى عصر النبوة، ولا أجد فى هذا المجال أبدع من قولها، عندما طعن عمر ﷺ إذ ورد أنها قالت: يا أبتاه، ما يحزنك وفادتك على رب رحيم، ولا تبعة لأحد عندك، ومعى لك بشارة، لا أذيع السر مرتين، ونعم الشفيع لك العدل، لم تخف على الله عز وجل خشنة عيشتك، وعفاف نهمتك، وأخذك بأكظام المشركين والمفسدين فى الأرض .

وقد ورد أن أمنا حفصة رضى الله عنها، خطبت بعد استشهاد أبيها عمر خطبة فى غاية الفصاحة نورد منها قولها: الحمد لله الذى لا نظير له، والفرد الذى لا شريك له، أما بعد: فكل العجب من قوم زين الشيطان أفعالهم، ونصب حبائله لختلهم، حتى هم عدو الله بإحياء البدعة، ونبش الفتنة، وتجديد الجور بعد دروسه، وإظهاره بعد دثوره، وإراقة الدماء، وإباحة الحمى، وانتهاك محارم الله عز وجل بعد تحصينها، فأضرى وهاج، وتوغر وثار غضبًا، ونصره لدين الله، فأخسأ الشيطان، وكفف إرادته، وأصعر خده لسبقه إلى مشايعة أولى الناس بخلافة رسول الله ﷺ الماضى على سننه، المقتدى

بدينه، المقتص لأثره، فلم يزل سراجه زاهرًا، وضوؤه لامعًا، ونوره ساطعًا له من الأفعال الغرر، ومن التقدم فى طاعة الله، إلى أن قبضه الله إليه قاليًا لما خرج منه...

ولو رحنا نتتبع شمائل أمنا حفصة فى جميع المجالات الفاضلة الخيرة الكريمة لما وسعت لها هذه الصفحات، ولكنا آثرنا أن نشير إلى نُبَذٍ من فضائل شمائلها التى عطرت الدنيا لتكون أسوة وقدوة للمؤمنات.

القرآن الكريم وحفصة:

عندما رحت أتنسم أخبار أمنا حفصة رضى الله عنها بين المصادر المتنوعة، وقفت طويلاً عند فضلها فى جمع القرآن الكريم، ويبدو لى والله أعلم أن هذه منحة ربانية مباركة اختصها الله عز وجل بها، لتكون ذات فضل على أبنائها المؤمنين إلى يوم الدين.

وكم توقفت طويلاً متأملاً الجهد الذى بُذلَ فى جمع القرآن المجيد فى العصر الراشدى!، وكيف كانت أمنا حفصة رضى الله عنها حارسة الكتاب، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإن كنت لأعلم كما يعلم الناس جميعًا أن الله عز وجل قد أنزل الذكر، وتعهد بحفظه، ولكن القرآن الكريم، بقى مسطورًا فى قلوب الذين آمنوا، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، وكانت أجزاؤه وسوره محفوظة فى صدور الوعاة من حفظة الصحابة، ومن بعدهم، وكانت ذاكرتهم صافية، نقية، لا تشوبها شائبة، ولا يعتريها الوهن والنسيان...

لكنه من المؤكد أن القرآن الكريم، كان بالإضافة إلى حفظه فى الصدور، كان مكتوبًا فى قطع الأدم، والعسب، وكسر الأكتاف واللخاف، وما شابه ذلك، وعندما قبض النبى ﷺ، كان يُراجَع إلى ذاكرة الصحابة ممن يحفظون القرآن، وهم كُثُر، وإلى كتاب الوحى وهم معروفون، ومن ثم يرجع إلى النصوص المكتوبة، إذا أشكل أمر فى القراءة أو نحوها.

لم يبق الأمر على هذا النحو، فقد كانت حروب الردة قد أتت على كثير من المسلمين، ومن بينهم عدد جم من خيرة حفاظ القرآن الكريم، الذين قضوا نحبهم وما بدلوا تبديلاً، وإذ ذاك ساورت المخاوف العبقرى النبيه النبيل سيدنا عمر بن الخطاب

فى أمر القرآن الكريم، وخشى أن يصيب المقدور بقية البررة من الصحابة، وعند ذلك يصعب جمع القرآن الكريم.

هنالك سرت بارقة أمل مباركة ولمعت فى ذهن عمر ﷺ وتوجه إلى الخليفة أبى بكر الصديق عليه سحابات الرضوان، وأفضى إليه بما يدور فى خلده فقال: أخشى أن يستحر القتل كرة أخرى، بين حفاظ القرآن فى غير اليمامة من بنى المغازى، وأن يضيع لذلك كثير منه، والرأى عندى أن تسارع فتأمر بجمع القرآن الكريم .

وشرح الله عز وجل صدر سيدنا أبى بكر الصديق ﷺ لهذه الفكرة العمرية الفاروقية المباركة، ولكن من يقوم بهذه المهمة العظيمة التى تنوء بها الجبال الراسيات.

عند ذلك عجم أبو بكر عيدانه، واستعرض رجال العلماء، فألفى أن زيد بن ثابت الأنصارى أصلبها عودًا فى هذا المجال، وهو من كبراء كتاب النبى ﷺ فأوعز إليه أبو بكر قائلاً: إنك رجل، شاب، عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه .

وقام زيد ﷺ بأصعب مهمة فى تاريخ الإسلام فى هذا المضمار الضخم والمجال الميمون، وقد تهيب بادئ الأمر، ولكنه كشف عن ساعد الجد والعمل المتواصل وقد تحدث زيد عن مهمته هذه فقال: لما أمرنى أبو بكر، ﷺ، فجمعت القرآن، كتبته فى قطع الأدم، وكسر الأكتاف والعسب، فلما توفى أبو بكر رحمه الله ورضى عنه، كان عمر، كتبت ذلك فى صحيفة واحدة فكانت عنده .

استغرق عمل زيد هذا قرابة ثلاث سنين كانت سمانًا مباركة لهذا الجهد الكريم، ولما كملت كتابة النسخة الأولى، عهد بها عمر إلى حفصة رضى الله عنها، لتبقى فى حيازتها، وبهذا أضحت أمنا حفصة حارسة للقرآن طيلة خلافة أبيها عمر رضى الله عنهما.

وظلت الحالة كما هى حتى حدث الاختلاف فى وجوه القراءات بين الأمصار، ولاحظ هذا الاختلاف أحد نجباء أصحاب رسول الله ﷺ، وصاحب السر، سيدنا حذيفة ابن اليمان ﷺ، وذلك عندمان كان يجاهد فى أرمينية وأذربيجان، ولاحظ اختلاف القراءات عند الشاميين والعراقيين، فجزع لذلك، وطار إلى خليفة المسلمين إذ ذاك

عثمان بن عفان عليه سحائب الرضوان جزعًا وقلقًا من الاختلاف، وأوعز إليه أن يتدخل فى الأمر، ليقف الناس حتى لا يختلفوا على كتابهم القرآن الكريم كما اختلف اليهود والنصارى.

لاحظ سيدنا عثمان بن عفان رضوان الله عليه شدة تأثر حذيفة بن اليمان لهذا الموضوع، وقد وصلت عثمان الأنباء عن هذا الاختلاف من مصادر أخرى، فتبلورت فكرة جمع القرآن، وكتابه المصحف فى نسخ، وإرسالها إلى الأمصار حتى لا يكون هناك خلاف أو اختلاف.

وبرز هاهنا مرة أخرى، الإمام الكبير، شيخ المقرئين، والفَرَضيين، مفتى المدينة سيدنا زيد بن ثابت كاتب الوحى ﷺ، برز ليؤدى المهمة التى أوكلها إليه عثمان بن عفان ﷺ، وشد أزره بثلاثةٍ من فصحاء قريش وأكابرهم، كل واحد منهم بحر فى فن البيان والفصاحة والخطابة وهم: عبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام، ثم استأذن عثمان ﷺ، بأن يأخذ النسخة الأولى من عند أم المؤمنين حفصة، حتى ينسخوها فى المصاحف ومن ثم تعاد إليها.

وبدأ العمل وكتبت المصاحف بإشراف حَفَظَةِ القرآن وعِلْيَةِ الصحابة، وولاية زيد ابن ثابت الذى تلقى العرضة الأخيرة، وعَمِل على جمع صحف أبى بكر فعلى الرغم من اعتمادهم على صحف أبى بكر ﷺ، وعلى الرغم من حفظهم للقرآن الكريم، فقد كانوا يستوثقون فيما يختلفون فيه من الآيات، فيسألون عنها من تلقاها من رسول الله ﷺ مباشرة، وقد اختط عثمان ﷺ، وبموافقة أهل الرأى والعلم والمشورة من الصحابة رضى الله عنهم منهجًا حكيمًا لكتابة المصاحف، يجعله كفيلاً بما هيئ له من كونه إمامًا يرجع إليه عند الاختلاف، ومصباحًا يهتدى به عند النزاع، وذلك المنهج يتضمن النقاط التالية:

(أ) ألا يكتب فيه إلا ما يُتَيقن كونه قرآنًا بنقل عدد التواتر له عن رسول الله ﷺ دون ما نقله الآحاد مهما كانوا ثقات حفاظًا.

(ب) ألا يكتب إلا ما استمر متلوًا طوال حياة رسول الله ﷺ، دون ما نسخت تلاوته، لأن منسوخ التلاوة ليس بقرآن وإن بقى حكمه.

(جـ) أن يجرد من كل ما ليس قرآنًا، كالذى كان يكتبه بعض الصحابة فى مصاحفهم الخاصة شرحًا لمعنى، أو بيانًا لناسخ أو منسوخ، أو نحو ذلك.

(د) أن يكتب القرآن كله فى ذلك المصحف مرتب الآيات فى سورها على ما وقفهم عليه النبى ﷺ.

(هـ) أن يكتب مرتب السور على ما نشاهده اليوم فى المصاحف.

(و) أن تكتب منه مصاحف متعددة ليرسل إلى كل مِصْرٍ واحد منها للرجوع إليه.

(ز) أن يكتبوه بلسان قريش عند اختلافهم كما قال عثمان ﷺ: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء، فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم .

وهكذا تم العمل المبارك على أكمل وجه، وأدق طريقة، ثم بعث عثمان ﷺ إلى كل مصر من الأمصار، بمصحف، ورد الصحيفة إلى أم المؤمنين حفصة لتكون فى حيازتها، وليكون لها فضل هذا العمل إلى يوم القيامة، وإلى ما شاء الله.

المُحَدِّثَةُ الحَافِظَةُ:

إذا كانت أم المؤمنين حفصة رضى الله عنها قد تبوأت مكانة كبرى فى سدة حفظ القرآن الكريم ورعايته، لقد حلقت عاليًا فى معرفة الحديث النبوى الشريف وروايته، فقد كانت إحدى أمهات المؤمنين الواعيات الحافظات له، بل كانت واحدة من اللواتى أكثرن رواية الحديث الشريف، وحفظه فى صدورهن، وكيف لا، وقد كانت حفصة تلميذة نجيبة فى مدرسة النبوة، وفى البيت النبوى بعد أمهات المؤمين: عائشة وأم سلمة وميمونة وأم حبيبة رضى الله عنها؟ ولها فى مجال الحديث الشريف أثر طيب، فقد روت عن النبى ﷺ، عن أبيها ستين حديثًا، وبهذا تأتى فى المرتبة الخامسة فى عقد أمهات المؤمنين الطاهرات.

اتفق لها البخارى ومسلم على ثلاثة أحاديث.

وقيل: على أربعة أحاديث، وانفرد مسلم بستة أحاديث[١].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٣٠).

روى عن حفصة من الرجال: أخوها الصحابى عبد الله بن عمر وهى أكبر منه بست سنين، وقد أطاب وأجاد، وغبط من قبل بعض الصحابة، لمكانته من رسول الله ﷺ، ولكثرة دخوله على حفصة، ولهذا كان يدعى: المؤتسى برسول الله ﷺ، فقد كان يسأل حفصة أخته عن هدى الحبيب المصطفى، حتى يقتدى به، ويهتدى بهديه.

وممن روى عن حفصة أيضًا من الرجال: ابن أخيها حمزة بن عبد الله بن عمر، وحارثة بن وهب، وشتير بن شكل والمطلب بن أبى وداعة، وعبد الله بن صفوان بن أمية، والمسيب بن رافع، وطائفة أخرى من كبار علماء الصحابة والتابعين.

وقد تلقت جماعة من النساء الحديث الشريف عن أمنا حفصة، وروينه وحفظنه، منهن الصحابية الكريمة أم مبشر الأنصارية وامرأة أخيها صفية بنت أبى عبيد، وغيرهما.

ومن مرويات أم المؤمنين حفصة رضى الله عنها، ما أخرجه البخارى فى صحيحه وغيره بسندٍ عن نافع عن عبد الله بن عمر قال: أخبرتني حفصة أن رسول الله ﷺ كان إذا اعتكف المؤذن للصبح، وبدا الصبح، صلى ركعتين خفيفتين قبل أن تقام الصلاة [(١)].

ومما أخرجه مسلم رحمه الله لأم المؤمنين حفصة رضى الله عنها، ما جاء فى صحيحه بسنده عن عبد الله بن صفوان يقول: أخبرتنى حفصة أنها سمعت النبى ﷺ يقول: ليؤمن هذا البيت جيش يغزونه، حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض، يخسف بأوسطهم، وينادى أولهم آخرهم، ثم يخسف بهم، فلا يبقى إلا الشريد الذى يخبر عنهم .

فقال رجل: أشهد عليك أنك لم تكذب على حفصة، وأشهد على حفصة أنها لم تكذب على النبى ﷺ [(٢)].

وفى سنن أبى داود، وسنن البيهقى، عن حفصة رضى الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان يجعل يمينه لطعامه وشرابه وثيابه، ويجعل يساره لما سوى ذلك .

---

(١) رواه البخارى (٦١٨) مسلم (٧٢٣).

(٢) صحيح مسلم شرح النووى (١٨/ ٥، ٦).

وتروى أمنا حفصة رضى الله عنها، بعضًا من شمائل رسول الله ﷺ، وهديه فى العبادة فتقول: «أربع لم يكن يدعهن رسول الله ﷺ: صيام يوم عاشوراء، والعشر، وثلاث أيام من كل شهر، وركعتا الفجر [١].

تعد أم المؤمنين حفصة عليها سحائب الرضوان إحدى النساء اللواتى يُرجع إليهن فى بعض الفتاوى، ويؤخذ برأيهم فى ذلك.

أورد الإمام أبو محمد على بن حزم الظاهرى، أسماء طائفة من الصحابة الذين رويت عنهم مسألة، أو مسألتان أو أكثر بقليل من الفتيا، وسرد أسماء عدد من أعيان الصحابة، كما سرد أسماء عدد من الصحابيات وهى: حفصة أم المؤمنين، صفية أم المؤمنين، أم حبيبة أم المؤمنين، جويرية أم المؤمنين، ميمونة أم المؤمنين، فاطمة بنت رسول الله ﷺ ورضى عنها، أم عطية الأنصارية، ليلى بنت قائف، أسماء بنت أبى بكر، أم شريك الحولاء بنت تويت، أم الدرداء الكبرى، عاتكة بنت زيد، سهلة بنت سهيل، فاطمة بنت قيس، أم سليم بنت ملحان، زينب بنت أبى سلمة، وأم أيمن الحبشية وغيرهن، رضى الله عنهن أجمعين.

الزَّاهدَةُ العالمةُ:

قد تأتى الدنيا للمؤمن تختال بزينتها وزخرفها، وتمتد بين يديه هينة لينة، وعندئذ يستطيع أن يتناول أجمل ما فيها، ويغتنم ما شاء من زينتها ومباهجها إلا أن المؤمن العاقل البصير، يترك ذلك كله، ويترفع عن الدنيا ابتغاء رضوان الله ومرضاته، إذ أن المؤمن اللبيب إذا امتحن الدنيا يراها عدوًا فى ثياب صديق، ولذلك يحذرها أشد الحذر، ويرنو لما هو باق عند الله عز وجل.

وهذا ما كان من أم المؤمنين حفصة وأبيها عمر رضى الله عنهما، فقد تركا الدنيا وزخرفها، وأبعداها عن كيانهما، ولكن حفصة، كانت تسلك طريقة سديدة فى الزهد، مستوحاة من هدى زوجها رسول الله ﷺ، بينما كان عمر ﷺ، يفهم أن الزهد هو الابتعاد عن زخارف الدنيا مهما كان الأمر، ولذلك طفق عمر يذكر حفصة بأشياء وأشياء حتى يكون سلوكه كسلوك رسول الله ﷺ، وسلوك الصديق الأكبر أبى بكر ﷺ.

---

(١)رواه أحمد (٦/ ٢٧٨).

وتعال ــ عزيزى القارئ ــ نشهد هذه الصورة الكريمة الجميلة من الخليفة عمر، وابنته حفصة رضى الله عنهما، لنعرف مقامهما فى عالم الزهد والزهاد...

ففى خلافة سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ كثرت الفتوح واتسعت رقعة الدولة الإسلامية شرقًا وغربًا، وأضحت الشخصيات اللامعة تفد إلى المدينة المنورة، لتقابل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، الذى دوخ الفرس، وأذل الروم، فكان يقابلهم بهدوء دون أن يعمد إلى تغيير هيئته وشكله، مما جعل ابنته حفصة تدعوه إلى مقابلة هؤلاء بثياب ألين من لباس الخشن.

وذات يوم، قالت له ابنته حفصة أم المؤمنين: يا أبت، البس لين الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق، ومُرْ بصنعةِ طعام تطعمه وتطعم من حضر فقال عمر ﷺ يخاطب ابنته فى هدوء، ويلفت نظرها إلى أشياء تعلمها: ألستِ تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته؟! .

قالت حفصة: بلى يا أبتِ .

قال عمر: ناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله ﷺ لبث فى النبوة كذا وكذا سنة، لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية، ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة؟ .

قالت حفصة: نعم ...

قال عمر: وناشدتك الله هل تعلمين أن النبى ﷺ لبث فى النبوة كذا وكذا، لم يشبع من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خيبر؟ .

وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله ﷺ، قربتم إليه يومًا طعامًا على مائدة فيها ارتفاع، فشق ذلك عليه، حتى تغير لونه، ثم أمر بالمائدة فرفعت، ووضعت الطعام على دون ذلك، أو وضع على الأرض؟! .

فقالت حفصة: نعم ...

قال عمر: ناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله ﷺ، كان ينام على عباءة مثنيةٍ، فثُنيت له ليلة أربع طاقات، فنام عليها، فلما استيقظ قال: منعتونى قيام الليل بهذه العباءة، اثنوها باثنتين كما كنتم تثنونها .

وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله ﷺ، صنعت له امرأة من بنى ظفر من الأنصار كساءين إزارًا ورداء، وبعثت إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر، فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به ليس عليه غيره، قد عقد طرفيه إلى عنقه فصلى كذلك؟ .

وما زال عمر ﷺ يقول حتى أبكاها، وبكى هو وانتحب، حتى كادت نفسه تخرج من شدة التأثر، وقال لها: كان لى صاحبان، سلكا طريقًا، فإن سلكت غير طريقهما، سُلِكَ بى طريق غير طريقهما، وإنى والله سأصبر على عيشهما الشديد، لعلى أدرك معهما عيشهما الرغيد ــ يعنى رسول الله ﷺ وأبا بكر ــ .

ودخل عمر ﷺ على ابنته حفصة، فَقَدَّمَتْ إليه مَرَقًا باردًا وخبزًا، وصبت فى المرق زيتًا، فقال عمر: أُدْمَانِ فى إناء واحد، لا أذوقه حتى ألقى الله عز وجل .

بمثل هذه المشاهد الموحية، نجد أن أمنا حفصة، وسيدنا عمر قد أجاد كل واحد منهما، فى معرفة طريق الزهد، وسلوكه سلوكًا صحيحًا، مهتديًا بهدى رسول الله ﷺ.

وتابعت أم المؤمنين حفصة رضى الله عنها طريقها فى التماس الهدى النبوى، وكانت التوجيهات العمرية تنير لها الطريق أحيانًا، لتبقى فى نور الهداية النبوية، وظلت كذلك حتى طُعِنَ سيدنا عمر ﷺ، فجاءت حفصة والنساء يسترنها فدخلت على أبيها، فبكت عنده ساعة، لكنه وفى تلك الحالة من الآلام والأوجاع، منعها من النوح.

ذكر الزبيدى رحمه الله فى شرحه على الإحياء هذا فقال: دخلت حفصة على عمر عندما طعن فقالت: يا صاحب رسول الله ﷺ، ويا صهر رسول الله ﷺ، ويا أمير المؤمنين، فقال لابنه: أجلسنى، فلا صبر لى على ما أسمع .

وقال لها: إنى أحرج لما لى عليك من الحق أن تندبينى بعدها، فأما عيناك فلا أملكهما، إنه ليس من ميت يُندبُ بما ليس فيه إلا مقتته الملائكة .

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: أما طُعن عمر صرخت حفصة، فقال: يا حفصة، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن المعول عليه يُعَذَّب .

وبهذا ذكر سيدنا عمر ابنته حفصة بالهدى المحمدى، وهو فى أدق اللحظات وأحرجها...

﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ﴾ .

فى ظلال الخلافة الراشدة، ظلت أم المؤمنين حفصة رضى الله عنها، تعيش فى أفيائها مرعية الجانب، مرضية المكانة من الخلفاء الراشدين والصحابة الميامين وكبار العلماء، الفقهاء، وكل يشير إليها ويعترف بفضلها، ويعرف فضائلها، ويقر بمكانتها من البيت النبوى، فهى واحدة من روافد العلم والفقه والأدب فى عصر النبوة.

وفى بداية خلافة أمير المؤمنين سيدنا على بن أبى طالب ﷺ، احتدمت الفتنة الأليمة، وأرادت حفصة أن تخرج مع عائشة أم المؤمنين رضى الله عنهما إلى البصرة، ولكن أخاها عبد الله بن عمر أشار عليها أن تلزم بيتها، وتلتزم عبادتها، وألا تشارك أحدًا فى الحض على ثأر أو ما شابه ذلك.

قرت حفصة رضى الله عنها فى بيتها، ولزمت ما أشار به أخوها، وظلت تحتفظ له بكبير الاحترام، وتعترف بمكانته وفضله... وتمضى الأيام والسنون، ويظل بيت أم المؤمنين حفصة منارة علمية، وموئلاً لطلاب العلم والحديث إلى أن حل العام الخامس بعد الأربعين من الهجرة وفى شهر شعبان من تلك السنة، شعرت أم المؤمنين حفصة بالوهن والضعف، وعرفت أنها سكرة الموت قد جاءت بالحق فلم تمض بضعة أيام حتى لبت نداء الحق، وصعدت روحها إلى ربها راضية مرضية...

وقد صلى عليها أمير المؤمنين وقتذاك مروان بن الحكم، وحملت فى نعش على سرير، وحمل سريرها بعض الطريق ثم حَمَله أبو هريرة إلى قبرها فى البقيع، ونزل فى قبرها أخواها: عبد الله وعاصم ابنا عمر، وبنو أخيها عبد الله: سالم وعبد الرحمن وحمزة وقد بلغت من العمر ستين سنة على أغلب الروايات وكان ممن شيع جنازة أم المؤمنين حفصة إلى مثواها الأخير، الصحابى الجليل أبو سعيد الخدرى ﷺ.

وأوصت أمنا حفصة إلى أخيها عبد الله بما أوصى إليها عمر، وتصدقت لها بمالٍ وقفته بالغابة.

وبعد، فهل أدينا جزءًا من حق أمنا حفصة بنت عمر فى هذه الصفحات المباركات من سيرتها الطيبة وحياتها الميمونة الزاخرة بكل ما هو مفيد ونافع؟!.

نرجو ذلك، ونرجو الله عزوجل أن يحشرنا مع الذين أذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيرًا، وأن يتجاوز عما أسلفنا، ويدخلنا برحمته فى عباده الصالحين، إنه عفوٌ كريمٌ، وسميع مجيب.

أم المؤمنين
زينب بنت خزيمة رضى الله عنها

من نساء أهل البيت اللواتى اشتهرن بالبر والإحسان والجود والسخاء.

كانت تدعى «أم المساكين» لكثرة معروفها وصدقاتها إلى الفقراء والمساكين.

تزوجها النبى ﷺ بعد غزاة أحد، وصارت من أمهات المؤمنين.

رحلت إلى ربها فى هدوء الأبرار، وصمت العابدين، وعمرها قرابة ثلاثين عامًا.

توفيت سنة (٤هـ) وهى أول نساء النبى ﷺ وفاة بالمدينة ودفنت بالبقيع وصلى عليها النبى ﷺ.

أم المؤمنين
زينب بنت خزيمة رضى الله عنها

من أبواب الخير:

المسلم الحق أولى الناس بحياة سعيدة طيبة، لأن المسلم ــ رجلاً كان أو امرأة ــ لا ينفرد بالخير لنفسه، بل يعد كل من حوله شريكه فى الخيرات، وهذه المشاركة تضفى على النفس البشرية صفاءً ونقاءً تجعلها تحيا حياة طيبة فى ظلال الخيرات.

ومن ألف عمل المعروف والخيرات، كافأه الله عز وجل بإدامة ثوابها عليه، ومن تعود الإحسان، وعمل الخيرات، يشعر بإلحاح فى نفسه، لمتابعة المسير فى هذا الطير الكريم.

وقد أشار القرآن الكريم، إلى كثرة منافذ الخير التى يجب أن يسير عليها المسلم مهتديًا بمنهج ربه عز وجل، إذ رغبه فى ثواب الله عز وجل، إذ إنه سبحانه لا يمنع المكافأة على أى خير مهما قل أو صغر، قال تعالى: ﴿ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾ (البقرة: ١٩٧) وقال أيضًا: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ (الزلزلة: ٧).

ونتحدث الآن عن واحدة من نساء أهل البيت النبوى الطاهرات، اللواتى أكرمهن الله عز وجل، وفضلهن على غيرهن من النساء، وهى إحدى النسوة اللواتى اشتهرن بالإحسان وحلقن فى سمائه، فكتب لها الخلود، وكتبت فى سجل الخالدين، لا بل نظمت

فى عقد أمهات المؤمنين، فنالت شرف أمومة المؤمنين، ودخلت رحاب البيت النبوى الطاهر...

إنها زينب بنت خزيمة بن عبد الله الهلالية أم المؤمنين، هى من نسعى فى استجلاء أخبارها فى هذه الصفحات...

هذه المرأة الكريمة كانت ــ وظلت ــ تدعى أم المساكين لكثرة معروفها وإحسانها إليهم ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴾ (الرحمن: ٦٠).

نرجو أن نوفق فى إلقاء الضوء على سيرة أم المؤمنين زينب بنت خزيمة، لنوفيها بعض حقها من الذكر الحسن من خلال استجلاء سيرتها العطرة، وذلك ما نرجوه من الله عز وجل بأن يكرمنا بالحديث عن سيرتها بمنتهى الحب والشفافية[١].

شذرات من حياتها:

ولدت زينب بنت خزيمة فى أم القرى قبل البعثة النبوية بثلاث عشرة سنة تقريبًا، ولما أيفعت، أشرقت مكة بنور الإسلام، فسارعت زينب إلى الانضمام لثلة الأولين الذين نعموا بأفياء الإيمان بالله وبالرسول.

أما عن زواج زينب بنت خزيمة، فهناك أقوال أشهرها ما قاله الزهرى رحمه الله أنها كانت زوجًا لعبد الله بن جحش، وقتل عنها فى يوم أحد.

وقيل: «كانت زوجة للطفيل بن الحارث، ثم خلف علبها أخوه الشهيد عُبيدة بن الحارث المطلبى».

ولا نستطيع أن نجزم فى هذه الأقوال شيئًا، أو أن نرجح أحدها، أننا لا نمتلك السند الوثيق فى هذا المجال، ويمكننى أن أضع القارئ الكريم أمام آراء المؤرخين، وكتاب السيرة، والتراجم حتى نقترب معًا من ضوء الحقيقة بإذن الله عز وجل.

فقد روى الطبرانى رحمه الله بسنده عن محمد بن إسحاق رحمه الله قال: «تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت خزيمة الهلالية أم المساكين كانت قبله عند الطفيل بن الحارث بالمدينة».

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٨) طبقات ابن سعد (٨/ ١١٦) الإصابة (٤/ ٣٠٩).

وقريب من هذا ما أورده ابن الكلبى قال: «كانت زينب بنت الحارث عند الطفيل ابن الحارث، فطلقها، فتزوجها أخوه عبيدة بن الحارث، فقتل يوم بدر شهيدًا ثم خلف عليها رسول الله ﷺ فى رمضان على رأس أحد وثلاثين شهرًا من الهجرة بعد حفصة بنت عمر رضى الله عنهما».

زينب من أمهات المؤمنين:

فى السنة الثالثة كانت غزاة أحد، وفى هذه الغزوة، استشهد رجال كرام من الصحابة الكرام رضى الله عنهم، وتركوا وراءهم الدنيا والأهل طاعة لله عز وجل وابتغاء مرضاته، والفوز بجنته التى وعدهم بها.

أما المسلمون من الصحابة الكرام، فلم يتركوا أزواج الشهداء وذريتهم للضياع، وإنما راح كل قادر منهم يضم إليه زوجة شهيد وأبناءه، كى يمسح عن قلوبهم ألم الفراق، وألم اليتم.

نتذكر هاهنا حمنة بنت جحش رضى الله عنها، وقد صرخت باكية على زوجها مصعب بن عمير ﷺ، وقالت: «واحزناه» ويسمعها رسول الله ﷺ فقال: «إن للزوج من المرأة مكانًا ما هو لأحد» وعندئذ قال لها ﷺ «لِمَ قلتِ هذا؟» قالت حمنة رضى الله عنها: «يا رسول الله، ذكرت يتم بنية فراعنى» فدعا لها رسول الله ولولدها، أن يحسن الله تعالى عليهم الخلف، فتزوجت طلحة بن عبيد الله ﷺ، فكان أوصل الناس لولدها.

وممن استشهد فى أحد زوج زينب بنت خزيمة الهلالية، فكانت دائمة الحزن عليه، ونظرت فرأت نفسها وحيدة حزينة فى المدينة المنورة، وليس لها من معيلٍ، أو معين أو عون، سوى الله عز وجل.

إلا أن زينب بنت خزيمة رضى الله عنها كانت موصولة القلب بالله عز وجل، وتدرك أن الله عز وجل لن يضيعها، فأسلمت إليه أمرها، واستسلمت لقضائه وقدره.

انقضت عدة زينب بنت خزيمة، فلم تشعر إلا ورسول الله ﷺ يطرق الباب ليخطبها، وحينذاك جعلت أمرها إليه، فالرسول الكريم ﷺ هو خير من يتولى أمرها، ويرعى شأنها، وقد أصدقها النبى الكريم ﷺ أربع مائة درهم، وبنى لها حجرة إلى

جوار حجرة عائشة بنت أبى بكر، وحفصة بنت عمر رضى الله عنهم أجمعين، وذلك قرب المسجد النبوى الشريف.

وبهذا أخذت زينب بنت خزيمة رضى الله عنها مكانة مباركة عالية، إذ غدت إحدى أمهات المؤمنين اللواتى كن من صفوة نساء الدنيا كمالاً، ودينًا، وصيانة، وعفة، وحلمًا، وكرمًا...

أم المؤمنين وأم المساكين:

فى رحلة الإيمان، ورحلة العطاء والكرم، تسجل أم المؤمنين زينب رضى الله عنها فضائل جليلة، فى صفحات البيت النبوى الكريم، إذ أُثر عنها أنها كانت أمًّا للمساكين بالإضافة إلى كونها من أمهات المؤمنين رضى الله عنها.

والذى يظهر ــ والله أعلم ــ أن كنية زينب بنت خزيمة بأم المساكين، كنية قديمة، قد تعود إلى ما قبل هجرتها إلى المدينة المنورة، فقد كانت تُعرف بأم المساكين قبل قدومها المدينة، ولعل خير ما يؤيد هذا ما ذكره ابن أبى خيثمة رحمه الله قال: «كانت زينب بنت خزيمة الهلالية تسمى أم المساكين فى الجاهلية».

وقال البلاذرى رحمه الله: «وكنيت بذلك فى الجاهلية» أى أم المساكين.

وقال القسطلانى رحمه الله: «كانت تدعى فى الجاهلية أم المساكين».

وروى الطبرانى رحمه الله برجال ثقات عن الزهرى رحمه الله قال: «تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت خزيمة الهلالية، وهى أم المساكين، سميت بذلك لكثرة إطعامها المساكين».

وقال محمد بن إسحاق رحمه الله فى السيرة: تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت خزيمة الهلالية أم المساكين، وقال ابن كثير رحمه الله: وهى التى يقال لها: أم المساكين، لكثرة صدقاتها عليهم، وبرها بهم وإحسانها إليهم.

نعم، لقد كانت أمنا زينب بنت خزيمة رضى الله عنها، من أرق النساء وأرحمهم للفقراء والمساكين فى عصرها، وزادت من حنانها عليهم، بعد أن أنعم الله عليها بنعمة الإيمان، وأكرمها الله بدخول البيت النبوى الطاهر، لتصبح من أمهات المؤمنين رضى الله عنهن أجمعين.

إن هذه الصفة الكريمة – أم المساكين – تزيد من رصيد أمنا زينب بنت خزيمة فى عالم نساء أهل البيت النبوى الطاهر، فالإحسان إلى المساكين، والعطف عليهم، والرأفة بهم، يشير إلى خيريتها، وإلى كرمها الفياض الذى جعلها أمًا للمساكين فى المدينة المنورة، تحنو عليهم وترعاهم، إذ تعودوا على نوالها وكرمها، وهذا ما يجعلها فى صف الخالدات وفى صف الفضليات، وفى عالم الكرم والكريمات.

أم المساكين وعائشة وحفصة:

كانت السيدتان النبيلتان عائشة بنت أبى بكر، وحفصة بنت عمر رضى الله عنهما، أسبق من زينب أم المساكين إلى دخول البيت النبوى الطاهر الكريم وكان لهاتين الكريمتين: عائشة وحفصة، مكانة كبرى، ومنزلة عظمى، عند رسول الله ﷺ، ولذلك لم تستشعر عائشة، ولا حفصة، نحو السيدة زينب بنت خزيمة أية غيرة، أو أى شىء من بواعثها...

كانت كل من أمنا عائشة، وأمنا حفصة رضى الله عنهما، تعرفان أن رسول الله ﷺ قد تزوج زينب بنت خزيمة أم المساكين، رحمة منه وعطفًا، وكانتا تعلمان أيضًا أن رسول الله ﷺ ما ينطق عن الهوى، وقد تزوجها بوحى من الله عز وجل.

أما زينب بنت خزيمة أم المساكين رضى الله عنها، فلم تكن راغبة هى الأخرى فى منافسة عائشة وحفصة اللتين سبقتاها إلى بيت النبى الكريم ﷺ.

كانت زينب بنت خزيمة عليها سحابات الرضوان، تعيش فى عالم العطف والمودة والحنان، وتعيش فى كنف الإسلام وعظمته، وتحس بالسعادة الغامرة تملأ قلبها ووجدانها فى رحمة المساكين، وفى رقتها عليهم، ورفقها بهم، والإحسان إليهم، فجعلت جُلَّ وقتها فى عبادة الله عز وجل، ثم فى رعاية ثلة المساكين وإطعامهم، والتصدق عليهم، ولهذا غلب عليها تسمية أم المساكين، وناهيك بهذه التسمية الفضلى الفواحة بدفءِ الحنان ونسائم الإحسان!.

لقد كانت أمنا زينب بنت خزيمة رضى الله عنها خيرة من الخيرات، طيبة من ذوات النفوس الطيبات، وما كان يخرج من حجرتها إلا الصدقات، وإلا الطاعات والعبادات، فأكرم وأعظم بذى المكرمات!.

كانت رضى الله عنها قريرة العين، مطمئنة القلب، بأن أصبحت زوج رسول الله محمد ﷺ، وهل فوق هذا من فضل أو مفخر؟! فما كانت الغيرة تعرف إلى نفسها سبيلاً، وما كانت مشاغل النساء تداعب فؤادها، فهى سعيدة راضية بأمومة المؤمنين وأم المساكين، وقد غمرت أهل الصُّفَّة، الذين انقطعوا للعبادة والمناجاة فى المسجد النبوى الطاهر، وعملوا على حراسة الحبيب المصطفى ﷺ، غمرت هؤلاء الأخيار ببرها، وعطفها وكرمها، وإحسانها، حتى لهجوا بالدعاء لها، والثناء عليها رضى الله عنها.

إلى دار السلام:

لم يطل مقام أمنا زينب بنت خزيمة أم المساكين فى البيت النبوى، ولم تكن حياتها طويلة مع أمهات المؤمنين الطاهرات رضى الله عنهن، فما كادت تمضى بضعة شهور حتى علا الوجوم والحزن وجوه من كانوا فى المسجد النبوى الشريف، فقد خرج ذات يوم من بيت النبى ﷺ، من أعلن للملأ أن زينب بنت خزيمة أم المساكين قد لحقت بربها...

دخلت زينب بنت خزيمة رضى الله عنها بيت رسول الله ﷺ، فى هدوء الأبرار وصمت العابدين، وخرجت فى صمت الخاشعين، لِتُدفنَ فى البقيع إلى جوار الأبرار الأخيار الذين سبقوها إلى دار السلام، ولنعم دار المتقين الجنة، كان موت زينب أم المساكين أليمًا على قلب الحبيب المصطفى ﷺ، إذ تذكر بموتها الطاهرة خديجة بنت خويلد، أول أمهات المؤمنين، وأحبهن إلى قلبه الشريف، رضى الله عنها وأرضاها.

توفيت أم المساكين، ولم تَرْوِ شيئًا عن النبى ﷺ.

قال الذهبى رحمه الله: «وما روت شيئًا».

وقال ابن الجوزى رحمه الله: «وما نعلمها أسندت شيئًا».

ولعل هذا يعود إلى انشغالها بأحوال المساكين، وإلى قلة مكثِها فى بيت رسول الله ﷺ.

روى الطبرانى رحمه الله قال: «وتوفيت أم المساكين ورسول الله ﷺ حيٌّ، لم تلبث معه إلا يسيرًا».

توفيت أم المساكين فى ربيع الآخر فى السنة الرابعة من الهجرة المباركة، وشيعت إلى مثواها الأخير فى البقيع فى المدينة المنورة وكانت عندما توفيت فى ريعان الشباب، فقد ذكرت المصادر وكتب السيرة، أنها ماتت وعمرها حول الثلاثين.

وفى الطبقات أخرج ابن سعدٍ رحمه الله ما يتوافق مع هذا عن شيخه محمد بن عمر قال: «سألت عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما: من نزل فى حفرتها.

فقال: إخوة لها ثلاثة.

قلت: كم كان سنها يوم ماتت.

قال: ثلاثين سنة أو نحوها».

وكانت أم المساكين، أول نساء النبى ﷺ موتًا بالمدينة، وقد توفيت أم المؤمنين خديجة قبلها فى مكة.

وقد فازت زينب بنت خزيمة بوفاتها فى حياة رسول الله ﷺ، بأن صلى عليها، ودعا، لها ولم يمت من زوجاته بالمدينة غيرها فى حياته ﷺ.

رضى الله عن أمنا زينب بنت خزيمة، وأكرم مثواها ووهبنا لها، فهو الكريم الرحيم الوهاب، وجزاها بالحسنى، فهو القائل فى كتابه العزيز: ﴿ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾ (النجم: ٣١).

وجعلها فى عليين مع الأبرار والصالحين، وأدخلنا معها ومع أهل البيت النبوى الطاهر فى رحمته، إن ربى غنى كريم، ومع وداع سيرة أم المساكين.

ما رأيكم أن نقرأ هذه التفريدة الجميلة؟

مع زينب أخرى نواصل للحديث مؤكدين
هى زوجة الهادى وإحدى أمهات المؤمنين
أم المساكين التى عرفت بإحسان ودين
عرفت ببنت خزيمة ذاكم أبوها عن يقين
كانت قبيل المصطفى زوجًا لأحد الذاهبين
ذاكم عبيدة فى العمومة مع إمام المتقين
قد راح فى بدر شهيدًا أول المستشهدين

فتأيمت من بعده مع لوعة الحزن الدفين
لما انتهى زمن الحداد كشرع كل المسلمين
قد أرسل الهادى ليخطبها كفعل الخاطبين
قالت فأمرى للنبى وإننى فى الطائعين
فتزوج الهادى بها بالمهر ثم الشاهدين
لكنها لم توفِ عامًا عند ختم المرسلين
ظلت ثمانى أشهر ثم اغتدت فى الراحلين
صلى عليها المصطفى والصحب كانوا شاهدين

أم المؤمنين
هند بنت أبى أمية (أم سلمة)
رضى الله عنها

من سادات النساء وأعلاهن منزلة، اشتهرت بحصافة الرأى، وسلامة المنطق، وكانت تسعى لمرضاة الله عز وجل.

كان لها مكانة رفيعة عند النبى ﷺ، وكان يصلي فى بيتها.

في بيتها نزل قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٣٣).

كانت من فقيهات نساء أهل البيت، روت (٣٧٨ حديثًا) وكانت عالمة، قارئة، فصيحةً، أديبةً، لها كلمات مأثورة.

عاشت أكثر من (٨٠ سنة) وهي آخر أمهات المؤمنين وفاة رضى الله عنها.

أم المؤمنين
هند بنت أبى أمية (أم سلمة)[١]
رضى الله عنها

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ (الواقعة: ١١).

كان فى طليعة الأباة السابقين إلى دوحة الإسلام، ثلة من خيار أهل مكة، الذين ضربوا أوفى الأمثلة، فى ميادين الشجاعة والسخاء، والصبر والإيمان والمكارم والفضائل.

من بين أولئك الأباة الميامين: أبو سلمة، عبد الله بن عبد الأسد المخزومى، السيد الكبير أخو رسول الله ﷺ من الرضاعة، وابن عمته برّة بنت عبد المطلب، وأحد السابقين الأولين إلى الإسلام، الذين نعموا بنور الإيمان ومحبة الله تعالى ورسوله الأمين ﷺ.

كان اسم أبى سلمة فى سجل الإيمان بارقًا يلمع بين الأرقام الأولى، فقد أسلم بعد عشرة أنفس، فكان من المقربين الذين عرفوا الحق من أول يوم هبت فيه أنسام الإيمان

---

[١] طبقات ابن سعد (٣/ ٣٩٣) أسد الغابة (٦/ ٣٤٠ - ٣٤٣) الإصابة (٤/ ٤٠٧) الاستيعاب (٤/ ٤٠٥).

الندية على مكة ـــ بل الدنيا ـــ فتعطرت به تلك النفوس الصافية التقية النقية، واستضاءت بنوره وهداه، وتظهر من بين أولئك السابقين، امرأة سجلت أعظم الأثر فى البيت النبوى الطاهر، فى مجالات خيرة متنوعة الفضائل، هذه المرأة الفاضلة هى: السيدة المحجبة الطاهرة، هند بنت أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله المخزومية ابنة عم خالد بن الوليد، ومشهورة بكنيتها أم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنها وأرضاها.

قال عنها الإمام الذهبى رحمه الله: «من المهاجرات الأول، كانت قبل النبى ﷺ عند أخيه من الرضاعة: أبى سلمة بن عبد الأسد المخزومى، الرجل الصالح، وكانت من أجمل النساء وأشرفهن نسبًا».

وتُعَدُّ أم سلمة رضى الله عنها، من أوليات المؤمنات بالله عز وجل وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولاً، ولم يسبقها فى عالم النساء، إلا صديقة المؤمنات الأولى خديجة وبناتها، وأم أيمن الحبشية، وأم الفضل زوج العباس بن عبد المطلب رضى الله عنهن أجمعين، ولهذا تنتظم أم سلمة فى عقد المؤمنات السابقات إلى خيرى الدنيا والآخرة، فأكرم بهذا السبق المظفر الكريم!.

كَرَمُ الأَعْرَاف:

لو ألقينا الأضواء على حياة هندٍ أم سلمة قبيل الإسلام، لألفينا أنها امرأة ذات شرف فى أهلها، وذات نسب مُعْرِقٍ فى المعالى، ومنبتٍ كريم حسيب فى قومها بنى مخزوم، ثم هى بعد ذلك كله، ابنة واحدٍ من كرماء قريس، وأنداهم كفًّا، وأجودهم عطاء، فأبوها زاد الراكب أحد الأجواد الذين سارت الأمثال والركبان بالحديث عن سخائهم، فكانوا إذا سافروا، وخرج معهم الناس، لم يتخذوا زادًا معهم، ولم يوقدوا نارًا لهم فيكفونهم ويفنونهم.

ولا ريب فى أن هند بت أبى أمية، قد تأثرت بهذه البيئة الكريمة التى عاشتها فى مطلع فجر حياتها، ورأت ما رأت من مكانة أبيها وكرامته بين الناس، فلا عجب أن تكون هى الأخرى، ذات يدٍ معطاءه، ونفس صافية، تعرف مكامن الرحمة، فتفجر البر فى نفوس الناس تفجيرًا.

ولما بلغت هند بنت أبى أمية مبلغ النساء، تزوجها أبو سلمة بن عبد الأسد، أحد الأشراف من بنى مخزوم، وأحد ذوى الرأى الجزلِ والشجاعة والكرم والمروءة فيهم، فانتقلت إلى داره لتعيش معه فى سعادة وهناء.

كان أبو سلمة بن عبد الأسد تِرْبَ محمد بن عبد الله الأمين الكريم ﷺ الذى سمعت هند كثيرًا عن شمائله فى المجالس، إذ هو ريحانة الندى فى مكة، ومعقل كل رجاء، ومجمع كل جود، ومناط كل فضيلة، ورأس الشرف والنسب، إذ لا يعلو على نسبه أحد فى الخافقين، فهو سليل الأسياد الأشراف، حاز المكارم والتقى والجود، ولله درُّ من قال:

نسب كأن عليه من شمس الضحى ... نورًا ومن فلق الصباح عمودا
ما فيه إلا سيدٌ من سيدٍ ... حازَ المكارم والتقى والجودا

يضاف إلى ذلك كله، أن أبا سلمة تربط بينه وبين محمد بن عبد الله ﷺ صلة القرابة، فمحمد ابن خال أبى سلمة، وأم أبى سلمة هى برة بنت عبد المطلب عمة النبى ﷺ.

كانت هند أم سلمة تعيش حياة النعيم والرخاء، والسعة والدعة، وخفض العيش، ينفق عليها زوجها ويرعاها، ويحنو عليها حُنوَّ المرضعات على الفطيم، فقد عرفت بين أترابها بكمال طلعتها وجمال روحها، ورقة طبعها، ناهيك بكرم والدها الذى شمل رجال مكة وما حولها.

غير أنها فى غضون أيام تترك هذا النعيم المزيف كله، لتنتقل إلى نعيم روحى حقيقى آخر، عبقت مكة كلها بأريجه، إنه نعيم الإسلام الذى يدعو إليه محمد ﷺ، وسارعت أم سلمة وزوجها إلى الإسلام والإيمان بالله، فكانا من السُّعداء.

كَبُرَ إسلام هذين الزوجين الكريمين على بنى مخزوم ولعب بهم الغيظ، على محمد ﷺ وعلى أصحابه، لا بل إن رسول الله ﷺ قد اتخذ من دار الأرقم بن أبى الأرقم بن أسد المخزومى دار اجتماع لتلقى المؤمنين تعاليم رسالته، ولم يعلم بها بنو مخزوم على الرغم من أنها على مقربة من أعينهم...

كانت هذه الدار مجمع السابقين إلى الإيمان من أصحاب محمد ﷺ، والذى زاد من غيظ المخزوميين، ثم القرشيين، أنه أقبل على الإيمان أهل الصدق من خُلصِ شباب قريش رجالاً ونساء، قد اتبعوا دينه، وصدقوا رسالته، وكثروا وتكاثروا فى ظل الإيمان، وفى ظل الرعاية الربانية، والتربية المحمدية الهادية إلى النعيم والسلام والوئام.

أسلمت أم سلمة وأبو سلمة، وكانت قبيلة بنى مخزوم بقضِّها وقضيضها، تركب رأسها تعاند الإسلام، والمسلمين، وها هو ذا عمها الوليد بن المغيرة المخزومى، الملقب بالوحيد، وبالعدل، ومن ذوى الشرف، والعز، والسؤدد، لكنه يؤلبُ ويكيدُ، وابن عمها كذلك ومن معه يصبون الأذى صبًّا على المسلمين والمسلمات ومنهم أخوها فى الرضاعة، المؤمن السابق، مولى المخزوميين عمار بن ياسر ﷺ.

استفاقت قريش وبنو مخزوم من غفلاتهم، فإذا بهم يرون أن محمدًا ﷺ، قد اجتذب منهم زهرات شبابهم إلى رحيق الإيمان، فإذا هم عنده ومعه مسلمون، مؤمنون، قد هجروا آلهة آبائهم وأسلافهم، وسفهوا معه أحلامهم، ودخلوا معه بشَظفِ العيش، وبس الحياة وفقرها، بعد الترف والمتعة فى بيوتهم بين أهليهم وذويهم، وفارقوا المال والولد، والإخوة والآباء والأمهات والزوجات، وتبدلوا بهم — وهو الحق — محمدًا ﷺ وأصحابه.

طارت عقول قريش فى أدمغتهم، وانخلعت قلوبهم من بين أضلاعهم، لما يرون ويشاهدون ويسمعون، وعندئذ أقبل كفار قريش على من آمن من قبائلهم يعذبونهم، ويؤذونهم، ليردوهم عن دينهم، ولكن المؤمنين كانوا يزدادون إيمانًا مع إيمانهم، وتزداد جموع فجار المشركين حقدًا على حقد، وسوءًا على اختلاف فنون الأذى والتعذيب، وفى مسيرة العذاب والتعذيب، نالت أم سلمة وزوجها نصيبهما من أذى المشركين، وصبرا صبر الكرام، مع إخوانهم المؤمنين، حتى جاءت نفحة الهجرة إلى الحبشة لتتولى أم سلمة الحديث الشائق العبق حولها، ولتكون هى راوية حديث الهجرة، الذى يعتبر أصح، وأجود، وأجمع حديث ذكر قصة الهجرة إلى أرض الحبشة، فأحسنت

الحديث وجودت وجمعت الحقائق ونظمتها فى عقدٍ بيانى فريد، يعد واحدًا من المصادر الأساسية فى بداية السيرة النبوية.

كانت أم سلمة إحدى المهاجرات إلى الحبشة مع زوجها أبى سلمة فمع المهاجرين والمهاجرات نعيش لحظات رغيدة، ومعهم نحلق بأرواحنا، نحيا مع تلك الفئة الكريمة التى تعتبر من أعز بيوت العرب وقبائلها وسنشهد ونشاهد أشرافًا وأعلامًا من أرومة قريش وهى تشد الرحال إلى الحبشة، قال ابن اسحاق رحمه الله: وكان أول من خرج من المسلمين من بنى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف: عثمان بن عفان، معه امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ.

أم سلمة وحديث الهجرة:

قلنا: إن أم سلمة رضى الله عنها، كانت مع الذين هاجروا أول هجرة فى الإسلام إلى الحبشة، وهناك ولدت لزوجها أبى سلمة ابنته زينب، ثم بعد ذلك، ولدت له، سلمة وعمر ودرة، إن أهل الهجرة الأولى إلى الحبشة كانوا اثنى عشر رجلاً، وأربع نسوة: عثمان وامرأته، وأبو حذيفة بن عتبة وامرأته سهلة بنت سهيل، وأبو سلمة وامرأته أم سلمة، وعامر بن ربيعة وامرأته ليلى بنت أبى حثمة، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن مظعون، وأبو سبرة بن أبى رهم، وحاطب ابن عمرو، وسهيل بن وهب، وعبد الله بن مسعود.

خرج هؤلاء الأخيار يتسللون سرًا، فوفق الله لهم ساعة وصولهم إلى الساحل سفينتين للتجار، فحملوهم إلى أرض الحبشة، وكان مخرجهم فى رجب فى السنة الخامسة من المبعث ثم خرجوا ثانية، وكانوا ثلاثة وثمانين رجلاً، ومن النساء تسع عشر امرأة، ومنهن: أسماء بنت عميس، وأميمة بنت خلف، وبركة بنت يسار، وفاطمة بنت صفوان بن أمية، وفاطمة بنت المجلل العامرية، وغيرهن...

وفى إحدى الجلسات المباركة، شرعت أم المؤمنين أم سلمة تروى ذكريات الهجرة الحبشية... وحديث الهجرة إلى الحبشة ــ عزيزى القارئ ــ طويل الذيول، عريض الأكتاف ولكنى أحب أن أشير إلى أنها كانت ــ كذلك ــ هجرة تبليغ، ونشر للدعوة المحمدية التى تركت آثارها وأثرها بالحوار الصدوق، الذى تولاه جعفر بن أبى طالب

ﷺ باسم سائر المسلمين المهاجرين، واستجاب لها النجاشى، وأحباره، ورهبانه الذين فاضت أعينهم من الدمع مما عرفوا من الحق، وأنزل الله عز وجل فيهم قرآنًا يتلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها: ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ﴾ (المائدة: ٨٢)

ولنعد إلى مائدة أم سلمة الإيمانية، نغذى الأرواح، ونمتع الأسماع بفقراتٍ رطبة من شذى قصة الهجرة، ولاحظ معى سلاسة الألفاظ، ودقة التعبير، وسمو القصد، وكمال الرؤية السلمية للأحداث.

قالت أم سلمة عليها سحائب الرضوان: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا فيها خير جار، النجاشى، أمنًا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نؤذى، ولا نسمع شيئًا نكرهه، فلما بلغ قريش ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشى فينا رجلين منهم جَلْدين، وأن يُهْدوا للنجاشى وبطارقته، هدايا مما يستطرف من متاع مكة... ثم بعثوا عبد الله بن أبى ربيعة، وعمرو بن العاص، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريقٍ هديته، قبل أن تكلما النجاشى فيهم، ثم قدما إلى النجاشى هداياه، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما، قبل أن يكلمهم، فخرجا حتى قدما على النجاشى... فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته... ثم إنهما قدما هدايا هما إلى النجاشى... ثم كلماه فقالا: أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا فى دينك... وقد بعثنا إليك فيهم أشراف من آبائهم، وأعمامهم، وعشائرهم، لتردهم إليهم فهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه، فقال بطارقته حوله: صَدَقَا أيها الملك... فأسلمهم إليهما... حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم، فإذا كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما... وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاورونى... ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله فدعاهم، ودعا أساقفته،فلما جاءوا سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به فى دينى، ولا فى دين أحدٍ من هذه الملل؟!.

فقال جعفر بن أبى طالب رضوان الله عليه: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسىء الجوار، ويأكل القوى

منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده، ونعبده... وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئًا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام... فصدقناه، واتبعناه على ما جاء به من الله... فعدا علينا قومنا، فعذبونا وافتتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان... فلما قهرونا وظلمونا... خرجنا إلى بلادك... ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك...

فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟! قال جعفر: نعم.

فقال له النجاشي: فاقرأه عليَّ... فقرأ عليه صدرًا من ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ (مريم: ١) فبكى والله النجاشي، حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، ثم قال لرسولى قريش: انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يكادون.

فلما خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عَبْدٌ، ثم عدا من الغد.

فقال له: أيها الملك، إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولاً عظيمًا، فأرسل إليهم، فسلهم عما يقولون فيه، فأرسل إليهم... فلما دخلوا عليه، قال لهم: ماذا تقولون فى عيسى ابن مريم.

فقال جعفر بن أبى طالب: نقول فيه الذى جاءنا به نبينا، يقول: هو عبد الله ورسوله، وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول... فضرب النجاشى بيده إلى الأرض، فأخذ منها عودًا، ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود.

قال للمسلمين: اذهبوا فأنتم سيوم — أو شيوم — آمنون بأرضى من سبَّكم غَرم، ما أحب أن لى دبرًا — جبلاً — من ذهب وأنى آذيت رجلاً منكم...فخرج رسولا قريش من عنده مقبوحين، مردودًا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار، مع خير جار .

هذه أقباس من قصة المهاجرين فى الحبشة، استمعنا إليها من أم سلمة، واستمتعنا بما فيها من المواقف العطرة، والدروس والتوجيهات والعبر، ولاحظنا كيف حفَّت

العناية الإلهية المهاجرين، وكيف اكتنفتهم فى أرض غربتهم، فعاشوا بخير دار مع خير جارٍ، ولكن قلوبهم ظلت معلقة بمكة، بالبيت العتيق، بالأهل والأصحاب، وبالحبيب المصطفى ﷺ الذى أخرجهم من ظلمات الجاهلية إلى نور الهدى ودين الحق، فما كان يأتى من مكة خبرٌ، بأن الله أعز رسوله بأنصار حتى يهرع من برحهم الشوق إلى الأحبة بالعودة إلى أحب أرض الله إليهم، وقد عاد عثمان بن عفان، ورقية بنت رسول الله ﷺ، وأبو سلمة، وأم سلمة وأولا ها، كما عاد بعض المسلمين الذين حنوا إلى مكة المكرمة.

قدم أبو سلمة وأم سلمة من الحبشة إلى مكة، وهما يحسبان أنهما سيعيشان بين قومهم بأنعم بال، فإذا بأشرار الفجار يبطشون بهما، وبغيرهم ممن عادوا إلى مكة وبدا لهم أنهم يكفوا عن إيذاء المسلمين، وافتتانهم بدينهم.

أراد أبو سلمة وزوجه العودة إلى الحبشة، وقبل أن يتجهز للرحيل، بلغه إسلام من أسلم من الأنصار الذين بايعوا رسول الله ﷺ عند بيعة العقبة الأولى، وإذ ذاك عزم على أن يهاجر إلى عرينهم، حتى يأتى الله بالفرج، أو نصر من عنده.

والآن، دعونا نعيش رحلة الهجرة الموفقة إلى المدينة المنورة مع الأسرة الصابرة، المؤلفة من أبى سلمة وأم سلمة وبنيهما رضى الله عنهم أجمعين، وتعالوا نستنشق عبير تلك الأحاديث العطرة التى تصل القلوب ببارئها، وتنساب إلى أغوار النفس فتربطها بوشائج الحب مع الحبيب المصطفى ﷺ، ولأصحابه الكرام، ولأهل البيت الأطهار الأخيار.

أم سلمة وأضواء الإيمان:

كانت البيعة الكبرى فى العقبة فتح الفتوح فى تفريج كرب المسلمين المعذبين فى أم القرى، وكان لها من الفضل فى توحيد مجتمعهم، وشد سواعدهم، وصلابة قناتهم ما جعلهم قوة مرهوبة، يخافها أعداء الإسلام، وكان لها من إدخال البهجة على قلب رسول الله ﷺ ما جعله يظهر سروره لأصحابه، ويبشرهم بأنه قد أخبر بدار هجرتهم، وهى يثرب المدينة دار الأنصار، وعرين الأبطال الذين بايعوه على أن يكونوا حربًا لمن حاربه، وسلمًا لمن سالمه من العالمين.

وصار فى المدينة المنورة فى كل دارٍ من دور الأنصار ذكر لرسول الله ﷺ ولرسالته السماوية، وهذا الأمر جعل أباة الضيم من السابقين الأولين فى مكة، يتطلعون إلى الهجرة حيث يأمنون على دينهم وممارسة عبادتهم ورأوا أن المدينة المنورة هى المكان الآمن الأمين، والحصن الحصين الذى تطمئن فيه قلوبهم، لأنه يجمعهم مع إخوانهم فى الإيمان من أنصار الله عز وجل، وأنصار رسوله ﷺ ودعوته برابط المحبة والأخوة فى الله عز وجل.

أعد المؤمنون العدة للهجرة، وكان فى مقدمتهم أبو سلمة صاحب الهجرة: هجرة الحبشة وهجرة المدينة المنورة، ومعه زوجه أم سلمة أيضًا صاحبة الهجرتين أيضًا، لكن أبا سلمة ﷺ أبت عليه رجولته وشجاعته ورسوخ إسلامه، أن تكون هجرته إلى المدينة المنورة سرًّا من الأسرار، فكيف يستخفى بهجرته وهو الفارس المعلم والبطل المقدم.

لا لن يهاجر مستخفيًا، بل سيهاجر مستعلنًا تحت سمع قومه بنى مخزوم وبصرهم، أولئك الذين كانوا ينالون منه، ويؤذونه، ويستهزئون به، ويمنعه إسلامه أن يرد عليهم عداوتهم عليه، لأن السابقين الأولين كانوا مأمورين بالصبر والعفو، والاحتمال السمح المتكرم، وأبو سلمة من سَرَاةِ السابقين الأولين رضى الله عنهم.

كانت هجرة أبى سلمة إلى المدينة المنورة، قبل بيعة العقبة الكبرى بنحو سنة، ومن هنا كانت قصة هجرة أبى سلمة، وهجرة زوجه السيدة النبيلة أم سلمة مثلاً مضروبًا، ونموذجًا يحتذى، وأسوة تؤتسى فى مواقف الشجاعة، وقوة العقيدة، والوفاء، واحتمال الصبر، وما هنالك من معالى المكارم.

والآن، تعالوا نجلس فى بيت أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها، نستمع إلى حديث الهجرة ــ ولكن هذه المرة إلى المدينة المنورة ــ نستمع إلى أمنا وهى تكشف عن روائع الإيمان، وقوة نور اليقين، فى هجرتها، وهجرة زوجها أبى سلمة رضى الله عنهما.

تقول أم سلمة فى معرض حديثها عن المهاجرين والهجرة إلى رحاب المدينة المنورة: لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة، رحّل لى بعيره، ثم حملنى عليه،

وحمل معى ابنى سلمة بن أبى سلمة فى حجرى، ثم خرج بى يقود بعيره، فلما رأته رجال بنى المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيتك صاحبتك هذه، علام نتركك تسير فى البلاد؟ فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذونى منه، وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبى سلمة، فقالوا: والله لا نترك ابننا عندها إذ انتزعتموها من صاحبنا.. فتجاذبوا ابنى سلمة بينهم، حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحَبَسَنى بنو المغيرة عندهم.

وانطلق زوجى أبو سلمة إلى المدينة، ففرقوا بينى وبين زوجى، وبين ابنى، فكنت أخرج كل غداة، فأجلس بالأبطح، فلا أزال أبكى حتى أمسى، سنة أو قريبًا منها، حتى مر بى رجل من بنى عمى، أحد بنى المغيرة، فرأى حالى، فرحمنى فقال لبنى المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة فرقتم بينها وبين ولدها؟! فقالوا لى: الحقى بزوجك إن شئت، ورد بنو عبد الأسد إلىَّ عند ذلك ابنى، فارتحلت بعيرى، ثم أخذت ابنى فوضعته فى حجرى، ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة، وما معى من أحد من خلق الله، فقلت: أتبلغ بمنى لقيت حتى أقدم على زوجى .

ذروة المروءة ووفاؤها:

إن الأحداث الكبيرة التى مرت بها سيدتنا أم سلمة رضى الله عنها لدليل على همتها، وصدق إيمانها، وقد صدقت رضى الله عنها فى محنتها، فما قاسته فى التفريق بينها وبين زوجها، وما رأته فى نزع ابنها من حجرها حتى خُلِعَت يده، وما لزمته من خروجها إلى الأبطح نهارها تبكى سنة أو قريبًا منه، أمورٌ عظيمة، تغلبت بالصبر عليها، وقد احتملت وصبرت صبرًا جميلاً، حتى قيض الله عز وجل لها فرجًا.

ولنكمل رحلة الهجرة مع أم سلمة، وكيف لقيت من ذروة الوفاء، وقمة النخوة الرجولية، وكرم النفس من أحد الذين امتن الله عليهم بالإسلام فيما بعد وهو عثمان بن طلحة العبدرى الذى أثنت عليه أم سلمة ثناءً عطرًا سطرته أمهات المصادر، هذا الثناء يشهد له بالنبل والكرم والوفاء، تقول أم سلمة بعد أن غادرت مكة متوجهة تلقاء المدينة: حتى إذا كنت بالتنعيم، لقيت عثمان بن طلحة بن أبى طلحة أخا بنى عبد الدار.

فقال لى: إلى أين يا بنت أبى أمية؟.

فقلت: أريد زوجى بالمدينة.

قال: أوَما معك أحَد؟.

فقلت: لا والله، إلا الله، وبنىَّ هذا.

قال: والله ما لكِ مِنَ مَتْرك.

فأخذ بخطام البعير، فانطلق معى يهوى بى، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل، أناخ بى، ثم استأخر عنى، حتى إذا نزلت استأخر ببعيرى، فحط عنه، ثم قيده فى الشجرة، ثم تنحى إلى شجرةٍ، فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح، قام إلى بعيرى، فقدمه فرحله، ثم استأخر عنى، وقال: اركبى، فإذا ركبت، واستويت على بعيرى، أتى فأخذ بخطامه، فقاده حتى ينزل بى، فلم يزل يصنع ذلك بى، حتى أقدمنى المدينة، فلما نظر إلى قرية بنى عمرو بن عوف بقباء، قال: زوجك فى هذه القرية ــ وكان أبو سلمة بها نازلاً ــ فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعًا إلى مكة .

فكانت أم سلمة رضوان الله عليها تقول: والله ما أعلم أهل بيت فى الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة .

وتثنى أم سلمة رضى الله عنها على ذلك الرجل الشهم الكريم الذى أحسن صحبتها فتقول: ما رأيت صاحبًا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة .

وكان يقال: إن أم سلمة، أول ظعينة دخلت إلى المدينة المنورة مهاجرة .

وفى ربوع المدينة المنورة هبطت أم سلمة تعيش إلى جانب أبى سلمة، يعبدان الله تعالى، وينتظران قدوم النبى ﷺ لتكتمل فرحة انتصار المسلمين على طغيان قريش... وفى تلك الأثناء عكفت أم سلمة على رعاية أولادها وتربيتهم وتغذيتهم بحب الله عز وجل، وحب النبى ﷺ، فأولادها صحابيون حازوا شرف الصحبة النبوية وهم: زينب، وعمر، وسلمة، ودرة.

ولما كانت غزاة بدر، خرج زوجها أبو سلمة ليكون فى البدريين الذين مَنَّ الله عليهم بجنته، وكانوا خير أهل الأرض يومئذ.

مضى عام، فإذا المشركون يتجهزون لقتال المسلمين وذج المسلمون إلى أحدٍ، وهناك التقوا المشركين، وكان أبو سلمة ﷺ من الجنود الأوفياء فى الجيش المحمدى، وفى أحدٍ رماه أبو سلمة أسامة الجشمى بسهم فى عضده، ولما عاد المسلمون إلى المدينة مكث أبو سلمة شهرًا يداوى جرحه ويعالجه، وبجانبه زوجه الوفية أم سلمة، تقوم على رعايته وخدمته إلى أن برأ جرحه.

وكان شماس بن عثمان المخزومى ﷺ، قد حمل من أحدٍ إلى المدينة المنورة، وبه رمق، فأدخل على عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها، ورأت ذلك أم سلمة.

فقالت: ابن عمى يدخل إلى غيرى؟! .

فقال رسول الله ﷺ: احملوه إلى أم سلمة .

فحملوه إليها، فمات عندها، فأمر رسول الله ﷺ أن يُرَدّ إلى أُحُدٍ، فيدفن هناك، كما هو فى ثيابه التى مات فيها، وكان قد مكث يومًا وليلة، ولم يذق شيئًا، فلم يُصلِّ عليه رسول الله ﷺ ولا غسَّلَهُ.

دعوة مستجابة وعقبى صالحة:

انقضى شهران على غزاة أحدٍ، وبلغ رسول الله ﷺ أن بنى أسد، يدعون إلى مهاجمته ومحاربته فى داره بالمدينة، فأحب النبى ﷺ أن يباغتهم فى ديارهم، واختار لهذه المهمة أحد فرسان المسلمين، ترى من يكون هذا الفارس؟.

وقع اختيار النبى ﷺ على ابن عمته أبى سلمة المخزومى، فدعاه إليه، وعقد له لواء سريةٍ قوامها مائة وخمسون رجلاً من المهاجرين والأنصار، منهم أبو عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبى وقاص، وأمره بالانطلاق إلى بنى أسدٍ، وأوصاه قائلاً: سر حتى تنزل أرض بنى أسد، فأغِرْ عليهم قبل أن تلاقى عليك جموعهم كان أبو سلمة قد أصيب بجرح بالغ فى غزوة أحد ــ كما أسلفنا ــ وقد ضمده فالتأم، وكان التئامه من السطح، فلم يعبأ بجرحه ولم يلتفت له، وخرج لينفذ أمر رسول الله ﷺ، وسار بسريته، وأغذَّ السير حتى انتهى إلى مكان العدو، فأخذهم على غرّة، وأحاط بأعداء الله، وأعداء رسوله فى عماية الصبح، وراحت السيوف المؤمنة تضرب منهم كل بنانٍ، وتطايرت السهام من الأيدى المؤمنة، لتستقر فى أفئدة القوم الظالمين، واستمات المسلمون فى

القتال، وأبلوا بلاءً حسنًا، فقد كانوا يشعرون أن هذه المعركة التى يخوضونها معركة ذات أهمية كبيرة، فالنصر فيها يغسل عنهم هزيمة أحد، ويعيد ما ضيعت أحد من هيبة المسلمين بين القبائل المحيطة بالمدينة، وغيرها من القبائل التى سولت لها أنفسها أن تعتدى على حرم المدينة.

ارتفعت صيحات المسلمين تهتف: الله أكبر الله أكبر، وراح أبو سلمة يصول ويجول حتى أجهده النضال، فنغر جرحه وانتقض، وهو لا يأبه به حتى تم النصر المبين لأفراد سريته، وساقوا الغنائم والإبل والشاة، إلى المدينة المنورة، وكانت فترة غيابهم تسعًا وعشرين ليلة.

عاد المسلمون المجاهدون لثمانٍ خلون من صفر من السنة الرابعة للهجرة، وفى ركابهم النصر، ولكن الوجوه كانت حزينة، فأبو سلمة قائد السرية مريض قد ذبل، وأنهكه جرحه، ودخل على أهله، وهو ينوء بحمل الآلام، فاستقبلته أم سلمة رضى الله عنها خافقة القلب،، وكادت تندُّ منها صرخة يأس حينما رأت حال أبى سلمة وآلامه.

وسُجِّىَ أبو سلمة فى فراش الموت، فجاء رسول الله ﷺ ليعوده، فألفاه يجود بالأنفاس الأخيرة، فبقى إلى جواره يدعو له بخيرٍ حتى صَعِدت روحه إلى الله عز وجل وهو يدعو: اللهم اخلفنى فى أهلى بخير .

وأغمض ﷺ بيده الشريفة عينى أبى سلمة ثم دعا له، وكبر عليه تسع تكبيرات، فقيل له: يا رسول الله، أسهوت أم نسيت؟ .

فقال: لم أسه، ولم أنس، ولو كبرت على أبى سلمة ألفًا، كان أهلاً لذاك .

والحقيقة، فقد كان أبو سلمة ﷺ واحدًا من الرجال الفضلاء ومن عقلائهم الذين يدركون معنى الحياة الكريمة فقد أوصى أم سلمة وصية كريمة جعلتها من سادة النساء وساداتهم، بل أمًا للمؤمنين، وعندما أصبحت أم المؤمنين اغتبطت أيما اغتباط وصار لها شأن وأى شأن.

ذكرت المصادر أن أم سلمة قالت لأبى سلمة رضى الله عنهما: بلغنى أنه ليس امرأة يموت زوجها، وهو من أهل الجنة ثم لم تزوج، إلا جَمَعَ الله بينهما فى الجنة، فتعال أعاهدك ألا تزوج بعدى، ولا أتزوج بعدك قال أبو سلمة: أتطيعيننى ؟.

قالت أم سلمة: نعم فقال: إذا مت تزوجى .

ثم رفع يديه داعيًا الله عز وجل: اللهم ارزق أم سلمة بعدى رجلاً خيرًا منى لا يحزنها ولا يؤذيها .

قضى أبو سلمة ﷺ نحبه، فلما مات قالت أم سلمة رضى الله عنها: من خير من أبى سلمة ؟ ولم تلبث أم سلمة رضى الله عنها مديدة؟ حتى جاء خير من أبى سلمة، جاء رسول الله ﷺ فقام على الباب، وذكر الخطبة إلى ابنها، فقالت: أردُّ على رسول الله ﷺ، أو أتقدم إليه بعيالى؟! [1].

لكن الله عز وجل قدر أن تكون أم سلمة إحدى أمهات المؤمنين، تنتظم فى عقدهن، وقد استجيب دعاؤها ودعاء زوجها أبى سلمة رضى الله عنهما وأرضاهما.

فعن أم سلمة رضى الله عنها قالت: لما توفى أبو سلمة، أتيت النبى ﷺ فقلت: كيف أقول؟ قال: قولى: اللهم اغفر لنا وله، واعقبنى منه عقبى صالحة، فأعقبنى الله محمدًا ﷺ [2].

إلى رحاب أمهات المؤمنين:

مضى أبو سلمة إلى ربه، وخلف زوجه أم سلمة، وقد استجاب الله عز وجل دعاءهما، واعتدت أم سلمة عدتها فلما انتهت عدتها، تم أمرُ الله عز وجل، وغدت أم سلمة فى رحاب البيت النبوى الشريف ومن أمهات المؤمنين.

تذكر المصادر الحديثية، وكتب السيرة، والطبقات، خبر الزواج الميمون، فتقول:

لما انقضت عدة أم سلمة رضى الله عنها، تقدم إليها أبو بكر الصديق وخطبها، فلم تتزوجه، وردته فى رفقٍ، ثم تقدم إليها عمر الفاروق يخطبها فردته بحجة أنها مسنة، وأن معها أولادًا صغارًا، وبعث إليها رسول الله ﷺ يخطبها، فإذا بالسرور يغمر قلبها، فهو شرف عظيم ومقام كريم أن تصبح زوج رسول الله ﷺ وتغدو أم المؤمنين، غير أنه مر بخيالها عائشة بنت أبى بكر، وحفصة بنت عمر، وهما شابتان عند رسول الله

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٠٣) وطبقات ابن سعد (٨/ ٨٨) بتصرف.

(٢) رواه مسلم (٩١٩) أبو داود (٣١١٥) الترمذى (٩٧٧).

ﷺ، فتحركت إذ ذاك غيرتها، وبعثت إلى رسول الله ﷺ بقولها: إنى امرأة غيرى، ومسنة، وإنى مصبية، وليس أحد من أوليائى شاهدًا وبعث إليها رسول الله ﷺ بأنه سيدعو الله عز وجل أن يذهب غيرتها وأن سنه أكبر من سنها، وأن الله عز وجل سيكفيها صبيانها، وهم على الله ورسوله، وأما أولياؤها فليس أحد منهم إلا سيرضى رسول الله ﷺ.

وعند ذلك قالت لابنها: قم فزوج رسول الله ﷺ فزوجها، وكان هذا الزواج الميمون فى شهر شوال من السنة الرابعة من الهجرة النبوية الشريفة (١).

عرفت عائشة رضى الله عنها، أن النبى ﷺ تزوج أم سلمة رضى الله عنها، فحزنت حزنًا شديدًا، لما ذكر لها من جمالها، فتلطفت حتى رأتها، فرأت أضعاف ما وصفت به، فذهبت إلى حفصة بنت عمر — وكانت عرى الصداقة موثقة بينهما — وأخذت تتحدث عن أم سلمة، وعن جمالها، فقالت حفصة: لا والله، إن هذه الغيرة ما هى كما تقولين، وإنها لجميلة .

وطفقت حفصة تتحدث عن تقدم أم سلمة فى السن، وأن جمالها بقايا من بقايا، وإذ ذاك عادت الثقة إلى نفس عائشة، فرأتها بعد ذلك، فكانت كما قالت حفصة، ولكنها كما قالت عائشة نفسها عن نفسها بأنها امرأة غيرى(٢) .

أم سلمة فى كنف النبى ﷺ:

ما رأيكم أن نشهد الساعات الأولى لأم سلمة فى البيت النبوى الطاهر؟!.

لقد شرعت منذ اللحظات الأولى تقوم بشئون البيت النبوى، اسمع ما يقوله عنها المطلب بن عبد الله بن حنطب: دخلت أيم العرب — أم سلمة — على سيد المرسلين أول العشاء عروسًا، وقامت آخر الليل تطحن (٣) .

هذه البدايات الأولى لأم سلمة، فى البيت الذى أذهب الله عنه الرجس، وطهره تطهيرًا، وماذا بعد من إشراقات أمنا أم سلمة؟!.

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٣١٣، ٣١٤) النسائى (٦/ ٨١، ٨٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٠٩) بتصرف.

(٣) طبقات ابن سعد (٨/ ٩٢) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٠٥).

هناك كثير من المواقف الكريمة اللطيفة التى تشير إلى حسن رأيها، وفهمها للأمور فهمًا سليمًا، مراعية بذلك أمر رسول الله ﷺ.

ذكر الإمام مالك رحمه الله ما يشير إلى حصافة رأى أم المؤمنين أم سلمة قال: لما بنى رسول الله ﷺ بأم سلمة قال: ليس بك على أهلك هوان، إن شئت سبعت لك، وسبعت عندهن ــ يعنى نساءه ــ وإن شئت ثلاثًا، ودرت ؟ قالت: ثلاثًا [1].

لقيت أم سلمة رضى الله عنها كل رعاية فى رحاب العطف المحمدى، كما لقى أولادها كل حب وحنو من الحبيب المصطفى ﷺ، وكانت أم سلمة قد جاءت بطفلتها زينب إلى بيت النبى ﷺ، فكان يأتى أم سلمة ويقول: أين زناب ؟ وكان الحبيب المصطفى ﷺ يداعب الطفلة زينب ويغمرها بعطفه وحنانه، إلا أن عمار بن ياسر وكان أخو أم سلمة من الرضاعة جاء يومًا فانتزع زينب من حجر أمها وهو يقول: دعيها فقد آذيت بها رسول الله ﷺ فأخذها عند ذلك والتمس لها مرضعًا.

شغلت أم سلمة بيت زينب أم المساكين رضى الله عنهما، وأخذت تسعى لمرضاة الله عز وجل، ومرضاة رسوله ﷺ، وقد تمتعت بمكانة رفيعة عند النبى ﷺ، وذلك لما كان يرى منها من شدة العناية به، وملاحظة رضاه فى كل شىء، ولم يؤثر عنها، أنها خالطت أمهات المؤمنين بالغيرة منهن، مع أنها ــ كما أسلفنا ــ كانت تخشى الغيرة على نفسها، إلا أن الله عز وجل قد أذهب غيرتها ببركة دعاء النبى ﷺ، فلم تعد تغار من الضرائر، وشفى نفسها، وأقر عينها أن ابنتها زينب ربيبة النبى ﷺ، فقد أضحت من أفقه نساء اهل زمانها، ببركة النبى ﷺ، فكان إذا ذكرت امرأة بالمدينة فقيهة، ذكرت زينب بنت أبى سلمة ربيبة المصطفى ﷺ.

وقد شهد ابن عبد البر رحمه الله زينب بالفقه فقال: كانت زينب من أفقه نساء زمانها.

---

(١) رواه مسلم (١٤٦٠) أبو داود (٢١٢٢).

أمُّ سَلَمَةَ منْ أهْل الْبَيْت:

إن نساء أهلَ البيتَ النبوىَ رضوان الله عليهن، لَسْنَ كأحدٍ من النساء فى الفضيلة والفضل والشرف والتقوى، لما منحهنَّ الله عز وجل من صحبة النبى ﷺ الكريم، وعظيم المحل منه، ونزول القرآن الكريم، والذكر الحكيم فى حقهن، قال الله عز وجل:

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٣٣).

قال الزجاج رحمه الله: يراد به نساء النبى ﷺ .

وقيل: «يراد به نساؤه وأهله الذين هم أهل بيته .

قال القرطبى رحمه الله: الذى يظهر من الآية أنها عامة فى جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم، وإنما قال: ويطهركم لأن رسول الله ﷺ وعليًا وحسنًا وحسينًا كان فيهم، وإذا اجتمع المذكر، والمؤنث غُلِّبَ المذكر، فاقتضت الآية أن الزوجات من أهل البيت، لأن الآية فيهن، والمخاطبة لهن، يدل عليه سياق الكلام (١).

وقال الإمام فخر الدين الرازى رحمه الله: إن الله بقوله: ﴿ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ ﴾ليدخل فيه نساء أهل بيته ورجالهم، واختلفت الأقوال فى أهل البيت، والأولى أن يقال: هم أولاده، وأزواجه، والحسن والحسين منهم، وعلىٌّ منهم، لأنه من أهل بيته، بسبب معاشرته ببنت النبى، وملازمته للنبى ﷺ (٢).

وأم سلمة رضى الله عنها واحدة من أمهات المؤمنين، اللواتى سماهن الله عز وجل: أمهات المؤمنين فقال سبحانه: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ ﴾ (الأحزاب: ٦) ولهذه الأمومة الكريمة تكاليفها، وللمرتبة السامية الباسقة التى استحققن بها هذه الصفة تكاليفها، ولمكانتهن من رسول الله ﷺ تكاليفها، ولذلك قال الله عز وجل فى فضلهن: ﴿ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ ﴾ إلى قوله: وَأَقِمْنَ ﴿ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ ﴾ (الأحزاب: ٣٢ - ٣٤) فهذه آيات شريفة فى زوجات نبينا ﷺ.

---

(١) تفسير القرطبى (١٨٣/٤).

(٢) التفسير الكبير (١٨١/٢٥).

وذكر عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾.

قال: نزلت فى نساء النبى ﷺ، ثم قال عكرمة: من شاء باهلته أنها نزلت فى نساء النبى ﷺ خاصة.

وبهذا نجد أن البيت النبوى الطاهر، هو المقصود بالطهارة، وهذا تكريم من الله عز وجل، وتشريف واختصاص عظيم، إذ يتولى الله سبحانه بذاته العلية تطهيرهم، وإذهاب الرجس عنهم، وهى رعاية علوية مباشرة بأهل البيت العظيم، الذى اختصه البارى بالخير العميم، وفضله على بيوت الدنيا تفضيلاً.

وفى بيت أم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنها نزلت هذه الآية الكريمة: إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٣٣).

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله فى تفسيره: وهذا نص فى دخول أزواج النبى ﷺ فى أهل البيت هاهنا، لأنهن سبب نزول هذه الآية [(١)].

ونقل عن ابن عباس رضى الله عنهما قوله: إنها نزلت فى نساء النبى ﷺ خاصة .

وعلق ابن كثير رحمه الله على هذا القول تعليقًا كريمًا مجودًا يشير إلى سعة أفقه وفهمه، فقال: فإن كان المراد أنهن كن سبب النزول دون غيرهن فصحيح، وإن أريد أنهن المراد فقط دون غيرهن ففى هذا نظر .

ويدل ابن كثير رحمه الله على أن أهل البيت النبوى، معروفون كالشمس فى الظهائر، فأزواجه الطاهرات رضى الله عنهن من آله الطاهرين، ويشير ابن كثير رحمه الله إلى التدبر فى الذكر الحكيم لمعرفة ذلك فيقول: ثم الذى لا شك فيه أنه من تدبر القرآن وفهمه، وأن نساء النبى ﷺ داخلات فى قوله تعالى: إِنَّمَا ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٣٣) فإن سياق الكلام معهن، ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: وَٱذْكُرْنَ ﴿ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٥١).

ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ (الأحزاب: ٣٤) أى: واعملن بما ينزل الله تبارك وتعالى على رسوله، فى بيوتكم من الكتاب والسنة واذكرن هذه النعمة التى خصتن بها من بين الناس أن الوحى ينزل فى بيوتكم دون سائر الناس .

ويتابع ابن كثير قوله: وعائشة الصديقة بنت الصديق رضى الله عنهما، أولاهن بهذه النعمة، وأحظاهن بهذه الغنيمة، وأخصهن من هذه الرحمة العميمة، فإنه لم ينزل على رسول الله ﷺ الوحى فى فراش امرأة سواها كما نص على ذلك صلوات الله وسلامه عليه .

قد بلغت أزواج النبى ﷺ، هذه المنزلة السامية بلطف الله عز وجل بهن، وبخبرته بهن، حيث إنهن أهل لذلك الفضل منه، فقد جعلهن فى بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة، وكان جل شأنه بهن خبيرًا، إذ اختارهن لرسوله أزواجًا، وكرمهن فى البيت النبوى، فصرن يعرفن ﴿ أَهْلَ ﴾ ٱلْبَيْتِ وأهل البيت هنا فى سياق الآية: نصب على النداء أو على المدح.

قال القاسمى رحمه الله فى تفسيره: والمراد بهم من حواهم بيت النبى ﷺ (١).

وذكر أبو السعود رحمه الله فى تفسيره معلقًا على أهل البيت، ومن هم؟ فقال: وهذه كما ترى آية بينة، وحجة نيرة، على كون نساء النبى ﷺ من أهل بيته .

وقد تساءل القاسمى رحمه الله فى تفسيره بقوله: قد تنازع الناس فى آل محمد ﷺ من هم؟! .

وأورد أقوالاً عديدة خلص منها إلى القول الآتى: بأن الصحيح أن أزواجه من آله، فإنه قد ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه علمهم الصلاة عليه: اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته ولأن امرأة إبراهيم من آله وأهل بيته، وامرأة لوط من آله وأهل بيته، بدلالة القرآن، فكيف لا يكون أزواج محمد من آله وأهل بيته؟! ولأن هذه الآية تدل على أنهن من أهل بيته، وإلا لم يكن لذكر ذلك فى الكلام معنى ويمكننا أن

---

(١) تفسير القاسمى (٣/ ٢٥٠).

نقول الآن: إن زوجات النبى الطاهرات كلهن من أهل البيت الذى أذهب الله عنه الرجس وطهره تطهيرًا .

ويظهر أن أمنا أم سلمة رضى الله عنها كانت تفخر على نساء أهل البيت بشرف نزول هذه الآية الكريمة فى بيتها، وبذلك تكون قد شاركت الصديقة بنت الصديق عائشة بهذه المكرمة العظيمة، حيث كان الوحى ينزل على الحبيب المصطفى ﷺ فى بيتها.

ومن مكارم أم سلمة رضوان الله عليها، أن النبى الكريم ﷺ كان يؤدى الصلاة فى بيتها، وقد شهد شاهد من أهلها بهذا، وهو ابنها عمر بن أبى سلمة حيث قال: رأيت النبى ﷺ يصلى فى بيت أم سلمة فى ثوب واحد، متوشحًا به، واضعًا طرفيه على عاتقه .

أُمُّ سَلَمَة تَحْملُ بشَارةً ربَّانيّةً ونَبويةً:

لأم سلمة رضى الله عنها مكارم لم تكن إلا لها، كأن هذه المكارم قد اختصت بها من لدن حكيم خبير، فقد حملت بشارة التوبة لأكثر من صحابى كريم، إذ كان يتنزل القرآن الكريم على النبى ﷺ وهو عندها ليبشر بتوبة الله على عباده المؤمنين، وتنقل أمنا أم سلمة هذه البشارة إلى أصحابها، ونحن مرسلوا القول فى هذا بمشيئة الله.

ففى غزوة بنى قريظة، أبى رسول الله ﷺ إلا أن ينزل يهود قريظة على حـكمه ــ بعد أن خانوا الله ورسوله ــ فأرسلوا إليه أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر الأنصارى لنستشيره فى أمرنا، وكانوا حلفاءه.

فذهب إليهم أبو لبابة، فلما رأوه، قام إليه الرجال، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه، فرقَّ لهم، وقالوا له: ما ترى، أننزل على حكم محمد؟ .

فقال أبو لبابة: نعم فانزلوا وأومأ إلى حلقه بالذبح.

وفى اللحظة ذاتها شعر أبو لبابة، أنه خان الله ورسوله، فندم وقال فى خوفٍ شديد: إنا لله وإنا إليه راجعون وسربله الندم، وساورته الهموم، وجعل ضميره يؤنبه، ويخزه وخزًا شديدًا، فقال له أحد أحبار اليهود: ما لك يا أبا لبابة؟ .

قال فى صوت متهدج وقد غلفه الندم: خنت الله ورسوله .

وملأت الدموع عينيه، ثم انطلق راجعًا على وجهه، فلم يذهب إلى رسول الله ﷺ وإنما ذهب إلى المسجد النبوى الشريف، وكان الحر شديدًا يومذاك، ولكن النار التى تتلظى فى جوفه كانت أشد حرًّا، وأعظم شرًّا، ففكرة أنه خان الله ورسوله كانت تلسعه لسعًا يعذبه ولا يكاد يطيق نفسه.

ارتبط أبو لبابة بالمسجد إلى عمود من عمده بسلسلة ثقيلة، وكان العمود عند باب أم المؤمنين أم سلمة، وكان أكثر تنقل رسول الله ﷺ عند ذلك العمود، وكان ما فعله أبو لبابة غير مألوف، فخف إليه أناس من المسلمين يسألونه الخير، فقال فى تأثر وانفعال: والله لا أذوق طعامًا ولا شرابًا حتى أموت، أو يتوب الله علىَّ مما صنعت .

ظل أبو لبابة مرتبطًا فى العمود تأتيه امرأته أو ابنته فتحله للصلاة، ثم يعود فيرتبط، وأقام على ذلك بضع ليال، وجعل أبو لبابة يرهف سمعه لعله يسمع توبة الله عليه، فقد كان على يقين من أن الله يغفر الذنوب جميعًا، وأنه هو الغفور الرحيم...

نزلت توبة أبى لبابة من فوق سبعة أرقعة... بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ وَءَاخَرُون ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة: ١٠٢) وقد نزلت توبة أبى لبابة على رسول الله ﷺ، وهو فى بيت أم سلمة فقالت أم سلمة رضى الله عنها: فسمعت رسول الله ﷺ من السحر وهو يضحك فقالت له: مم تضحك يا رسول الله ﷺ أضحك الله سنك؟ .

قال: تِيْبَ على أبى لبابة .

قالت أم سلمة: أفلا أبشره يا رسول الله؟ .

قال: إن شئت .

فقامت أم سلمة على باب حجرتها ــ وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب ــ فقالت: يا أبا لبابة، أبشر فقد تاب الله عليك .

فقالت أم سلمة: فثار الناس، وأسرعوا إليه ليطلقوه، ولكن أبا لبابة أبى، وقال: لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يطلقنى بيده الشريفة.

وبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فلما مر عليه خارجًا إلى صلاة الصبح أطلقه، وغمر السرور أبا لبابة بأن تجاوز الله عز وجل عنه بما أسرف.

صار المسلمون يتلون فى بيوت الله ما أنزل الله فيه: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾ رَّحِيمٌ .

(التوبة: ١٠٢)

وفى غزاة تبوك كان لأم سلمة رضى الله عنها مكرمة أخرى، فقد تخلف ثلاثة من الصحابة الكرام عنها، وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وكان رسول الله ﷺ، عند أم المؤمنين أم سلمة، لما نزل فى شأن هؤلاء الصحابة الثلاثة قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (التوبة: ١١٨) .

وقد صور القرآن الكريم حالة هؤلاء النفر، وما هم فيه بسبب تخلفهم عن رسول الله ﷺ، فأخبر الله سبحانه وتعالى أن الأرض على سعتها، ضاقت عليهم، وهو مثل للحيرة كأنهم لا يجدون فيها مكانًا يقرون فيه بسبب القلق والجزع الذى يملأ نفوسهم، كما ضاقت عليهم قلوبهم، فأصبح لا يسعها أنس ولا سرور لأنها خرجت من فرط الوحشة والغم.

روى أحد أولئك النفر الثلاثة، وهو كعب بن مالك خبر تخلفه وصاحبيه عن رسول الله ﷺ، وعن إحسان أم سلمة إليه، واعتنائها بأمره، وعن نزول الوحى عندها، فقال فى حديث طويل جاء فى الصحيحين وكتب الحديث والسيرة، فلنسمتع إلى فقرات كاشفة من هذا الحديث.

عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه قال: سمعت أبى كعب بن مالك، وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم: أنه لم يتخلف عن رسول الله ﷺ، فى غزوة غزاها قط غير غزوتين: غزوة العسرة، وغزوة بدر، قال: فأجمعت صدق رسول الله ﷺ ضحى، وكان قلما يقدم من سفر سافر إلا ضحى، وكان يبدأ بالمسجد فيركع ركعتين، ونهى النبى ﷺ عن كلامى وكلام صاحبى، ولم ينه عن كلام أحدٍ من المتخلفين غيرنا، فاجتنب كلامنا الناس فلثبت كذلك حتى طال علىَّ الأمر، وما من شىء أهم إلىَّ من أن أموت فلا يصلى علىَّ النبى ﷺ، أو يموت رسول الله ﷺ فأكون

من الناس بتلك المنزلة، فلا يكلمنى أحد منهم، ولا يصلى علي، فأنزل الله توبتنا على نبيه ﷺ حين بقى الثلث الآخر من الليل، ورسول الله ﷺ عند أم سلمة، وكانت أم سلمة محسنة فى شأنى، معنية فى أمرى، فقال رسول الله ﷺ يا أم سلمة تِيْبَ على كعب .

قالت: أفلا أرسل إليه فأبشره؟.

قال: إذًا يحطمكم الناس فيمنعونكم النوم سائر الليلة، حتى إذا صلى رسول الله ﷺ صلاة الفجر، آذن بتوبة الله علينا... الحديث(١).

وقد كسبت أم سلمة هذه الفضيلة الأخرى.

وكان لأمنا أم سلمة رضى الله عنها فضيلة أخرى فى هذا المجال من قبل، وذلك أيام فتح مكة المكرمة، إذ كلمت رسول الله ﷺ فى اثنين من الذين كانوا يؤذون رسول الله ﷺ، وهما: أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة، فقد لقيا رسول الله ﷺ، بموضع بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه، فكلمته أم سلمة رضى الله عنها فيهما، ورحبت أن يصفح عن زلتهما فيما مضى، فقالت: يا رسول الله لا يكن ابن عمك، وابن عمتك وصهرك أشقى الناس بك قال:

لا حاجة لى بهما، أما ابن عمى فهتك عرضى، وأما ابن عمتى فهو الذى قال لى بمكة ما قال فلما بلغها قوله، قال أبو سفيان بن الحارث: والله لتأذن لى، أو لآخذن بيد بنى هذا، ثم لنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشًا وجوعًا .

وعندما بلغ ذلك الحبيب المصطفى ﷺ رق لهما، وأذن لهما، فدخلا وأسلما، وإذ ذاك سرت أم سلمة بانضمام هذين الرجلين إلى دوحة الإسلام.

ومما يشبه هذا فى شفاعتها وبشارتها للناس، ما ورد أنها ترضت رسول الله ﷺ على أخيها المهاجر بن أبى أمية، الذى استعمله ﷺ على كِندة، وكان قد تخلف بتبوك، فرجع رسول الله ﷺ، وهو عاتب عليه، فبينما أم سلمة رضى الله عنها تغسل رأس النبى ﷺ قالت: كيف ينفعنى عيش وأنت عاتبٌ على أخى؟ فرأت من النبى ﷺ رقة، فأومأت إلى خادمها، فدعت أخاها، فلم يزل النبى ﷺ يذكر عذره حتى رضى الله عنه، واستعمله على كندة، فتوفى النبى ﷺ، ولم يسر إلى عمله، ثم سار بعده.

---

(١) رواه البخارى (٤٦٧٧) مسلم (٢٧٦٩) أبو داود (٤٦٠٠) الترمذى (٣١٠١) النسائى (٢/ ٥٣).

وهكذا كانت أم المؤمنين أم سلمة سباقة فى هذا المضمار النفيس، الذى يشير إلى علو همتها، وإلى صفاء نفسها وكرامتها رضى الله عنها.

أمُّ سَلَمَة والجهاد ورَأيها المَيْمُون:

من يسر الإسلام، التخفيف عن غير القادرين على القيام ببعض التكاليف الشرعية، ومن ذلك أنه خفف عن المرأة، فلم يكلفها بأعباء القتال، لضعف بنيتها الجسدية، ولذلك سمح لها بأعمال توافق حالها كالسقى، وتجهيز الطعام، ومداواة الجرحى، ونحو ذلك من خدمات ميدانية.

كُتِبَ لأم سلمة رضى الله عنها شرف الجهاد، وشرف صحبة النبى ﷺ فى مغازيه، فقد حضرت معه عددًا من غزواته، فكانت معه فى صلح الحديبية فى غزوة المريسيع، وفى غزاة خيبر، وفى فتح مكة، وفى حصار الطائف، وفى غزوة هوازن وثقيف، وصحبته كذلك فى حجة الوداع.

وكان لأم سلمة رضى الله عنها بعض الآثار المحمودة، والمواقف المذكورة فى غزواتها، ولعل موقفها الباهر وجزالة رأيها الزاهر فى قصة الحديبية، يشير إلى كرامتها ويمن رأيها، وسعة أفقها، ونظرتها إلى الأمور بميزان الشريعة.

ففى المدينة المنورة، رأى النبى ﷺ فى الرؤيا أنه دخل مكة، هو وأصحابه آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين، وأنه دخل البيت وأخذ مفتاحه، وطاف هو وأصحابه مع الطائفين...

ولما قضيت صلاة صبح ليلة الرؤيا، جعل رسول الله ﷺ يقص على أصحابه رؤياه وهو بادى البشر، وقد ألقوا إليه سمعهم مستبشرين فرحين بهذه المنة العظمى من الله عز وجل فى هذا الصباح الجميل المونق، فقد صاروا جميعًا موقنين أن الفتح قريب، فرؤيا الأنبياء وحى وتعد إخبارًا بما سيكون.

وخرج رسول الله ﷺ لأداء العمرة، وخرجت معه زوجه أم سلمة، وأم عمار المازنية، وأم منيع الأنصارية، وأم عامر الأشهلية وغيرهن، وخرج معه المهاجرون والأنصار، وأحرموا بالعمرة، وارتفعت التلبية من أعماق القلوب تشق صمت الصحراء

ما بين المدينة ومكة: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك، والملك لا شريك لك... .

ولكن قريشاً ركبت رأسها، وصعرت خدها، وأرهفت حدها ومنعت المسلمين من أداء عمرتهم، ثم جرت مفاوضات أعقبها صلح بين المسلمين والمشركين، وكانت الهدنة المعروفة بصلح الحديبية، والمشهورة بتفاصيلها فى كتب التفسير والحديث والسيرة والتاريخ والمغازى...

وكان أصحاب رسول الله ﷺ قد خرجوا، وهم لا يشكون فى الفتح بعد أن قص عليهم رؤياه، فلما انتهى الأمر بالهدنة، وعودة المسلمين إلى ديارهم دون أداء العمرة هذا العام دخل الناس أمر عظيم، حتى إن عمر بن الخطاب ﷺ قال فيما ورد فى الصحيح: «والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ، فأتيت النبى ﷺ.

فقلت: يا رسول الله ﷺ، ألست نبى الله؟.

قال: بلى .

قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟.

قال: «بلى .

قلت: فلم نعطى الدنية فى ديننا إذاً؟.

قال: إنى رسول الله، ولست أعصيه وهو ناصرى .

قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف حقاً؟.

قال: بلى أفأخبرتك أنك تأتيه هذا العام ؟.

قلت: لا.

قال: فإنك آتية ومطوف به .

قال: فأتيت أبا بكر...

قلت: يا أبا بكر، أليس هذا حقاً نبى؟.

قال: بلى .

قلت: فلم نعطى الدَّنيَّةَ فى ديننا إذاً؟.

قال: أيها الرجل، إنه رسول الله، وليس يعصى الله، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه حتى تموت، فوالله إنه لعلى الحق .

قلت: أوليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟.

قال: بلى، فأخبرك أنك تأتيه العام؟.

قلت: لا.

قال: فإنك آتية ومطوف به... .

ولم يكن الصحابة الكرام رضوان الله عليهم فى ذلك اليوم على شك من شيء وإنما ظنوا أنهم قد بُخسوا حقهم مع المشركين، وهم المنتصرون الغالبون المتمسكون بحبل الله عز وجل، ولذلك توجه إليهم رسول الله ﷺ وقال لهم: قوموا فانحروا ثم احلقوا .

إنهم يسمعونه ويرونه، ولكنهم سمعوه مرة ثانية يقول: قوموا فانحروا ثم احلقوا ثم كرر ذلك ثلاث مرات، فلم يقم منهم أحد، فلما لم يقم منهم أحد، دخل النبى ﷺ على أم سلمة، فاضطجع.

فقالت: ما لك يا رسول الله؟ .

فذكر لها أنه أمر الناس بالأمر، فلم يفعلوه، وأمرهم بالحلق والنحر مرارًا فلم يجيبوه، وهم يسمعون كلامه، وينظرون إلى وجهه الشريف.

فقالت أم سلمة رضى الله عنها: أتحب ذلك – أى أن يطيعك أصحابك فيما تأمرهم به – فأشار ﷺ أن نعم قالت: اخرج، ثم لا تكلم أحدًا حتى تنحر بُدْنَكَ، ثم تدعو بحالقك، فيحلقك.

فقام ﷺ، وأخذ الحربة، وقصد هديه، وأهوى بالحربة إلى البدن رافعًا صوته: باسم الله والله أكبر ثم دخل ﷺ قبة له من أدم أحمر، ودعا بخراش بن أمية بن الفضل الخزاعى فحلق رأسه.

فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا.

وبهذا نجا الصحابة الكرام من مخالفة الحبيب المصطفى ﷺ، وذلك ببركة رأى أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها التى تذكرنا بمواقف أم المؤمنين خديجة عليها

سحائب الرضوان، وإن نسى التاريخ، فلا ينسى مواقف أم سلمة رضى الله عنها، وخصوصًا رأيها الميمون فى ذلك اليوم الذى يقرن باسمها كلما ذكر يوم الحديبية ومن المكارم التى اختصت بها أمنا أم سلمة رضى الله عنها، أنها رأت جبريل عليه السلام فى صورة دحية الكلبى رضي الله عنه.

ورد عن سيدنا سلمان الفارسى رضي الله عنه قال: أنبئت أن جبريل عليه السلام، أتى نبى الله ﷺ وعنده أم سلمة، فجعل يتحدث، ثم قام، فقال نبى الله لأم سلمة: من هذا؟ أو كما قال، قالت: هذا دحية الكلبى، قالت: كما حسبته إلا إياه، حتى سمعت خطبة نبى الله يخبر خبرنا، أو كما قال .

ومن مكارم أم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنها، أنها كانت تحتفظ بخصلةٍ من شعره الشريف وكان شعره ﷺ مخضوبًا بالحناء.

فصاحة أم سلمة وأدبها:

أمنا أم سلمة رضى الله عنها واحدة من النساء اللواتى حفظ الدهر مقامهن، واحتفظ بأثارة من أقوالهن التى تجرى مجرى الحكمة، وهى واحدة من النساء ممن كن يقرأن ولا يكتبن، وهذا مما زاد فى رصيدها العلمى والمعرفى والبلاغى.

وتعود مصادر الفصاحة عند أم سلمة إلى ثقافتها الكبيرة التى نهلتها من القرآن الكريم، إذ أنه منبع الفصاحة وسلسبيل البيان، ثم زودت فصاحتها بكلام النبوة، والأدب النبوى الذى غُذيت به.

كانت رضى الله عنها إحدى نساء قريش المعدودات فصاحةً وبيانًا، وقد أثر عنها أنها كانت تقرض الشعر أحيانًا، ومما روى عنها، أنها رثت ابن عمها الوليد بن المغيرة رضى الله عنها قالت:

يا عينُ فابكى للوليـــ	ـــد بن الوليد بن المغيرة
قد كان غيثًا فى السنيـــ	ـــن ورحمة فينا وميرة
ضخم الدَّسيعة ماجدًا	يسمو إلى طلب الوتيرة
مثل الوليد بن الوليد	أبى الوليد كفى العشيرة

فسمع النبى قولها، فقال: ما اتخذت الوليد إلا حنانًا فسموه عبد الله .

ولعلك قرأت حديث الهجرة الذى مر معنا، ولاحظت فصاحة أمنا أم سلمة رضى الله عنها وبلاغتها، ومرت معك جملاً من روائع قولها، وبدائع لفظها، حينما قالت عن النجاشى: أقمنا عنده بخير دار، مع خير جار .

وقولها: أمِنًا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نؤذى ولا نسمع شيئًا نكرهه .

ولأم سلمة رضى الله عنها كلام يفيض فقهًا وعلمًا، ويسيل أدبًا وعذوبة، كأنه خرج من نبع النبوة، اسمع قولها: من خرج فى طاعة الله فقال: اللهم إنى لم أخرج أشرًا ولا بطرًا، ولا رباء، ولا سمعة، ولكنى خرجت ابتغاء مرضاتك واتقاء سخطك، فأسألك بحقك على جميع خلقك أن ترزقنى من الخير أكثر مما أرجو، وتصرف عنى من الشر أكثر مما أخاف، استجيبت له بإذن الله .

ولما توفيت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، حضرت أم سلمة وفاتها، وجعلت تقول: رحمك الله، وغفر لك، وعرفينكِ فى الجنة .

والأمثلة كثيرة على فصاحة أمنا أم سلمة، وقد جاء بعضها فى غضون كلامنا عن سيرتها المونقة المبهجة.

العَالِمَة رَاوِيَةُ الحَدِيثِ:

أم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنها، إحدى النساء اللاتى أكثرن الرواية عن رسول الله ﷺ، ولم يتقدمها فى الرواية من نساء النبى ﷺ سوى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها.

وأم سلمة رضى الله عنها قد وعت الحديث الشريف، وتفقهت بأمور الدين والشريعة الغراء، حتى كانت تعد من فقهاء الصحابيات، ومن اللواتى يرجع إليهن فى بعض الأمور والأحكام والفتاوى، وخصوصًا فيما يخص فقه المرأة المسلمة، وفيما يتعلق ببعض أحكام الرضاع، أو الطلاق، أو ما شابه ذلك، وقد ورد أن سيدنا عبد الله ابن عباس كان يرسل فيسألها عن بعض الأحكام.

وتعد أم سلمة رضى الله عنها من المتوسطين فيما روى عنهم من الفتيا، وهم ثلاثة عشر، هى أولهم وهم: أم سلمة أمن المؤمنين، أنس بن مالك، أبو سعيد الخدرى، أبو هريرة، عثمان بن عفان، عبد الله بن عمرو بن العاص، عبد الله بن الزبير، أبو موسى

الأشعرى، سعد بن أبى وقاص، سلمان الفارسى، جابر بن عبد الله، معاذ بن جبل، وأبو بكر الصديق رضى الله عنهم أجمعين.

قال ابن حزم: ويضاف إليهم طلحة بن عبيد الله، الزبير بن العوام، عبد الرحمن ابن عوف، عمران بن الحصين، أبو بكرة، عبادة بن الصامت، معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهم أجمعين.

أما الثروة الحديثية التى أثرت عن أم المؤمنين أم سلمة فتبلغ ثلاث مائة وثمانية وسبعين حديثًا، روتها عن رسول الله ﷺ.

وقد أخرج لها منها فى الصحيحين (٢٩ حديثًا) والمتفق عليه (١٣ حديثًا) انفرد البخارى بثلاثة أحاديث، ومسلم بثلاثة عشر وأحاديثها منثورة أيضًا عند أصحاب السنن الأربعة وفى المسانيد، روت أمنا أم سلمة عن النبى ﷺ، وعن فاطمة الزهراء رضى الله عنهم أجمعين.

أما الذين رووا عن أم المؤمنين أم سلمة فكثر، فممن روى عنها من رجال الصحابة: عبد الله بن عباس، وأبو سعيد الخدرى، وابنها عمر رضى الله عنهم.

وأما من روى عنها من نساء الصحابة فعائشة أم المؤمنين، وابنتها زينب رضى الله عنهما.

وروى عنها عدد غفير من كبار التابعين من الرجال منهم: سعيد بن المسيب، والشعبى، ومجاهد، وعطاء بن أبى رباح، وسليمان بن يسار، وعروة بن الزبير، وآخرون...

وأما من روى عنها من عصر الصحابة والتابعين، فكثيرات أيضًا منهم: خيرة أم الحسن البصرى، وهند بنت الحارث الفراسية، وصفية بنت شيبة، وصفية بنت محصن وغيرهن...

ومن مرويات أم سلمة رضى الله عنها ما جاء فى الصحيح عن هند بنت الحارث الفارسية عن أم سلمة زوج النبى ﷺ وكانت من صواحباتها قالت: كان يسلم فينصرف الناس فيدخلن بيوتهن من قبل أن ينصرف رسول الله ﷺ (١).

ومما رواه الشيخان عن أم سلمة قالت: قلت يا رسول الله، هل لى أجر فى بنى أبى سلمة أنفق عليهم ولست بتاركتهم هكذا وهكذا، إنما هم بنىّ؟ قال ﷺ: نعم لك أجر ما أنفقت عليهم (٢).

ومن مرويات أمنا أم سلمة ما أخرجه لها أصحاب الصحيح والسنن والمسانيد وغيرهم، بسندٍ إلى زينب بنت أبى سلمة، عن أم سلمة رضى الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنما أنا بشر، وأنتم تختصمون إلىَّ، ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضى نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشىء من حق أخيه فلا يأخذ منه شيئًا، فإنما أقطع له قطعة من النار (٣).

وقد نقلت لنا أم سلمة رضى الله عنها صورة عن دعاء رسول الله ﷺ، فيما أخرجه الحافظ أبو يعلى رحمه الله بسنده عن شهر بن حوشب قال: سألت أم سلمة، قلت: يا أم المؤمنين، ما أكثر دعاء رسول الله ﷺ، إذا كان عندك؟ .

قالت: كان أكثر دعائه: يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك .

قالت: فقلت له: يا رسول الله، ما أكثر دعاءك يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك! .

قال: يا أم سلمة، إنه ليس من آدمى إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله، ما شاء الله أقام وما شاء أزاغ (٤).

ومن مروياتها فى أهل البيت النبوى، ما رواه الإمام أحمد من حديث أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: أهلوا يا آل محمد بعمرة فى حج .

---

(١) رواه البخارى (٨٥٠).

(٢) رواه البخارى (١٤٦٧) مسلم (١٠٠١) أحمد (٦/ ٢٩٢).

(٣) رواه البخارى (٦٩٦٧) مسلم (١٧١٣) الترمذى (١٣٣٩) النسائى (٨/ ٢٣٣) ابن ماجه (٢٣١٧).

(٤) رواه الترمذى (٣١٥٧) وأبو يعلى (٦٩٨٦).

والأحاديث التى روتها أم سلمة رضى الله عنها كثيرة ومنثورة فى كتب الحديث الشريف، ولا يمكن استقصاؤها فى بحثنا هذا، وحسبنا فى هذا المجال ما يدل على فضلها وفضل عائشة رضى الله عنهما، ما ذكره البلاذرى بسنده عن محمود بن لبيد قال: كان أزواج النبى ﷺ يحفظن من حديث النبى ﷺ كثيرًا، ولا بمثل عائشة وأم سلمة [١].

وفاة أم سلمة رضى الله عنها:

بلغت أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها من الكبر عتيًا، وتجاوزت الثمانين، وعاشت الخلافة الراشدة، وامتدت بها الحياة إلى عهد يزيد بن معاوية، كانت حياة أم سلمة مفعمة بالأحداث الكثيرة، ولكن حياة العلم، ورواية الحديث هى الغالبة على حياتها، إذ كانت إحدى المراجع الفقهية فى صدر الإسلام، وكان يؤخذ برأيها.

كانت أم سلمة رضوان الله عليها آخر من مات من أمهات المؤمنين الطاهرات، وهى إحدى الصحابيات المعمرات اللواتى تخطين الثمانين، وقد توفى رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنها، وعن بنيها، وكان بيتها أحد مراكز العطاء العلمى والفقهى للصحابة والتابعين والعلماء فى شتى الأمصار.

وقال ابن أبى خيثمة والذهبى رحمهما الله: عمرت أم سلمة رضى الله عنها حتى بلغها مقتل الحسين الشهيد، فوجمت لذلك وغشى عليها، وحزنت عليه كثيرًا، ثم لم تلبث بعده إلا يسيرًا، وانتقلت إلى الله تعالى، وذلك فى ولاية يزيد بن معاوية، وكان ذلك سنة إحدى وستين على الصحيح، وقد عاشت نحوًا من تسعين سنة رضى الله عنها.

قيل: ماتت وعمرها ٨٤ سنة رضى الله عنها [٢].

ولما توفيت أم سلمة دخل قبرها ابناها عمر وسلمة، وعبد الله بن عبد الله بن أبى أمية، وعبد الله بن وهب بن زمعة، ودفنت بالبقيع إلى جانب أمهات المؤمنين وأهل البيت النبوى الأطهار.

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٢٩٧، ٢٩٨).

(٢) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٠٢).

ومن الجدير بالذكر أن أول من مات من أزواج النبى ﷺ بعد وفاته زينب بنت جحش، توفيت فى خلافة عمر ﷺ، وآخر من مات أم سلمة زمن يزيد بن معاوية سنة ثنتين وستين.

رضى الله عن أم المؤمنين أم سلمة، وجعلها فى عباده المتقين، ونفعنا بسيرتها وسيرة أمهات المؤمنين وعفا عنا، وأدخلنا برحمته فى عباده الصالحين.

أم المؤمنين
زينب بنت جحش رضى الله عنها

سماها الله مؤمنة بنص القرآن الكريم، وبسببها نزلت آية الحجاب.

كانت من علْيَةِ نساء قريش، وكانت ذات يدٍ طولى فى المعروف، تعمل بيدها وتتصدق.

اختصها الله عز وجل بمكرمة فريدة بأن زوجها نبيه ﷺ من فوق سبع سماوات، وجاءت قصتها فى القرآن الكريم.

كانت خاشعة متضرعة عابدة راضية، صوامة قوامة، كثيرة الخير والبر والصدقات.

من راويات الحديث النبوى، عاشت (٥٣ سنة) وتوفيت سنة (٢٠هـ) ودفنت بالبقيع رضى الله عنها.

أم المؤمنين
زينب بنت جحش[1] رضى الله عنها

ينبوع الهداية:

جاءت رسالة الإسلام لتنقذ الإنسانية من ضلال الجهل والجاهلية، وتخرجها من المنحدر الذى هوت إليه، لترقى بها إلى ذرا أنوار الهداية ونعيمها، وهى تنسكب من أشعة شمس الرسالة الخاتمة لتمسح مآسى الظلم، وتقر الرحمة والعدل، وهى تحمل مصباح الكلمة الإلهية، ومفتاح القلوب إلى البشرية أن اعبدوا الله ربكم الذى لا إله إلا هو رب العرش العظيم، وتدعو إلى عبادة الله الواحد الأحد على بصيرة من الهدى والحق.

امتثل رسول الله ﷺ أمر ربه حينما أوحى إليه: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٤) فأخذ ﷺ يدعو أقاربه إلى نور الهدى الربانية، ويأخذ بأيديهم إلى ينبوع الفتوحات الرحمانية، فاستجاب له ثلة من الأقربين ممن فتح الله بصرهم وبصائرهم، وآمنت وصدقت بما أنزل الله عز وجل على النبى ﷺ.

---

(١) انظر أسد الغابة (٦/ ١٢٥ - ١٢٧) والاستيعاب (٤/ ٣٠٦- ٣١٠١) والإصابة (٤/ ٣٠٧، ٣٠٨).

تبرز من بين هؤلاء الأقربين، امرأة سباقة إلى الخيرات، سابقة إلى المبرات، لتأخذ مكانتها فى عقد السابقات، عقد الطاهرات الذى يمثل أمهات المؤمنين اللواتى يمثلن البيت النبوى الذى أذهب الله عند الرجس وطهره تطهيرًا، وجعله أشرف بيوت الدنيا وأعلاها.

هذه المرأة ممن ذكر القرآن الكريم قصتها، ووردت سيرتها فى الحديث النبوى الشريف، لتزداد شرفًا وتشريفًا، كما عطرت بقصتها كتب السيرة، والطبقات، وغيرها، كما أثنى عليها المفسرون والعلماء فى ثنايا تفاسيرهم ومصنفاتهم.

والآن ما علينا إلا أن نبحر لاستخراج الكنوز والدرر، من سيرة هذه الكريمة العابدة، إنها أمنا زينب بنت جحش بن رياب الأسدية، ابنة عمة رسول الله ﷺ أمها: أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم، وهى أخت حمنة، وأبى أحمد، وعبد الله رضى الله عنهم أجمعين.

قال الإمام البيهقى فى دلائله: «زينب بنت جحش بن رياب الأسدية تكنى أم الحكم».

السيدة الشريفة:

كان مولد زينب بنت جحش فى مكة المكرمة، إذ ولدت قبل الهجرة بأكثر من ثلاثين سنة.

ترعرعت زينب بين شرف السيادة، وسيادة الشرف، وأنعم الله علينا بالجمال، والحسب الرفيع، والنسب الأصيل، فكانت من علية نساء قريش، ومن فضليات النساء فى مكة المكرمة.

فمن أخوالها: الحمزة، والعباس، وما أدراك ما الحمزة والعباس رضى الله عنهما.

فالحمزة: أسد الله، وأسد الرحمن، وأسد النبى ﷺ، والعباس: كان يمنع الجار، ويبذل المال، ويعطى فى النوائب.

ومن خالاتها: صفية بنت عبد المطلب الهاشمية شقيقة حمزة، وأم حوارى النبى ﷺ الزبير بن العوام الأسدى، من المهاجرات الأول، وإحدى فضليات نساء الإسلام.

وأخواها: عبد الله بن جحش الأسدى، وأبو أحمد بن جحش.

فأما عبد الله، فأحد فرسان مدرسة النبوة الأطهار، وأحد الشهداء الأبرار الأخيار.

وأما أبو أحمد، واسمه عبد بن جحش الأعمى، فهو أحد السابقين الأولين من المؤمنين، ومن المهاجرين إلى المدينة المنورة، ومن شعراء الإسلام المجيدين، وممن شهد بدرًا والمشاهد كلها، مع الرسول الكريم ﷺ.

وأختها: حمنة بنت جحش من طليعة السابقات المبكرات، كانت من ثلة الأولين السابقين الذين امتدحهم الله بقوله: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (الواقعة: ١٠- ١٣).

ويتوج هذه السيادة ويشرفها ويضمخها بأطيب الطيب، قرابتها من رسول الله ﷺ، فهو ابن خالها عبد الله بن عبد المطلب، وجدهما واحد هو: عبد المطلب: سيد قريش فى زمانه.

إذن فزينب من أوسط العرب دارًا وأعلاهم نسبًا وأزكاهم حسبًا وأنداهم كفًا وأكثرهم كرمًا وجودًا.

وتدل الأخبار التى وصلت إلينا عن زينب بنت جحش أنها قد تأثرت فى الاعتزاز والتمسك بنفسها وشرف أسرتها، وجعلها تشعر بشىء من الفخر، حتى إنها صرحت بهذا مرة عندما قالت: «أنا سيدة بنات عبد شمس» ولكنا سوف نلاحظ فيما بعد كيف تلاشى هذا الفخر، عندما أصبحت سيدة نساء عبد شمس أمًا المؤمنين باقترانها من رسول الله ﷺ، ودخولها رحاب البيت النبوى الكريم، ذلك البيت الذى فجر فيها مكامن الفضل تفجيرًا، فأثرت الدنيا بفضلها وجودها وتواضعها ومكارم أخلاقها رضى الله عنها.

المؤمنة المُهَاجِرَةَ إلى الله:

منذ أن أعلن النبى ﷺ دعوته، وأنذر أقرباءه، كانت زينب رضى الله عنها من السابقات المستجيبات لدعوة الإسلام، فاستضاء قلبها بنور الإسلام ونعم بحلاوة الإيمان، وعاشت فى أفياء الدوحة الإيمانية سعيدة النفس، رضية القلب بينما حرم مشركو مكة الخير كله مذ جحدوا الرسالة المحمدية، وقعدوا بكل صراط يوعدون، ويصدون عن سبيل الله من آمن به، ويبغونها عوجًا.

أخذ فجار الكفار، يصبون ألوان العذاب على من آمن رجلاً كان أو امرأة، وأرهقوا المسلمين إرهاقًا شديدًا حتى شغلوهم بأنفسهم، فناموا نومة المجرم الذى اغترف الإثم، ولكنه أمن القصاص، وظن ألا تناله يد العدالة.

وصبر المسلمون جميعًا صبر الكرام، وتحملوا قسوة المجرمين وظلمهم، وسقطت سُمية بنت خياط أم عمار بن ياسر شهيدة بأيدى فاجر المشركين، فرعون الأمة عمرو ابن هشام أبى جهل، فكانت فى مقدمة ركب الشهداء، وأوذى غيرها من النساء والرجال فى سبيل الله عز وجل.

وقد تحملت زينب بنت جحش، ونساء قومها نصيبًا من أذى قريش، حتى هاجر بعضهن إلى الحبشة، ثم عُدْنَ إلى مكة، إلى أن جاء الإذن بالهجرة إلى المدينة وعندئذٍ هرعوا إلى المدينة ترفع رءوسهم الثقة بالله عز وجل، ويحدوهم نور اليقين وتصاحبهم عناية البارى.

وهكذا جعل المسلمون يهجرون مكة أم القرى زرافات ووحدانًا حتى هجرت دور بأسرها، وغلقت أبوابها، وغدت تصفر فيها الرياح، وكان من هذه الدور: دار بنى جحش، ودار بنى مظعون، ودار بنى البكير، هجرها سكانها رجالاً ونساء، كبارًا وصغارًا، وكان العدد من النساء كبير.

أورد ابن إسحاق أسماء طائفة منهن فقال: «ومن نسائهم: زينب بنت جحش، وأم حبيب بنت جحش، وأم قيس بنت محصن، وجذامة بنت جندل، وأم حبيب بنت ثمامة، وآمنة بنت رقيس، وسخبرة بنت تميم، وحمة بنت جحش، رضى الله عنهن أجمعين».

وكان من المهاجرين أبو أحمد بن جحش الذى عبر عن الهجرة بأشعار جميلة، من ذلك قوله يذكر هجرة قومه إلى الله ورسوله:

ولو حلفت بين الصفا أم أحمد ... ومروتها بالله برت يمينها

إلى الله تغدو بين مثنى وواحدٍ ... ودين رسول الله بالحق دينها

ويقول فى قصيدة أخرى يصف هجرتهم الجماعية، نقتطف منها بعض الأبيات المعبرة الموحية:

لما رأتنى أم أحمد غاديًا ... بذمة من أخشى بغيبٍ وأرهبُ

تقول فإما كنت لا بد فاعلاً   فيمم بنا البلدان ولتنأ يثربُ
فقلت لها بل يثرب اليوم وجهنا   وما يشأ الرحمنُ فالبعدُ يركبُ
إلى الله وجهى والرسول ومن يقم   إلى الله يومًا وجهه لا يخيّبُ
دعوت بنى غنم لحقن دمائهم   وللحق لما لاح للناس مَلحَبُ
أجابوا بحمد الله لما دعاهم   إلى الحق داع النجاح فأوعبوا
ورِعْنَا إلى قول النبى محمد   فطاب ولاة الحق منا وطيبوا

مع الأنصار فى المدينة:

فى المدينة المنورة وجد المهاجرون إخوانهم الأنصار يؤثرونهم على أنفسهم فطابت قلوبهم، فقد أكرمهم الأنصار، وآووهم وآسوهم، وقاسموهم أموالهم وديارهم، وأنزلوهم من نفوسهم منزلة الأهل والعشيرة.

إن هذه الهجرة الجماعية، أثارت المشركين، ولكن ملأ الفجار لم يعترفوا بأنهم السبب فى ذلك، فهم يجرمون، ويرمون الوِزرَ على أكتاف غيرهم، ويقهرون المستضعفين، ومع ذلك يتهمون الحبيب المصطفى ﷺ، بأنه سبب الشتات والشقاق فى قريش.

ذكر ابن إسحاق رحمه الله فى السيرة «أن عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب، وأبا جهل بن هشام، مروا وهم مصعدون إلى أعلى مكة، فنظر إليها عتبة بن ربيعة تخفق أبوابها ليس فيها ساكن، فلما رآها كذلك تنفس الصعداء، ثم قال:

وكل دار وإن طالت سلامتها   يومًا ستدركها النكباء والحوب

ثم قال: أصبحت دار بنى جحش خلاء من أهلها... فقال أبو جهل وهو يشير إلى العباس: هذا عمل ابن أخيك هذا، فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وقطع بيننا».

إن أبا جهل بهذا الكلام تبرز فيه طبيعته العدوانية، وتبرز نفسه الحاقدة، على رسول الله ﷺ ولكن الله عز وجل متم نوره ولو كره أبو جهل ومن معه من المشركين.

في المدينة المنورة أخذت زينب بنت جحش مكانتها بين المؤمنات، وفي سجل الأوائل كانت زينب رضى الله عنها من المهاجرات الأول(١).

هذه الأولية المباركة في الهجرة جعلت لها ذكرًا حسنًا في نساء الأنبياء، ونساء الصحابة الكرام رضى الله عنهن أجمعين.

نَفَحَاتٌ زَيْنَبِيَّةٌ:

حينما تملك الإيمان قلوب المؤمنين، راحت قلوبهم التي استودعت بذور الإيمان تنبت بالخيرات، كما ينزل الوابل الصيب على التربة البكر الخصبة ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ (الحج: ٥).

فالإيمان بالله عز وجل قوة سامية فاعلة، إذا استمكنت شعاب القلب، وتغلغلت في أعماقه، تكاد تجعل المستحيل ممكنًا، وزينب بنت جحش رضى الله عنها، واحدة من فضليات النساء، ممن لامست قلوبهن نفحات الإيمان، فجعلت منهن فرائد ودررًا لا تتكرر في الدنيا، وقد صقل وازع الإيمان ورحيق الإخلاص نفسها فجعلها من سيدات نساء الدنيا في الدين، والورع، والجود، والمعروف، وناهيك بالورع عند المرأة لتكون من الفضليات!.

وقد رشحتها هذه الصفات الكريمة، لتنظم في سلك الدرر الثمين، وتغدو واحدة من أمهات المؤمنين، وإحدى نساء أهل البيت التقى النقى بل اختصها بمكرمة متفردة بها، إذ أنكحها رسوله في السماء، فهل بعد هذا من مفخر؟!.

إن الإيمان الذى أضاء نفس زينب، رفعها مكانًا عليًّا في مقام الصلاح، وفي محراب العبادة فكانت صوامة تقوم الليل، تناجى ربها، تبكى خوفًا وطمعًا ولم تتوقف عند هذا الحد فحسب، وإنما كانت بارة بمن حولها من الناس، ومن الذين يطلبون المعروف عند أهله، فكانت رضى الله عنها كهفًا وملاذًا للمحتاجين، تسخو عليهم من جودها حتى غدت مثلاً في الكرم الزينبى المرفود بالكرم النبوى.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١).

زينب فى القرآن الكريم:

فى الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، شهد الله عز وجل لزينب بنت جحش بالإيمان، ودعاها «مؤمنة» بقوله:﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ (الأحزاب: ٣٦) .

فالمؤمنة هاهنا زينب بنت جحش رضى الله عنها، المرأة الحسيبة الشريفة التى اختيرت من بين نساء الصحابة، لتكون المثل العملى لتحطيم الموروثات الجاهلية التى صحح الإسلام الحنيف مفاهيمها.

تُرى، ما شعور زينب؟ وما الإحساس الذى ساورها يوم أن عرض عليها رسول الله ﷺ الزواج من مولاه زيد بن حارثة ﷺ؟.

هلموا، فنقف وقفة إكبار أمام هذه المؤمنة التى استكانت لأمر الله وقضائه وقدره، وغذاؤها بذلك رحيق الإيمان الذى قامت عليه نفسها، فصارت لا ترى إلا من خلاله، وكانت تزن أمورها بميزان التقوى، ذلك الميزان الذى لا يخسر معه أحد... تقول المصادر الوثيقة المتعددة: «إن سيدنا وحبيبنا محمدًا ﷺ، قد خطب زينب بنت جحش ابنة عمته، على زيد بن حارثة مولاه، وسمعت زينب حديث الخطبة هذه لزيد مولى رسول الله ﷺ، فدهشت ولم تتوقع ذلك أبدًا وأخذتها الأفكار المتصارعة ذات اليمين وذات الشمال، وراحت بها إلى الماضى... ولكن نسبها الرفيع همس فى وجدانها قائلاً: «إن زيد بن حارثة مولى من الموالى، وهل يكون المولى من الأكفاء لذات الحسب والنسب والشرف»؟!.

وندت منها كلمة، فقالت للرسول ﷺ: «لا أتزوج أبدًا، وأنا سيدة عبد شمس».

وفى رواية ابن سعد رحمه الله قالت: «يا رسول الله ﷺ، لا أرضاه لنفسى، وأنا أيِّمُ قريش».

وشاركها فى هذا الرأى أخوها عبد الله بن جحش، ورفض أن تكون أخته زينب، وهى قرشية حسيبة أصيلة وابنة عمة النبى ﷺ، وزينة نساء قريش، تحت مولى من الموالى، اشترته خديجة بنت خويلد، ثم وهبته لرسول الله ﷺ، الذى أعتقه، ومنَّ عليه

بشرف الانتساب إليه، فكان يدعى: زيد بن محمد، إلى أن أمر الله أن يُدعى كل واحد لأبيه.

فكر عبد الله بن جحش فى هذا كله، وفكر بأخته زينب فرأى فى هذا الزواج عارًا كبيرًا عليها، فقد كانت الأعراف والتقاليد عند العرب لا تسمح بهذا أبدًا، إذ لم تكن بنات الأشراف ليتزوجن من الموالى، وإن أعتقوا وصاروا أحرارًا.

بيد أن الإسلام الحنيف، أراد أن تزول مثل هذه الاعتبارات القائمة على سوق هزيلة فى نفوس تغلغلت فيها العصبية وحدها، وأعمتها قيود التقاليد الموروثة عن الآباء والأجداد...

أراد الإسلام أن يدرك الناس جميعًا أن لباس التقوى ذلك خير، وأن لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى، فالله عز وجـل يقوله: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجرات: ١٣).

أما الحبيب المصطفى ﷺ فقد كان يرى أن زينب ابنة عمته هى التى تحتمل هذا الخروج عن تقاليد العرب، والقضاء على عاداتها، وكان رسول الله ﷺ يعلم أن تقاليد الجاهلية لم تتلاشى من نفوس المسلمين بعد، إذن، فليكن مولاه زيد بن حارثة زوجًا لها، وقال لها: «بل فانكحيه، فإنى قد رضيته لك».

وقبل أن تتردد زينب فى هذا نزل قول الله عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (الأحزاب: ٣٦).

لم يبق أمام زينب وأخيها عبد الله بعد نزول هذه الآية، إلا الامتثال وإلا الإذعان لامر الله وقضائه وإلا: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ (الأحزاب: ٣٦) وهنا قالا: «رضينا يا رسول الله» وانفردت زينب بقولها: «قد رضيته يا رسول الله منكحًا» فأجاب الحبيب المصطفى ﷺ: «قد رضيته لك» قالت زينب رضى قالت زينب رضى الله عنها ورشحات الإيمان والتسليم تقطر من كلامها: «إذن لا أعصى رسول الله ﷺ وقد أنكحته نفسى».

ساق زيد بن حارثة ﷺ إلى بنى جحش عشرة دنانير وستين درهمًا، ودرعًا، وخمارًا، وملحفة وإزارًا، وخمسين مُدًّا من الطعام، وعشرة أمداد من التمر، أعطاه ذلك كله الحبيب المصطفى ﷺ.

وبنى زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش سليلة الشرف فى قريش، زينب التى كانت تعتز بنسبها، وذلك لتقرير حقيقة المساواة بين البشر، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن ليس لحر على عبد من فضل إلا بالتقوى.

رضيت زينب بنت جحش رضى الله عنها قضاء الله عز وجل، وقضاء رسوله الكريم ﷺ الذى ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى، رضيت وقبلت أن تتزوج زيدًا، فقد كانت مؤمنة صادقة الإيمان، شهد الله لها بالإيمان، وهذا أعلى ما تطمح وتطمع به: مرضاة الله عز وجل، ومرضاة الرسول ﷺ، وهذا هو الفوز العظيم.

استكانت زينب للأوامر الإلهية الصادرة من لدن حكيم خبير، فغدت بطاعتها سيدة من سادات النساء فى عصر النبوة، رضى الله عنها.

﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴾:

بنى زيد بزينب رضى الله عنهما، وأكد الإسلام أن الناس سواسية كأسنان المشط، يتفاضلون بميزان التقوى، فالناس جميعهم لآدم، وآدم من تراب، ومن أراد أن يتفاخر، فليتفاخر بالتراب، كان زيد بن حارثة ﷺ أفطس الأنف، ولم يكن جميل الصورة، فلم ينشرح له قلب زينب رضى الله عنها، ولم يُكتب للبيت الزينبى الزيدى الوفاق، ولم تخفق فوقه أجنحة السعادة، بل وهت العلاقة بينهما، فبعد أن صارت زينب إلى زيد، لم يسلس له قيادها، ولم تنس إباءها، بل شمخت عليه وتعالت، وتعمدت إيلام قلبه بالتعالى عليه فى النسب والحرية.

ألم زيد هذا النفور الزينبى، ولما كان زيد ربيب النبى ﷺ، فقد غذى على الكرامة ونشأ عليها، وأبى أن يرتبط بهذه التى زهدت فيه، واشتكاها إلى النبى ﷺ مرة بعد مرة يقول له: «يا رسول الله، إن زينب تتعظم علىَّ لشرفها، وإن فيها كبرًا، وهى تؤذينى بلسانها».

كان الحبيب المصطفى صلوات ربى وسلامه عليه فى خلقه السمح، وسجاياه الطاهرة، يهدهد من آلام زيد ومتاعبه ويقول له: ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ (الأحزاب: ٣٧).

ويرجع زيد إلى زينب، وتكون الحالة هى هى، أو قريبة من هى، فيذهب إلى رسول الله ﷺ يعرض عليه أن يطلقها، ولكن رسول الله ﷺ يقول: ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ كان فى ذلك حكمة بالغة من الله عز وجل، الذى أراد أن تتلاشى تقاليد الجاهلية وتندرس آثارها، ويسود شرع الإسلام الذى ارتضاه الله عز وجل للناس، فقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ (آل عمران: ١٩) لقد حطم زواج زيد بن حارثة من زينب بنت جحش رضى الله عنهما حلقة متينة من تقاليد الجاهلية: ترفع السادة عن الزواج من العبيد، وإن كانوا أتقياء، وكانوا أكفاء...

وكان هناك حلقة أخرى، كتب على الرسول الكريم ﷺ أن يحطمها، فقد كان العرب قبل الإسلام، لا يتزوجون أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرًا.

كانت زينب رضى الله عنها كارهة البقاء مع زيد، وكان زيد يأتى رسول الله ﷺ يلتمس منه أن يوافق على طلاق زينب، وكانت الحكمة تقضى أن يقبل ﷺ ذلك الفراق، وأن يخطب ابنة عمته لنفسه، لتتم شريعة الإسلام، وتتحطم حلقات الجاهلية الواهية، وليعوضها عن تضحيتها الغالية: إطاعة الله ورسوله، ولكنه كان يخشى الناس، فقال لزيد: ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾.

أصبحت الحياة بين زينب وزيد لا تطاق، وكان لا بد من الطلاق، إلى أن أتى أمر الله عز وجل، وغلب على ذلك كله، فسمح لزيد بطلاقها، بعد أن استحال جو البيت جحيمًا كما قال تعالى: ﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ (الأحزاب: ٣٧).

وقد أنزل الله عز وجل على الحبيب المصطفى محمد ﷺ فى الكتاب العظيم مفخرة المفاخر التى زكاه بها فيما زكى إخوانه المرسلين، وهو ﷺ صاحب المقام المحمود فى هذه التزكية المنيفة، فقال له متلطفًا به فى أشد مضايق مواقفه فى رسالته: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ

قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (الأحزاب: ٣٨، ٣٩).

تم الأمر الإلهى المقدر، ونفذ رسول الله ﷺ ما أمره ربه فى غير حرج، فلما انقضت عدة زينب، قال النبى ﷺ لزيد: «اذهب فاذكرها علىَّ».

فانطلق حتى أتاها وهى تخمر عجينها وقال لها: «أبشرى أرسلنى رسول الله ﷺ يذكرك».

قالت: ما أنا بصانعة شيئًا حتى أؤامر ربى عز وجل ثم قامت إلى مسجدها، ونزل القرآن الكريم، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن[1].

وهكذا زوج الله عز وجل هذه المؤمنة بنص كتابه بلا ولى، ولا شاهد، وكانت زينب رضى الله عنها تقول مفتخرة بذلك على أمهات المؤمنين: «زوجكن أهاليكن وزوجنى الله من فوق سبع سماوات»[2].

والآن، فلا بد لنا من وقفات شافية مع هذه القصة العظيمة حتى نعرف كيف طهر الله عز وجل المجتمع المسلم من رجس مفسدةٍ اجتماعيةٍ، لا تتحقق إلا بعزيمة الرسول الكريم ﷺ.

مَنْهَجٌ قَوِيمٌ:

شرفت السيدة النبيلة زينب بنت جحش رضى الله عنها بأشرف مقامات القرب من رسول الله ﷺ، فكانت أمًّا للمؤمنين بزواجه ﷺ منها وضعًا للأمور فى مواضعها.

فقد كان العرف الجاهلى بأباطيله وشروره ومفاسده، يجعل من الدعى ابنًا، ويعطيه خصائص البنوة الحقيقية فى أمور تجرُّ على المتجمع من الشرور والأسواء والويلات ما لم تؤمن مغباته وعواقبه على حياة الأمة فى حاضرها وفى مستقبلها.

وكان من أظهر مفاسد هذا العرف الباطر: التعاير بتزويج الرجل الحسيب النسيب زوجة دعيه إذا طلقها الدعى باعتقادٍ واهٍ أن الدعى هو ابن حقيقى من الصلب، فأراد

(١) رواه مسلم (١٤٢٨) أحمد (٣/ ١٩٥) النسائى (٦/ ٧٩، ٨٠).

(٢) رواه البخارى (٧٤٢٠).

الله عز وجل أن يبطل هذا العرف الفاسد المفسد، وهذا الموروث الباطل الذى يبدد أواصر المجتمع، لم يكن من يتحمل ثقل هذا الإبطال، سوى رسول الله ﷺ، فهو أقوى إرادة، وأمضى عزمًا، وأعظم نفسًا، وأطهر ذيلاً وهو الأسوة المتأسى به فى امتثال تطبيق الأحكام الشرعية، وهو القدرة التى تجرى على سننها أمته، وهو مهبط الخطاب الإلهى فى جميع الأحكام الربانية.

من هذا المنطلق، كان الرسول الحبيب ﷺ، هو المختار لتصحيح أباطيل الجاهلية، ومفاسدها فى واقع الحياة فقيل له: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ بنعمة الإيمان والإسلام، وكفالتك إياه، وتحبيبه إليك وَأَنْعَمْتَ ﴿ عَلَيْهِ ﴾ بالعتق والحرية والرعاية، وإحسان التربية والاختصاص بك، فكان حبك مولاك، ولم يكن ابنًا لك من صلبك.

ثم إن زيدًا وهو يعرض عليك ثقل الحياة الزوجية فى بيته مع زوجه، وما يلقى من مرارةٍ فى عشرته معها، ويشاورك مستأذنًا فى مفارقتها بعد يأس منه فى حسن الموافقة فتقول له متلطفًا: ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ لأنك منبع التلطف والإحسان، تأبى عليك نفسك الزاكية، وتأبى عليك مكارم أخلاقك أن تشير على زيدٍ، بفصم عُرى ما عقد الله، بينه وبين زوجه من وشائج كان من حقها أن يظلها الود والسكون، وهما منك فى القرب الودود، بمكانهما الذى لهما عندك، ولهذا كنت تقول له بلطفٍ ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ (الأحزاب: ٣٧).

إنه لم يكن هنالك قط أمر من الله لك بتطليقها من زيد، وإن تكن قد سبقت إليك لوائح إشارتنا، إذ قطعنا وشائج الجاهلية المزورة بين الدعى ومتبنيه بقوله: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ﴾ (الأحزاب: ٤).

ولقد أوضحنا الحق الذى جعلناه نهجًا فى واقع الحياة بتصحيح وضع هؤلاء الذين شذت بهم الحياة نهجها القويم، رفعًا لخسيسة ألصقت بهم إلصاقًا، فنفتهم عن آبائهم ونفت آباءهم عنهم، وباعدت بينهم، ثم وصلنا ما قطعه الجهل فى الجاهلية بأعرافها الفاسدة المفسدة، وقلنا لك حتى تعلم أمتك: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (الأحزاب: ٥) لأنه الحق، ولأنه سبيل الخير الذى يهدى إليه الله فى شريعته المنزلة لإقامة منار العدل: ﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ ﴾ (الأحزاب: ٥) فلا ضيعة لهم عند الله، ولا ضيعة

لهم فى مجتمع الإسلام، لأنهم إخوانكم فى الدين الذى جمعت وشيجة الإيمان بين سلائله من جميع الأجناس والأوضاع ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات: ١٠) وهم بهذا الإخاء الإيمانى مواليكم، وأقرب الموالين لكم، يناصرونكم وتناصرونهم على البر والتقوى، فهم أحق بالإكرام والإحسان.

ولكنك فى هذا التلطف مع مولاك، أخفيت فى نفسك لوامح الإشارة فيما أنزلناه عليك من قطع وشائج الجاهلية الكاذبة التى عقدوها بأهوائهم وشهواتهم بين المتبنى ومتبنيه، وما يترتب على قطع تلك الوشائج الجاهلية المخترقة من إصلاح اجتماعى فى مجتمع رسالتك، لتكون أنت مصدره ومنبعه، والمتأسى به فيه فى التطبيق الواقعى الذى يقوم أود الحياة، وعوج مناهجها.

﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ ﴾:

فى أمر تحطيم التقاليد الجاهلية، جاء الخطاب الإلهى صريحًا للناس كافة بأن محمدًا رسول الله، وكل ما يتقوله المتقولون والمنافقون والذين فى قلوبهم مرض، من أن محمدًا ﷺ ينهى عن زوجات الأبناء، ويتزوج هو زوجة ابنه زيد، كل هذا ليس له قيمة فى ميزان العدل الإلهى، بل ليس له مكانة فى المجتمع الإسلامى، ولا يؤثر على سير الرسالة، وأنزل الله عز وجل: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٤٠).

وأوضح الله عز وجل أن الأدعياء ليسوا أبناء، فالكلام وإن تعارف عليه أهل الجاهلية لا يغير واقعًا، بل لا يخلق علاقة غير علاقة الدم، ولذلك قال الله عز وجـل: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ ﴾ (الأحزاب: ٤).

وقد أجمع أهل التفسير على أن قوله تعالى: وَمَا ﴿ جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ﴾ أنزل فى سيدنا زيد بن حارثة وغيره لأن زيدًا سُبِىَ وهو صغير، فابتاعه حكيم بن حزام بن خويلد ﷺ، فوهبه لعمته أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضى الله عنها، فوهبته خديجة للنبى ﷺ، فأعتقه، ثم تبناه، فأقام زيد عند النبى ﷺ مدة، ثم جاء أبوه وعمه فى فدائه، فقال لهما الحبيب المصطفى ﷺ: «خيراه فإن اختار كما فهو لكما دون فداء».

فاختار زيد الرق مع رسول الله ﷺ على حريته، فقال النبى ﷺ عند ذلك: «يا معشر قريش اشهدوا أن زيدًا ابنى أرثه ويرثنى».

ولما تزوج النبى ﷺ زينب بنت جحش التى كانت امرأة زيد بن حارثة الذى تبناه النبى ﷺ قالوا: «تزوج محمد امرأة ابنه» فكذبهم الله عز وجل فى ذلك، ورد علاقة النسب إلى أسبابها الأصلية الحقيقية، وهى علاقة الدم، والأبوة، والبنوة الواقعية، وقال: ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ (الأحزاب: ٤).

وهكذا قضى على تلك العادة الذميمة المذمومة التى لا تستند إلى حقيقة أو شريعة، وكانت زينب بنت جحش رضى الله عنها هى المرأة التى أكرمها الله عز وجل بهذا، وذكر قصتها فى كتابه العزيز منبهًا إلى فضلها، ولذلك كانت تقول: «إن الله أنكحنى فى السماء». رواه البخارى.

أمنا زينب وآية الحجاب:

روى البخارى ومسلم والإمام أحمد والترمذى، عن أنس بن مالك ﷺ، قصة نزول الحجاب صبيحة عرس أم المؤمنين زينب بنت جحش رضى الله عنها، وسنعتمد رواية البخارى إذ أخرج بسنده عن سيدنا أنس بن مالك ﷺ قال: «بُنِىَ على النبى ﷺ بزينب بنت جحش، بخبزٍ ولحم، فأرسلتُ على الطعام داعيًا، فيجىء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم يجىء قوم فيأكلوم ويخرجون، فدعوت حتى ما أجد أحدًا أدعو، فقلت: يا نبى الله ما أجد أحدًا أدعو، قال: «فارفعوا طعامكم» وبقى ثلاث رهط يتحدثون فى البيت، فخرج النبى ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة فقال: «السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله» فقالت: وعليك السلام ورحمة الله، كيف وجدت أهلك بارك الله فيك، فتقرى حجر نسائه كلهن، يقول لهن كما يقول لعائشة ويقلن له كما قالت عائشة، ثم رجع النبى ﷺ، فإذا ثلاث رهط فى البيت يتحدثون، وكان النبى ﷺ شديد الحياء، فخرج منطلقًا نحو حجرة عائشة، فما أدرى آخبرته أو أُخبر أن القول خرجوا، فرجع حتى إذا وضع رجله فى أسكفة الباب داخلة وأخرى خارجة، أرخى الستر بينى وبينه وأنزلت آية الحجاب»[1].

---

(١) رواه البخارى (٤٧٩١) مسلم (١٤٢٨) الترمذى (٣٢٧٠).

وتعالوا نقرأ معًا آية الحجاب التى نزلت يوم أن تزوج رسول الله ﷺ أم المؤمنين زينب ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٥٣).

والآن، لنقرأ هذه التغريدة الجميلة التى تتحدث عن زواج زينب رضى الله عنها ونزول آية الحجاب:

دخل النبى بزينب وانحل شرع الجاهلين
يوم الدخول بها إلى القرآن والنور المبين
قد أبطل القرآن ما كانوا له متوارثين
بطل التبنى كان شرعًا فى العهود السابقين
أيضًا وقد ضرب الحجاب على نساء المسلمين
فَخْرٌ لزينب أصبحت من أمهات المؤمنين
والفخر أكثر زوجت من أمر رب العالمين
قالت لخير الخلق يومًا يا إمام المتقين
أنا لست مثل ضرائرى فى منطق المتفاخرين
آباؤهن وإخوة كانوا لهن مزوجين
أما أنا فبلا ولى أو شهود شاهدين
الله زوجنى لخير الأنبياء المرسلين

ونود أن نشير إلى أن هذه الآية الكريمة تفيد أن كلمة حجاب تعنى: «الشىء يحجز بين طرفين، فلا يرى أحدهما الآخر، أى تنعدم معه الرؤيا تمامًا، ولا يمكن أن يغنى أن لباسًا يلبسه إنسان، لأن اللباس أيًا كان قدره ونوعه ــ ولو ستر جميع بدن المرأة حتى وجهها ــ فلن يمنع هذه المرأة أن ترى الناس من حولها، ولن يمنع الناس أن يروا

شخص المرأة وإن تسربلت بالسواد من قمة رأسها - مع وجهها - حتى أخمص قدميها، والحجاب الوارد فى قوله عز وجل:﴿ فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ (الأحزاب: ٥٣) هو الستر الذى يكون فى البيت، ويرخى ليفصل بين مجلس الرجال ومجلس النساء».

ولعل حديث الفاروق عمر ﷺ يوضح المفهوم الذى أردناه من كلمة الحجاب، فقد أخرج البخارى بسنده عن أنس قال: «قال عمر ﷺ: فقلت: يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب»[(١)].

ويظهر أن سيدنا عمر ﷺ كان تواقًا لإلزام النساء بالحجاب حتى تحفظ المرأة حفظًا سليمًا، ويظهر إخلاصه فى هذا برغبته فى أشياء تنفع المسلمين عامة، وأشياء تتعلق بنصيحته لزوجات النبى ﷺ خاصة، وإحداهن ابنته حفصة أم المؤمنين، إذ كان يود لو نزل ما يشفى غليله فى الحجاب، وقد أكرمه الله عز وجل فى هذا لإخلاصه، وعن هذا الإكرام يتحدث سيدنا عمر فيما أخرجه البخارى رحمه الله بسنده عن حميد عن أنس قال: قال عمر: وافقت الله فى ثلاث - أو وافقنى ربى فى ثلاث - قلت: يا رسول الله، لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى.

وقلت: يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب.

وبلغنى معاتبة النبى ﷺ بعض نسائه، فدخلت عليهن قلت: إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله خيرًا منكن، حتى أتيت إحدى نسائه قالت: يا عمر، أما فى رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت، فأنزل الله: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ ﴾ (التحريم: ٥) الآية[(٢)].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخارى (٤٤٨٣).

من الفضائل الزينبية:

لا تزال نسمات البركات تهب علينا ندية رقيقة، ولا تزال بركة أمنا زينب بنت جحش تقطر على المؤمنين من فيضها منذ اليوم الأول لدخولها فى رحاب البيت النبوى الطاهر.

فعندما تزوج النبى ﷺ زينب بنت جحش أولم عليها، وأشبع المسلمين خبزًا ولحمًا، ثم أهدت له أم سليم بنت ملحان الأنصارية طعامًا ليلة دخوله بها فأطعم منه خلقًا كثيرًا، وبورك فى هذا الطعام.

فهلموا بنا إلى مائدة الحديث الشريف نغترف منها بعض مكارم تلك الليلة المباركة.

روى الأئمة: البخارى ومسلم والترمذى والنسائى رحمهم الله عن أبى عثمان واسمه الجعد عن أنس بن مالك ﷺ قال: كان النبى ﷺ عروسًا بزينب، فقالت لى أم سليم أمى: لو أهدينا لرسول الله ﷺ هدية، فقلت لها: افعلى، فعمدت إلى تمر وسمن وأقط، فاتخذت حيسة فى برمةٍ، فأرسلت بها معى إليه، فانطلقت بها إليه، فقال لى: «ضَعْها» ثم أمرنى فقال: «ادعُ لى رجالاً سماهم وادع لى من لقيت» قال: ففعلت الذى أمرنى، فرجعت فإذا البيت غاص بأهله، فرأيت النبى ﷺ وضع يده على تلك الحيسة، وتكلم بها ما شاء الله، ثم جعل يدعو عشرة عشرة، يأكلون منه، ويقول لهم: «اذكروا اسم الله، وليأكل كل رجلٍ مما يليه».

قال: فأكلوا حتى شبعوا.

قال: فخرجت طائفة، ودخلت طائفة، حتى أكلوا كلهم.

فقال لى: «يا أنس ارفع».

قال: فرفعت، فما أدرى حين وضعت كان أكثر، أم حين رفعت[1].

وسأل الجعد أنس فقال: عدد كم كانوا؟!».

فقال أنس: «زهاء ثلاث مائة».

---

(١) رواه البخارى (٥١٦٣) مسلم (١٤٢٨) الترمذى (٣٢٧٢) النسائى (٦/ ١٣٦، ١٣٧).

وتكثير الطعام صبيحة عرس زينب يشير إلى بركتها رضى الله عنها، كما أن ذلك معلمًا واضحًا من علامات النبوة.

القرآن وزينب وعائشة وحفصة:

دخلت زينب بنت جحش رضى الله عنها البيت النبوى الطاهر، وقد سبقتها إليه عائشة بنت الصديق وحفصة بنت عمر رضى الله عنهم أجمعين.

كانت زينب وضيئة الشكل جميلة الطلعة صافية النفس، نزل القرآن فى شأنها، كما كانت ورعة همها من دنياها مرضاة الله عز وجل ومرضاة رسوله ﷺ وقد شهدت السيدة عائشة رضى الله عنها لزينب بذلك كله، كما ورد فى الصحيح قالت: «وهى التى كانت تساميني من أزواج النبى ﷺ»[(١)].

وروى أبو بكر بن أبى خيثمة رحمه الله من طرق عن عائشة رضى الله عنها قالت: «لم يكن أحد من نسائه يساميني فى حسن المنزلة عنده غيرها تعنى زينب بنت جحش».

وكان الحبيب المصطفى ﷺ يمكث عند زينب، فقد كانت تعجبه صفاتها، وشمائلها الكريمة، وربما أطال الجلوس عندها فقد كانت زينب رضى الله عنها، تحب أن تسقيه العسل، ويظهر أن عائشة وحفصة رضى الله عنهما قد طرقت الغيرة أبوابهما، وتسللت إليهما، وأسرت كل واحدةٍ إلى الأخرى ما بنفسها من الغيرة تجاه زينب فتواصت عائشة وحفصة أن تحتالا ليخفف النبى ﷺ من زيارته لها، فماذا كان؟.

نزل القرآن الكريم لينصف زينب رضى الله عنها وها هى ذى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها تروى خبر ذلك:

أخرج البخارى رحمه الله بسنده عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، ويمكث عندها، فواطأت أنا وحفصة عند أيتنا دخل عليها فلتقل له: أكلت مغافير إنى أجد منك ريح

---

(١) رواه البخارى (٤٧٥٠) مسلم (٢٧٧٠).

مغافير، قال: «لا، ولكنى كنت أشرب عسلاً عد زينب بنت جحش فلن أعود له، وقد حلفت، لا تخبرى بذلك أحدًا»[١].

وعند ذلك نزل قوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِن تَتُوبَآ ﴾ (التحريم: ١ - ٤) لعائشة وحفصة ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا ﴾ (التحريم: ٣) لقوله: «بل شربت عسلاً ولن أعود له، وقد خلفت فلا تخبرى بذلك أحدًا يبتغى مرضاة أزواجه، فيعنى بقوله: «ولن أعود له» على جهة التحريم.

وبقوله ﷺ: «حلفت» أى بالله، بدليل أن الله تعالى أنزل عليه عند ذلك معاتبته على ذلك، وحوالته على كفارة اليمين بقوله تعالى: يَٰٓأَيُّهَا ﴿ ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ يعنى العسل المحرم بقوله: «لن أعود له» و ﴿ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ﴾ أى تفعل ذلك طلبًا لرضاهن: ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ غفور لمَّا أوجب المعاتبة، رحيم برفع المؤاخذة.

وبعد هذا التوجيه القرآنى من العليم الخبير، الذى حث عائشة وحفصة على التوبة على ما كان منهما من الميل إلى خلاف محبة رسول الله ﷺ تابت كل واحدة منهما، وعرفت مكانة زينب رضى الله عنها وصفاءها وحسن نيتها.

الخاشعة المتضرعة:

ارتقت أم المؤمنين زينب بنت جحش رضى الله عنها مكانة عليا فى سماء المجد، ونالت أعلى مقامات القرب والشرف منذ دخولها البيت الطاهر، وحظيت بالمكانة اللائقة عند النبى الكريم ﷺ، فقد حباها الله عز وجل من كريم الصفات، وجميل المآثر ما جعلها قدوة بين النساء.

اقتبست زينب أم المؤمنين رضى الله عنها كثيرًا من أخلاق رسول الله ﷺ، فكانت تحذو حذوه فى طرق الخير وخصوصًا الزهد فى زخرف الدنيا، فالآخرة خير وأبقى، كانت كريمة اليد، سخية النفس، لها أخبار عطرة فى الجود والزهد.

---

(١) رواه البخارى (٤٩١٢) مسلم (٢٤٧٤).

وكان رسول الله ﷺ يعرف هذه الخصلة الحميدة فى زينب، فكان يُحلها من نفسه مكانًا عظيمًا، وقد أثنى عليها بأنها من أصحاب المعروف، فكان ﷺ يخبر أزوجه بأنها أطولهن يدًا فى المعروف.

أخرج مسلم رحمه الله بسنده عن عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين قالت: «قال رسول الله ﷺ: «أسرعكن لحاقًا بى أطولكن يدًا».

قالت: فكنَّ يتطاولن أيتهن أطول يدًا.

قالت: فكانت أطولنا يدًا زينب لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق»[١].

وفى حياة زينب مع الرسول ﷺ وقفات رائعة، فقد أثنى عليها النبى ﷺ بحسن الخشوع والعبادة.

عن عبد الله بن شداد أن رسول الله ﷺ قال لعمر بن الخطاب ﷺ: «إن زينب بنت جحش أواهة» قيل: يا رسول الله، ما الأواهة؟.

قال: «الخاشعة المتضرعة» ﴿ إن إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ (هود: ٧٥) كانت زينب أم المؤمنين رضى الله عنها كثيرة، الصلاة، خاشعة القلب، موصولة دائمًا بالله عز وجل، وكان رسول الله ﷺ يحب هذه الصفات العالية فيها، وتعجبه صلاتها وصلتها بربها عز وجل.

روى الطبرانى رحمه الله عن راشد بن سعد الحبرانى قال: دخل رسول الله ﷺ منزله ومعه عمر بن الخطاب، فإذا هو بزينب بنت جحش تصلى، وهى تدعو فى صلاتها، فقال النبى ﷺ: «إنها الأواهة».

وكان ﷺ يكثر من الثناء عليها بقوله: «إنها لأواهة» وكفى بشهادة رسول الله ﷺ لتجعلها فى مكانة سامية فى سدة العبادة والصلاة.

ولله در أبى نعيم الأصبهانى إذ أصاب بقوله فى مفتتح ترجمته لزينب رضى الله عنها فقال: «الخاشعة الراضية، الأواهة الداعية».

وكانت زينب رضى الله عنها تعرف مدى ارتباطها بالرسول ﷺ، وتدرك قيمة الوشيجة التى أحلتها حظوة ومكانة عنده، فكانت تقول للنبى ﷺ: يا رسول الله، إنى لأدل

---

(١) رواه مسلم (٢٤٥٣).

عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تدل بهن: إن جدى وجدك واحد، وإنى أنكحنيك الله عز وجل من السماء، وإن السفير جبريل عليه السلام».

ومن المتوقع أن أمنا زينب رضوان الله عليها، كانت تفاخر أمهات المؤمنين الأخريات، بما اختصت به من عزة الشرف، وشرف المحتد، وكرم المكانة، وفى زواجها الميمون فتقول: «أنا أكرمكن وليًا، وأكرمكن سفيرًا، زوجكن أهلكن، وزوجنى الله من فوق سبع سماوات».

وخلال حياة أم المؤمنين زينب مع رسول الله ﷺ، كانت ترافقه فى الجهاد، فقد كانت معه فى حصار الطائف، وفى غزاة خيبر، وذكر ابن سعد والذهبى رحمهما الله «أن رسول الله ﷺ أطعم زينب بنت جحش بخيبر مائة وسق».

ورافقته زينب رضى الله عنها فى حياة العبادة والطاعة، ففى حجة الوداع كانت من نسائه الطاهرات، وقال ﷺ لهن يوم إذ: «هذه ثم ظهور الحصير» فكانت نساء النبى ﷺ يحججن سوى أم المؤمنين سودة بنت زمعة وزينب بنت جحش قالتا: «لا تحركنا دابة بعد رسول الله ﷺ، وفى رواية الإمام أحمد، أنهما كانتا تقولان: «والله لا تحركنا دابة بعد أن سمعنا ذلك من رسول الله ﷺ».

لم تخرج زينب أم المؤمنين من بيتها وهى ملتزمة بالذى أوصاها به ﷺ وسائر أزواجه، أخرج محمد بن سعد رحمه الله فى طبقاته قال: لم تحج زينب بنت جحش بعد حجة رسول الله ﷺ التى حجتها معه حتى توفيت فى خلافة عمر سنة عشرين، وكانت زينب قد عملت بوصية رسول الله ﷺ حينما قال لأزواجه: «أيكن اتقت الله، ولم تأت بفاحشةٍ مبينة، ولزمت ظهر حصيرها، فهى زوجتى فى الآخرة».

ثَنَاءُ أُمَّهَاتِ الْمُؤمنِين عَلَيْهَا:

لا شك فى أن ثناء المرأة على المرأة ليس شيئًا عاديًا، ولا يمكنك أن تنتزع الثناء من واحدةٍ لأخرى إلا بشق الأنفس، فطبيعة المرأة بعامةٍ، وأثرتها لا تسمح لها أن تجود بالثناء على بنات جنسها، أو أن تمتدح صفات طيبة فيها، ولقد أصاب الشاعر قديمًا حينما قال:

كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسدًا وبغيًا إنه لدميمُ

غير أن أمهات المؤمنين رضى الله عنهن يعطين كل ذى حق حقه، فقد ارتوين من ينبوع الأدب النبوى، وتغذين من المائدة القرآنية، فانتشعت نفوسهن، فكن يقلن الحق، ويثنى بعضهن على بعض بما فيه مرضاة الله عز وجل دون مجاملة أو محاباة، فليس هناك من أمر يدعو لذلك وكانت أم المؤمنين زينب بنت جحش رضى الله عنها تكن الحب والاحترام لأمهات المؤمنين، وتثنى عليهن خيرًا...

ففى حديث الإفك الطويل الذى روته أمنا عائشة رضى الله عنها، يشهد لزينب بدينها وصيانتها وورعها وطيب عنصرها وكرم منبتها وترفعها عن اللغو، قالت أمنا عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمرى، فقال: «يا زينب ماذا علمت أو رأيت»؟.

فقالت: يا رسول الله أحمى سمعى وبصرى، ما علمت إلا خيرًا.

قالت عائشة: «وهى التى كانت تسامينى من أزواج رسول الله ﷺ، فعصمها الله بالورع...» الحديث.

وظلت كلمات زينب الطيبة الصادقة رصيدًا غاليًا لعائشة رضى الله عنهما، ولذلك أثنت عليها عائشة خير ثناء من كريم الصفات، وفضائل المكرمات ومحاسن الشمائل.

ورد فى الصحيح ثناء لأم المؤمنين عائشة على أم المؤمنين زينب رضوان الله عليهما، من حديث طويل قالت فيه عائشة: «فأرسل أزواج النبى ﷺ زينب بنت جحش زوج النبى ﷺ وهى التى كانت تسامينى منهن فى المنزل عند رسول الله ﷺ ولم أرَ امرأة قط خيرًا فى الدين من زينب، وأتقى، وأصدق حديثًا، وأوصل للرحم، وأعظم للصدقة، وأشد ابتذالاً لنفسها فى العمل الذى تصدق به، وتقرب به على الله تعالى...» الحديث.

أخرج الإمام أحمد رحمه الله عن عروة بن الزبير عن عائشة بلفظ: «ولم أرَ امرأة خيرًا منها، وأكثر صدقة، وأوصل للرحم، وأبذل لنفسها فى كل شىء يتقرب به إلى الله عز وجل من زينب» وقد أثنت عائشة على زينب فى مجال البر والصدقات واصطناعها المعروف، فقالت: «وكانت أطولنا يدًا زينب، لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدقَ».

ولما توفيت أم المؤمنين زينب رضى الله عنها طفقت عائشة تعدد فضائلها، وتجود بالثناء عليها، وتذكر مناقبها، فقد كانت تحدث الناس عن شمائلها الحسان.

يروى عن عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية رحمها الله عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها، أنها أثنت على زينب بنت جحش فقالت: «يرحم الله زينب لقد نالت فى الدنيا الشرف الذى لا يبلغه شرف: إن الله زوجها، ونطق به القرآن، وإن رسول الله قال لنا: «أسرعكن بى لحوقًا أطولكن باعًا» فبشرها بسرعة لحوقها به، وهى زوجته بالجنة».

ومما يزيد من مكانة زينب بين أمهات المؤمنين، أنها كانت تعمل بيدها وتتصدق، وهذا يشير إلى مدى برها وجودها، فالمرأة إذا جادت بمالها الخاص، دليل على طيب نفسها وكريم عنصرها، وقد شهدت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها لزينب بهذه الخاصية المباركة: كثرة الصدقة، والإيثار فقالت: «كانت ــ زينب ــ صناع اليد، فكانت تدبغ وتخرز، وتصدق» ولو رحنا نعدد ما أثنت به عائشة على زينب رضى الله عنهما لعرفنا مقدار محبة عائشة لها، وعرفنا مكانة زينب فى العِقْد الميمون الذى نُظِمَت فيه فكانت من أمهات المؤمنين الطاهرات رضى الله عنهن وأرضاهن.

وإذا كان الثناء على الأحياء فضيلة، فإن الثناء على الأموات من أرفع الفضائل وأنفسها، ولذلك فإن زينب رضى الله عنها لما توفيت قالت عائشة: «لقد ذهبت حميدة، متعبدة، مفزع اليتامى والأرامل».

وإذا ما ذكرت أم المؤمنين زينب أمام عائشة أم المؤمنين أكثرت الثناء عليها، وأكثرت من ذكر محاسنها ونشر فضائلها، فقد سأل عروة بن الزبير رحمه الله خالته أم المؤمنين رضى الله عنها قالت: «يا خالة أى نساء رسول الله ﷺ كانت آثر عنده؟» فقالت: «ما كنت أستكثره، ولقد كانت زينب بنت جحش وأم سلمة لهما عنده مكانة، وكانتا أحب نسائه إليه فيما أحسب بعدى».

وفى معرض الثناء الفياض بالخير، والبركات تشارك أم أخرى من أمهات المؤمنين بنشر طيب أعمال زينب وصفاتها وتشير إلى صلاحها وصلاتها، تقول أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها: «كانت امرأة صالحة صوامة قوامة».

وهذه الشهادة ترفع أم المؤمنين زينب عاليًا عاليًا، وتجعلها فى مكانة سامقة فى العبادة والصلاح، وكفاك بهذه المنزلة شرفًا.

وكما كانت عائشة تثنى على زينب، كانت أم سلمة، تمتدح زينب أيضًا، ذكرت زينب بنت أم سلمة قالت: «سمعت أمى أم سلمة تقول: وذكرت زينب بنت جحش، فترحمت عليها وذكرت بعض ما كان يكون بينها وبين عائشة فقالت زينب: أى أم المؤمنين: إنى والله ما أنا كأحدٍ من نساء رسول الله ﷺ إنهن زوجن بالمهور، وزوجهن الأولياء، وزوجنى الله ورسوله، وأنزل فى الكتاب يقرأ به المسلمون ولا يبدل ولا يغير: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ الآية، قالت أم سلمة: وكانت لرسول الله معجبة، وكان يستكثر منها، وكانت امرأة صالحة صوامة قوامة صناعًا يتصدق بذلك كله على المساكين».

وقد اقتبس فقهاء العلماء وعلماء الأمصار ثناءهم لأم المؤمنين زينب مما أثنى به أمهات المؤمنين عليها، قال ابن كثير: «كانت زينب بنت جحش من المهاجرات الأول، وكانت كثيرة الخير والصدقة».

أما الذهبى رحمه الله ففى كل مكان أورد فيه سيرة أم المؤمنين زينب يذكر من نفحاتها الإيمانية ما تلذ له الأسماع والأبصار، ففى سير أعلام نبلائه ذكرها بقوله: «كانت من سادة النساء دينًا وورعًا وجودًا ومعروفًا رضى الله عنها».

وإذا ما تحدث فى تاريخه، أوجز صفاتها بقوله: «كانت كثيرة البر والصدقة .

وجمع الواقدى رحمه الله صفات أم المؤمنين، والثناء عليها فى عبارة واحدة قال: كانت امرأة صالحة، صوامة، قوامة، صناعًا، تتصدق بذلك كله على المساكين».

زَيْنَبُ فى ظلال الخلافَة الرَاشدَة:

أدركت أمنا زينب رضى الله عنها خلافة الصديق، وكانت مرعية الجانب، يعرف مكانتها فى البيت النبوى الطاهر، فهى تناصى ابنته عائشة فى المنزلة الكريمة عند النبى ﷺ، وكلتاهما جوهرتان فى عقد نساء أهل البيت الطاهرات.

أما فى عهد الفاروق عمر، فكانت زينب تناصى ابنته حفصة أم المؤمنين رضى الله عنهما، وكان عمر يعرف قدرها، ويشهد بورعها، وبزهدها، وإعراضها عن الدنيا التى جعلتها فى يدها، ولم تجعل لها سبيلاً إلى قلبها.

كان سيجنا عمر يقسم لأمهات المؤمنين فى العام اثنى عشر ألفًا لكل واحدة، وكانت زينب بنت جحش رضى الله عنها لا تستبقى منهم درهمًا واحدًا، وإنما تنفق المال كله على ذوى أرحامها، وعلى أيتام قريش، فكانت الدراهم وسيلتها لإدخال السرور إلى قلوب ذوى الحاجات وتفريج كروبهم.

ولنشهد هذا الموقف الكريم لأمنا زينب رضوان الله عليها:

ففى السنة التى توفيت فيها، أرسل عمر بن الخطاب ﷺ إلى زينب بعطائها الذى لها، فقالت: «غفر الله لعمر غيرى من أخواتى أمهات المؤمنين كان أقوى على قسم هذا المال».

قالوا لها: «هذا المال كله لك يا أم المؤمنين».

قالت رضى الله عنها: «سبحان الله العظيم! واستترت منه بثوب، وقالت: صبوه، واطرحوا عليه ثوبًا» ثم أمرت برزة بنت رافع ــ وهى التى روت هذا الخبر ــ وقالت لها: «يا برزة، أدخلى يدك فاقبضى منه قبضة، فاذهبى بها إلى بنى فلان، ثم بنى فلان، وذكرت جماعة من رحمها وأيتامها» وبقيت بقية تحت الثوب، فقالت لها برزة بنت رافع: «غفر الله لك يا أم المؤمنين، والله لقد كان لنا فى هذه الدراهم حق!!» فقالت زينب رضى الله عنها: «لكم ما تحت الثوب» قالت برزة بنت رافع: «فعددنا المال فوجدناه خمسة وثمانين درهمًا...» ثم إن أم المؤمنين زينب رضى الله عنها رفعت يدها إلى السماء ودعت ربها فقالت: «اللهم لا يدركنى عطاء لعمر بعد عامى هذا» فاستجاب الله لها فماتت عامئذ.

قال ابن سعد رحمه الله: «ما تركت زينب بنت جحش رضى الله عنها درهمًا ولا دينارًا، كانت تتصدق بكل ما قدرت عليه، وكانت مأوى المساكين».

وأورد ابن سعد رحمه الله عن محمد بن كعب أنه: كان عطاء زينب بنت جحش اثنى عشر ألف درهم، ولم تأخذه إلا عامًا واحدًا، حُمِلَ إليها اثنا عشر ألف درهم، فجعلت تقول: اللهم لا يدركنى قابل هذا المال، فإنه فتنة، ثم قسمته فى أهل رحمها، وفى أهل الحاجة حتى أتت عليه، فبلغ عمر فقال: هذه امرأة يراد بها خير، فوقف على بابها وأرسل بالسلام، وقال: قد بلغنى ما فرقت، فأرسل إليها بألف درهم يستنفقها، فسلكت بها طريق ذلك المال».

رِوَايتُهَا لأَحَادِيْثِ المُصْطَفَى:

أم المؤمنين زينب بنت جحش رضى الله عنها، إحدى إحدى أمهات المؤمنين الطاهرات اللواتى روين الحديث الشريف عن رسول الله .

ولم تكن أم المؤمنين رضى الله عنها من المكثرات فى الرواية، وإنما أحصى لها أصحاب الأحاديث، أحد عشر حديثًا روتها عن النبى ، اتفق لها البخارى ومسلم على حديثين.

وبالإضافة إلى وجود أحاديث أمنا زينب فى الصحيحين، فإن أحاديثها منثورة فى بقية الكتب الحديثية الأربعة وهى: سنن الترمذى، النسائى، وأبى داود، وابن ماجه، إذن فحديثها فى الكتب الستة يضاف إليها المسانيد، كمسند أحمد وأبى يعلى.

روى عن أم المؤمنين زينب رضى الله عنها من الرجال: ابن أخيها محمد بن عبد الله بن جحش، وأرسل عنها القاسم بن محمد بن أبى بكر، ومذكور مولاها.

وروى عنها أمهات المؤمنين: أم المؤمنين رملة بنت أبى سفيان المشهورة بكنيتها أم حبيبة رضى الله عنها.

ومن الصحابيات: زينب بنت أبى سلمة وأمها أم المؤمني أم سلمة، كما روت عنها: كلثوم بنت المصطلق.

ومن الأحاديث الشهيرة المعروفة التى رُويت عن أمنا زينب بنت جحش رضوان الله عليها، ما ورد الصحيحين وغيرهما بسندٍ عن حميد بن نافع، عن زينب بنت أبى سلمة، أنها أخبرته قالت: «دخلت على زينب بنت جحش حين توفى أخوها، فدعت بطيب فمست منه، ثم قالت: والله ما لى بالطيب من حاجة، غير أنى سمعت رسول الله يقول على المنبر: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تحد على الميت فوق ثلاث ليال، إلا على زوج أربعة أشهر وعشرًا»».

ومما أخرجه لها البخارى وغيره من أئمة الحديث، ما رَوَوْه بسندٍ عن أم حبيبة بنت أبى سفيان، عن زينب بنت جحش: أن رسول الله دخل عليها يومًا فزعًا يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب، من شر قد اقترب، فتح اليوم من رُدم يأجوج ومأجوج مثل

هذه ـ وحلق بإصبعيه الإبهام والتى تليها ـ قالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله، أفنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثر الخبث».

وَفَاتُهَا وَوَصِيَّتُهَا:

عاشت أم المؤمنين زينب بنت جحش رضى الله عنها شطرًا من الخلافة الراشدة، وفى سنة عشرين من الهجرة المباركة شعرت بدنو الرحيل إلى رحاب المليك المقتدر، لتلقى محمدًا ، وثقل عليها المرض، فمرضها أمهات المؤمنين رضى الله عنهن.

ولما حضرت زينب بنت جحش الوفاة قالت: «إنى قد أعددت كفنى، فإن بعث لى عمر بكفنى، فتصدقوا بأحدهما، وإن استطعتم إذ أدليتمونى أن تصدقوا بحقوى فافعلوا».

وفى سنة عشرين للهجرة توفيت أم المؤمنين زينب، وصعدت روحها إلى بارئها راضية مرضية، ولها من العمر ثلاثة وخمسون عامًا وكانت أول نساء رسول الله لحوقًا به، وبذلك تحققت نبوءة رسول الله حيث ذكر ذلك.

أخرج ابن سعد رحمه الله بسنده عن الزهرى عن سالم عن أبيه قال: قال رسول الله يومًا، وهو جالس مع نسائه: «أطولكن باعًا أسرعكن لحوقًا بى» فكن يتطاولن إلى الشىء، وإنما عنى رسول الله بذلك الصنعة، وكانت زينب امرأة صنعًا، فكانت تتصدق به فكانت أسرع نسائه لحوقًا به وقد أوصت أم المؤمنين زينب رضى الله عنها أن تُحْمَلَ على سرير رسول الله ، ويجعل عليه نعش، وأوصت كذلك ألا تتبع بنار.

ولما ماتت أمر عمر مناديًا فنادى: «ألا لا يخرج على زينب إلا ذو رحم من أهلها» فقالت أسماء بنت عميس رضى الله عنها: «يا أمير المؤمنين، ألا أريك شيئًا رأيتُ الحبشة تصنعه لنسائهم؟» فجعلت نعشًا، وغشته ثوبًا، فلما نظر إليه قال: «ما أحسن هذا! ما أستر هذا!» ثم قال: «نِعْمَ الخباءُ الظعينة».

وقيل: «إن زينب هى أول امرأة جعل عليها النعش» وبعد ذلك أمر عمر مناديًا فنادى أن اخرجوا على أمكم.

ولما حملت زينب إلى قبرها بالبقيع، قام عمر إلى قبرها فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «إنى أرسلت إلى نساء النبى ﷺ حين مرضت هذه المرأة، من يمرضها ويقوم عليها، فأرسلن: نحن، فرأيت أن قد صدقن.

ثم أرسلت إليهن حين قبضت: من يغسلها ويحنطها ويكفنها؟.

فأرسلن: نحن، فرأيت أن قد صدقن.

ثم أرسلت إليهن: من يدخلها فى قبرها؟.

فأرسلن: من كان يحل له الولوج عليها فى حياتها، فرأيت أن قد صدقن، فاعتزلوا أيها الناس».

فنحاهم عن قبرها، ثم أدخلها رجلان من أهل بيتها.

وعن عبد الرحمن بن أبزى قال: «صلى عمر على زينب بنت جحش، فكبر عليها أربع تكبيرات، فأراد أن يدخل القبر، فأرسل إلى أزواج النبى فقلن: إنه لا يحل لك أن تدخل القبر، وإنما يدخل من كان يحل أن ينظر إليها وهى حية، بنو أخيها، وبنو أختها».

وأمر عمر ﷺ أن يضرب فسطاط بالبقيع على قبرها لشدة الحر يومئذ، فكان أول فسطاط ضرب على قبر بالبقيع، وكان عمر ﷺ والأكابر من أصحاب رسول الله قيامًا على أرجلهم، فأمر عمر محمد بن عبد الله بن جحش، وعبد الله بن أبى أحمد بن جحش، ومحمد بن طلحة بن عبيد الله ابن أختها حمنة، فنزلوا فى قبر زينب بنت جحش أم المؤمنين، وهؤلاء من محارمها.

وبعد، فهذه نفحات نديات من سيرة أم المؤمنين زينب بنت جحش رضى الله عنها، وإنى أرجو الله عز وجل أن أكون قد وفقت فى عرض سيرتها ونظمها فى عقد نساء أهل البيت الطاهرات.

رضى الله عن أمنا زينب وأرضاها، وجعل الجنة مأواها، ونسأل الله عز وجل أن يكرمنا بأهل البيت، ويحشرنا مع الذين أنعم عليهم، ويدخلنا برحمته فى عباده الصالحين، إنه سميع مجيب جواد كريم.

أم المؤمنين
جويرية بنت الحارث رضى الله عنها

من فضليات النساء وساداتهن، كانت صافية القلب نقية السريرة.
كانت أعظم الناس بركة على قومها وأهلها.
كانت ذات عقل حصيف، ورأى موفق، وكانت قانتة ذاكرة شاكرة، تقية.
عالمة ناقلة للحديث الشريف، روى أحاديثها أصحاب الكتب الستة.
توفيت سنة (٥٠هـ) عن عمر يناهز السبعين ودفنت بالبقيع فى المدينة المنورة.

أم المؤمنين
جويرية بنت الحارث رضى الله عنها[1]

شَخْصِيَّةٌ فَرِيدَةٌ:

كانت السيدة جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار المصطلقية تعتز بأبيها الحارث سيد قومه، وكانت قد نشأت فى ظلال سيادة أبيها لقومه فى عز وسؤدد ومجدٍ مؤثلٍ، وكما نعلم فإن للبيوت العريقة أعظم الأثر التربوى وأبقاه فى تنشئة ناشئيها، وتربية بناتها وبنيها.

تزوجت جويرية بنت الحارث فى حداثة سنها مسافع بن صفوان، أحد فتيان خزاعة، وأصل بنى المصطلق، اقترنت به فى وقت مبكر، قبل أن تتم العقد الثانى من عمرها.

وقد زين الله عز وجل السيدة جويرية منذ صغرها بكريم الصفات، ولطيف المكرمات، وجميل الأخلاق، وحسن الأدب، وغيرها من محاسن الفضائل، ما جعلها من فضليات النساء وساداتهن.

لهذه الصفات الكريمة، تفيأت السيدة جويرية ظلال الدوحة النبوية الشريفة، وأضحت من أمهات المؤمنين، وواحدة من نساء أهل البيت الطاهرات ذوات الشأن فى الإسلام.

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ١١٦- ١٢٠) والاستيعاب (٤/ ٢٥١ - ٢٥٤) والإصابة (٤/ ٢٥٧، ٢٥٨) أسد الغابة (٦/ ٥٦ - ٥٨).

ولكن كيف انتظمت ودخلت السيدة جويرية فى عقد الدرر النبوية، وغدت إحدى حباته فصارت من أمهات المؤمنين الطاهرات؟.

هذا ما سنعرفه إن شاء الله فى الصفحات التالية:

بِدَاياتُ النُّورِ:

عمَّ نور الإسلام الدنيا، وانتشر سناه فى الجزيرة العربية، إلا أن بنى المصطلق كانوا من الذين لا يزالون يغطون فى نوم الرواسب الجاهلية، بزعامة رئيسهم الحارث ابن أبى ضرار، وكانت تصك آذانهم أخبار الحروب التى نشبت بين المسلمين، وبين المشركين الذين أقضَّ مضاجعهم صدى انتصاراتهم المدوية هنا وهناك، فتثير فى نفوسهم السقيمة نعرة الطيش المتهور.

كان بنو المصطلق من بقايا الغثاء المشرك المتخلف فى الجزيرة العربية، وقد استولى عليهم الرعب وغلفهم الاضطراب، وخافوا إن هم ظلوا فى موقفهم الاعتزالى المتردد المتحير، أن تدور عليهم الدائرة، وتقضى عليهم كتائب فرسان المسلمين وأبطالهم، وهم فى غفلتهم يترددون، أو هم ساهون أو نائمون.

بدأ الشيطان يتسلل إلى نفوسهم ويلعب بهم، ويزين لهم أنهم أقوياء وأنهم فرسان العرب، وأنهم وأنهم... وإذ ذاك تحركوا ليهاجموا المجتمع المسلم بقيادة قائده الأعظم الحبيب المصطفى ﷺ، وأخذوا يعدون العدة لذلك، ويتأهبون بكل ما يقدرون عليه من الرجال، والعدة، والسلاح، والمؤن، ليهاجموا قوة هذا المجتمع الكريم، الذى يبغى لهم الخير والنجاة والفوز والفلاح، وكذلك للمجتمع الإنسانى كله.

ومشى زعيمهم ورجالهم الذين أخذتهم العزة بالإثم، مشوا فى أحياء بقايا غسالات القبائل، وبقايات العشائر، يجمعونها معهم لتجربة حظهم فى حجب النور المتنامى الممتد لإزالة ظلمات عقولهم الجارف الذى بدأ يكتسح أمامه كل قوى الجاهلية الوثنية الطاغية، وأزال كل العقبات من طريق دعوته، وأضاء الدنيا بتبليغ رسالته، رسالة الحق والعدل، والنور والهدى.

حِكْمَةٌ نَبَوِيَّةٌ:

كانت الأخبار تَرِدُ رسول الله ﷺ، عما يدور في الجزيرة العربية من أحداث وأمور، وبلغ خبر تجمع بنى المصطلق وتحفزهم رسول الله ﷺ، فنظر بعين الحكمة إلى هذا الخبر، وأراد جريًا على منهجه، وحكمته النبوية أن يتحرى ويتأكد ما بلغه عن بنى المصطلق، فبعث رسول الله ﷺ بُريدة بن الحصيف بن عبد الله الأسلمى، ليعلم له علم أولئك القوم، ويأتيه من صفوفهم، واجتمع برئيسهم ورأسهم الحارث بن أبى ضرار، وتحدث إليه، واختبر أمره وسره، فوجدهم عازمين على مهاجمة رسول الله ﷺ وأصحابه ليستأصلوهم من أرضهم وديارهم.

رجع بريدة بن الحصيب ﷺ بما حصده واستخلصه من أخبار القوم، وبما علم من نيتهم، وبما سولت لهم أنفسهم، فأخبر رسول الله ﷺ خبرهم، وبث إليه حديثهم، وألقى بين يديه سرهم وجهرهم، فندب رسول الله ﷺ أصحابه، وكانوا سبع مائة مقاتل، وخرج بهم مسرعًا إلى بنى المصطلق، وخرجت معه فى هذه الغزاة أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق عائشة رضى الله عنها وعن أبيها وحشرنا فى معيتهما.

وبلغ رئيس بنى المصطلق الحارث بن أبى ضرار، ومن معه من الجموع، مسير الحبيب المصطفى ﷺ إليه، وإلى جموعه التى تجمعها رابطة الطمع، وهى أوهن من خيط العنكبوت، فتملك الخوف الحارث بن أبى ضرار، ورعب رعبًا شديدًا، فارتعدت فرائصه، واستولى عليه الذعر والهلع، واستحوذ على جموعه الفزع، فتفرقوا عنه وتركوه مع لفائف قومه، وهم لا يقلون عنه خوفًا وهلعًا.

أما رسول الله ﷺ، فقد بلغ بأصحابه إلى المريسيع، فضرب عليه قبة، وتهيأ الجمعان للقتال، وقبل أن ينشب قتال أو نزال، أمر الحبيب الأعظم ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ، أن ينادى بنى المصطلق أن يقولوا: «لا إله إلا الله» ليمنعوا بها أنفسهم وأموالهم.

لكن بنى المصطلق ركبهم شيطان الغرور، وركبوا رءوسهم الخاوية، فأبوا أن يستجيبوا لدعوى الحق، ونور الحقيقة، وسماحة الإسلام، وأشعلوا فتيل الحرب وأوروا زنادها فرمى رجل منهم المسلمين بنبله وسهامه، فأمر رسول الله ﷺ أحبابه وأصحابه أن يحملوا على هؤلاء حملة رجل واحد، فاستجابوا وصدقوا الله عز وجل فى حملتهم

حتى أخذوا أعداءهم أخذًا، فلم يفلت منهم أحد، وقتلوا منهم عشرة، كان مسافع بن صفوان زوج جويرية بنت الحارث من العشرة الذين جندلتهم السيوف المسلمة وجعلتهم كأمس الدابر، وأسروا سائرهم، وكانوا سبع مائة رجل، وغنموا أموالهم، وسبوا نساءهم، وذراريهم، واستاقوا نعمهم وشاءهم، ونصر الله عز وجل رسوله نصرًا عزيزًا.

جويرية ونصر المؤمنين:

بعد أن انتهى أمر غزوة بنى المصطلق بذلك النصر المبارك السريع، عاد الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة منصورًا مظفرًا، تساق الأسرى والغنائم والسبى من النساء والذرارى بين يديه، وكان ذلك شيئًا كثيرًا أنعش المسلمين، وأغناهم، والروايات متفقة على أن عدد الأسرى كان أكثر من سبع مائة، وكانت غنائم الإبل ألفى بعير، وغنائم الشاه خمس آلاف شاة، وكان السبى من النساء والذرارى قرابة مائتى أهل بيت.

قد قسمت هذه الغنائم، ووزعت الأسرى والسبايا والذرارى بين المجاهدين، وكان من بين السبايا السيدة العاقلة جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق وكانت فتاة لا تزال فى زهرات العمر الأولى، وقد وقعت فى سهم ثابت بن قيس بن شماس الأنصارى ﷺ فكاتبها على تسع أواق من الذهب.

كانت السيدة الحسيبة جويرية بنت الحارث ذات عقل رصين، وخلقٍ كريم، وتفكير حصيف، وحسن بصر بالأمور، وفصاحة، تعرف مواقع الكلام، وتدرك تأثيره فى النفوس الكريمة، وكانت ذات تعزز وأنفة لا تصبر على الضيم، كما كانت ذات سؤدد سما بها عن الرضا بمذلة الرق، والتطلع إلى الحرية الكريمة، إذ عاشت فى ظلال العز والسؤدد، وفى بيت من أعز البيوت العربية المنيفة، الذى تخفق فيه رفرفات الشرف والمجد والرفعة، ولذلك رضيت جويرية بما كاتبت عليه ثابت بن قيس على الرغم من كثرتها، لأنها كانت تتطلع إلى معالى الأمور، وتخوض لها لجج المكارم، لتتبوأ ذروتها، فقد كانت ذات نفس كبيرة شريفة، استطاعت من خلالها أن تكسب الخلود على مدى الأيام، وتغدو حسيبة النسب بالاتصال بسيد الكائنات محمد ﷺ، ثم لتكون أمًّا للمؤمنين، وهل هناك مرتبة أرفع وأعظم وأكرم من هذه المرتبة؟! إذن سنتعرف كيف أصبحت

جويرية درة من درر العقد النظيم فى نساء آل البيت النبوى، من خلال السطور والفقرات التالية...

سؤدد وطموح:

أنعم الله عز وجل على السيدة جويرية رضى الله عنها بنعمةٍ كريمة هى نعمة الجمال والملاحة، وقد لفتت نظر أمنا عائشة رضى الله عنها إليها، فقالت تصفها: «وكانت حلوة ملاحة».

إن هذه الملاحة جعلتها متميزة بين النساء، لأنها كانت تنظر إلى معالى الآمال، نظرة تدل على طموحها الكريم، وفراستها المستلهمة من تربيتها الكريمة السامية.

فقد كان من سمو نفسها، ورفعة تصوراتها، وطموح آمالها، أنها ـــ بعد أن كاتبت على نفسها بذلك القدر الباهظ من المال ـــ جاءت وآمال الفراسة الصحيحة تقودها إلى سيد المكارم والمكرمات، وأكرم الكائنات، وأعلمهم بمنازل الناس ومقاماتهم، وأحقهم أن تمد إليه يد العرفان، لانتشالها من وهدةٍ ألقتها فيها أعاصير التخلف الجاهلية، فباعدت بينها وبين حياتها التى كانت كلها نسائم رقيقة من الصبا، ورشحات عبقة من ندى رغد العيش والشرف المنيف.

جاءت جويرية رسول الله ﷺ، هذا النبى الكريم الذى هزم قومها، وأسر رجالهم، وسبى نساءهم، وذراريهم بالأمس القريب، فكانت هى إحدى سبايا قومها، وهى ابنة سيدهم ورئيسهم، ووقعت فى سهم رجل من علية المسلمين، وفصحاء الأنصار ثابت بن قيس خطيب الحبيب المصطفى ﷺ فى محافل المنافرات، إلا أن جويرية لم تصبر نفسها الكبيرة على بلاء الرق وهوانه، وقفت جويرية أمام الرسول الكريم والرءوف الرحيم ﷺ، وقفت تستعينه على الخروج من سجن حريتها لتتنفس عبير الكرامة، وتستشعر العزة التى كانت تتقلب بين أزاهرها وورودها، وطلبت منه ﷺ أن يعينها، وقصت عليه القصص فقالت: «يا رسول الله ﷺ إنى امرأة مسلمة، أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث سيد قومه، وكان من أمرى ما لا يخفى عليك».

وفى رواية أنها قالت: قد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك، ووقعت فى سهم ثابت بن قيس بن شماس، فكاتبنى على ما لا طاقة لى به، ولا يدان لى، ولا قدرة عليه،

وهو تسع أواق من الذهب، وما أكرهنى على ذلك إلا أنى رجوتك صلى الله عليك، وجئتك أسألك فى كتابتى».

ولك عزيزى القارئ أن تتصور فى تلك اللحظات موقف جويرية أمام رسول الله ﷺ وهى ترجو من مكارمه الفياضة ما يحقق حريتها.

ولكن من كان يدرى أن جويرية وضعت رحل رجائها بين يدى النبى ﷺ، لتكون معه فى أعلى عليين، أمًّا للمؤمنين، وحليلة سيد المرسلين، وسيد الأولين والآخرين، من كان يعلم ذلك؟.

كان ذلك فى علم العليم الخبير، قبل أن يخلق الله الأرض ومن عليها، إذن، فليأخذ الرسول الكريم ﷺ بيد هذه المسلمة المؤمنة، وليحلق بها فى الفراديس، إلى أرفع منزلة فى الجنات ليخرجها من ضيق الرق وسجن العبودية لغير الله عز وجل، إلى آفاق العزة، وإلى آمال السؤدد، وإلى أكرم المكارم، ولتكن زوجًا لأكرم البشر، ولتكن أمًّا لصفوة البشر، أمًّا للمؤمنين، أمًّا لثابت بن قيس، ومن فوقه، ومن دونه من المسلمين، ولتكن سيدة نبيلة من سيدات نساء العالمين، ولتنتظم فى سلكهن الكريم، وتدخل البيت النبوى الطاهر وتحظى بالفضل العميم.

فى ذلك الموقف النبيل الميمون، أضحت جويرية بكلمة واحدة أمًّا للمؤمنين، عندما قال لها سيد الأولين والآخرين حبيبنا محمد ﷺ وهى تسأله كتابتها: «هل لكِ فى خير من ذلك»؟.

فقالت ويقين الآمال وأنوارها تضىء نفسها: «وما هو يا رسول الله»؟.

فقال الحبيب المصطفى ﷺ: «أؤدى عنك كتابتك وأتزوجك».

الله أكبر..!!..

الله أكبر، أى غيث هطال هذا الذى فاضت به سموات الغيب، لتروى بنميره العذب قلبًا كان قبل لحظات يتحرق طلبًا لاستنشاق عبير الحرية.

الله أكبر، أى شعور استأثر بمشاعر جويرية، وأى سمة أجل وأسمى وأعظم من هذا الذى تسمعه من رسول الله ﷺ هو يقول: «أؤدى عنك كتابك وأتزوجك» لقد كانت ترجوه فى أمرٍ بسيطٍ، فإذا به ﷺ يرجى للعظائم، ومعالى المكارم...

كانت جويرية حين أجابها النبى ﷺ، وتسمع كلامه، مليئة الفؤاد بالأمل المرجى، تتكلم وتسمع وهى رابطة القلب، ثابتة الجأش، ساكنة الفؤاد، مضيئة الروح، تنظر بعين البصيرة إلى المستقبل القريب، فأجابت رسول الله ﷺ إجابة نورانية، فلم تتلعثم، ولم تتردد، ولكنها أسرعت بكل مشاعرها وهى تقول: «نعم، يا رسول الله، وقد فعلت».

بركة جويرية على قومها:

دخلت السيدة النبيلة جويرية بنت الحارث إلى خدرها أمًّا للمؤمنين، وزوجًا لسيد الأولين والآخرين، وحين ذاك سرى هذا النبأ الجميل همسًا نديًّا يصافح أسماع المسلمين، ويلامس نفوسهم، فتسامعوه بينهم، وتعالموه فى محافلهم، وأضاء ذاك الحدث والحديث الآفاق، كما يضىء لمع البرق فى السماء.

قال المسلمون وقد صقلتهم التربية المحمدية، وهذبتهم الآيات القرآنية الندية: «إن رسول الله ﷺ قد تزوج السيدة جويرية بنت الحارث المصطلقية» فأرسلوا كلهم ما فى أيديهم من السبى، وقالوا متعاظمين: «هم أصهار رسول الله ﷺ».

عن هذا الموقف النبيل تتحدث السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها، وتصور تلك الرشحات الندية فى جميع جوانبها، بأبدع أسلوب، وأوجز كلام، فتقول: «فما رأينا امرأة أعظم بركة على قومها منها، فلقد أعتق الله تعالى بها مائة أهل بيت من بنى المصطلق».

وكان اسم جويرية رضى الله عنها برة، فغيره رسول الله ﷺ، وسماها جويرية، كَرِهَ أن يقال: «خرج من عند برّة».

ومن الجدير بالذكر ما أورده أبو عمر القرطبى فى «الاستيعاب» نقلاً عن أبى عبيدة قال: «تزوج رسول الله ﷺ جويرية فى سنةِ خمسٍ من التاريخ».

وقال أبو عمر القرطبى فى «الاستيعاب» «كان اسمها برة، فغير رسول الله ﷺ اسمها وسماها جويرية» وكذلك فعل مع زينب بنت جحش أم المؤمنين، وميمونة أم المؤمنين، وزينب بنت أبى سلمة رضى الله عنها، كان اسم كل واحدة منهن برة، فحوله إلى هذه الأسماء.

جُوَيْرِيَةُ ونَفْحَاتُ الإِنْعَام الرَّبَّانيّة:

روى الإمام البيهقى رحمه الله عن أم المؤمنين جويرية رضى الله عنها قالت: «رأيت قبل قدوم النبى ﷺ بثلاث ليال، كأن القمر يسير من يثرب حتى وقع فى حجرى، فكرهت أن أخبر أحدًا، فلما سُبينا، رجوت الرؤيا، فأعتقنى وتزوجنى».

وكانت أم المؤمنين جويرية عندما تزوجت رسول الله ﷺ فى ميعة الصبا، وقد ذكرت عمرها وقتذاك فقالت: «تزوجنى رسول الله ﷺ وأنا بنت عشرين سنة».

وكانت جويرية رضى الله عنها من أجمل النساء، ذكر هذا الإمام الذهبى رحمه الله فى سيره.

وأعتقد أن نفحة من نفحات الإنعام الإلهى، جعلت جويرية رضى الله عنها بهذه المنزلة العظيمة، منزلة أمهات المؤمنين الطاهرات، فقد أكرمها الله عز وجل بالعقل الحصيف، والرأى الموفق الرصين، وتغلغل الإيمان ورسخ فى نفسها فجعلها رزينة هادئة مطمئنة الضمير، وراحت بفكرها المتسامى عن رغائب الأرض، ودنايا الأمور تنظر إلى العلياء، وإلى معالى المعالى فى السيادة الحقيقية.

تركت وتناست ترف البيت الذى كانت سيدة ومتسيدة فيه بمواريث الجاهلية الجهلاء التى لا تعرف فرشًا وثيرة، وسررًا مرفوعة، ونمارق مصفوفة، وطعامًا شهيًّا، وشرابًا سائغًا هنيًّا، وذواقًا مريًّا طريًّا، وذلك بين أتراب تعلو وجوههن ابتسامات وضحكات، ينعمن فى حياة معطلة بترفٍ عن الحركة النفسية أو الفكرية، وحتى الحركة البدنية التى شلها الفراغ الملول.

فى لحظة مرت كمر السحاب، تركت جويرية هذا كله، ورغبت فى النعيم المقيم الذى رأته بآفاق بصيرتها الممتدة إلى ما وراء الأشياء، ورأته كذلك ببصيرة عقلها الذى جعلته الدليل على الحكم بين الأشياء، ناهيك بالنفحة الربانية الإلهية التى اكتنفت أمنا جويرية حتى تحظى بأشرف مقامات الشرف، وأعلى مقامات السمو بأمومة المؤمنين.

وإلا فما الذى جعل امرأة سيدة مثل جويرية ابنة سيد قومها توافق بالإيجاب، وهى فى عمر الزهرة التى تطل من برعمها متنفسة أنفاس الحياة مع أنداد الصباح فى ظلال الربيع الساحر ذى النسائم المستحلاة، والأوقات المستجلاة.

أجل، إن النفحة الإلهية، والمقادير الغيبية هى التى ألقت بآمال جويرية ورجاواتها بين يدى أكمل البشر، وأكرم الكرماء سيدنا وحبيبنا محمد، وجاءته على استحياء تسأله فى كتابتها وهو فى بيت أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق عائشة رضى الله عنها.

فى رحلة الإنصاف الممزوج بالصدق، تقول أمنا عائشة تصف جويرية فأنصفت القول، وأنصفت جويرية: «وكانت امرأة حلوة ملاحة، لا يراها أحدٌ إلا أخذت بنفسه».

لكن هذه الملاحة والحلاوة، فعلت ما فعلت فى نفس عائشة رضى الله عنها، فهل استطاعت عائشة وهى الحبيبة النبوية أن تصنع شيئًا؟!.

إن العناية الإلهية، والنفحات الندية المجللة بإنعام الإنعام، جعلت من هذه الوافدة أمًّا أخرى لجماعة المؤمنين، وشاركت فى هذا العقد بقية الأخريات اللواتى سبقنها إلى دوحة البيت الطاهر.

ولكن أمنا عائشة مع هذا كله، تنفحنا برحيق أحاديثها الفواحة بالصدق، الممزوجة بحب الإخلاص، ورسوخ الإيمان، وكيف لا وقد نشأت عائشة فى بيت الصديق، وأحاطت بها الرعاية المحمدية.

إذن دعونا نستمع إلى عائشة وهى تتحدث عن مشاعرها فى تلك الساعة التى رأت فيها جويرية على باب حجرتها، قالت عائشة رضى الله عنها: «فوالله، ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتى، فكرهتها، وعرفت أنه سيرى منها ما رأيت أى من ملاحتها».

ولكن نفحات الإنعام الربانية جاءت على جويرية رضى الله عنها، وخلعت النفحات الرحمانية جلابيب السيادة الحقيقية عليها، فكانت أمًّا المؤمنين توقيرًا وتعظيمًا، وإسعادًا لها بكنف رسول الله ﷺ، وإدخالاً للبهجة على رسول الله ﷺ بما وهبها الله عز وجل من كمال إنسانى كانت به من صفة الصفوة من نساء العالمين.

القَانِتَةُ العَابِدَةُ الذَّاكِرَةُ:

لقيت أم المؤمنين جويرية رضى الله عنها فى بيت الرسول ﷺ، ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين فى العبادة والتقى وحسن الصلة بالله عز وجل على أساس صحيح، فراحت تحذو حذو أمهات المؤمنين فى الصلاح والعبادة، وتقتبس من الرسول ﷺ ومن أخلاقه،

ومن شمائله الحميدة ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، حتى غدت مثلاً كريمًا فى الفضل والفضيلة والعبادة والذكر.

كانت جويرية أم المؤمنين عليها سحائب الرضوان من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات، ومن العابدات الصابرات، ومن المجتهدات فى مجال مناجاة الله عز وجل، وتحميده، وتقديسه وتسبيحه، وذكره بالغدو والآصال.

روى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما عن جويرية رضى الله عنها: «أن النبى ﷺ مر عليها، وهى فى مسجدها أول النهار ثم مر عليها قريبًا من نصف النهار، فقال لها: ما زلت على الحال التى فارقتك عليها!.

قالت: نعم.

قال ﷺ: ألا أعلمك كلمات تقوليهن؟.

سبحان الله عدد خلقه.

سبحان الله رضا نفسه.

سبحان الله زنة عرشه.

سبحان الله مداد كلماته».

وفى رواية أخرى عن جويرية رضى الله عنها قالت: أتى علىَّ رسول الله ﷺ فقال: «لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته».

أى فضل أفضل وأرفع، وأى شرف أشرف وأعلى، من فضل وشرف جمعا بين الفضائل العلم والتسبيح؟! وأى مكرمة أفضل من هذا الحدث لجويرية رضى الله عنها؟.

لقد انتهت بما انتهت إليه من النور، والهدى، والرحمة، والسعادة فى زواجها من رسول الله ﷺ، وشرف بنو المصطلق وشرف رئيسهم الحارث بهذه المصاهرة التى رفعتهم عليًّا، فقد صارت ابنة سيدهم أمًّا للمؤمنين، وكانت ميمونة السنا والنقيبة على قومها إذ أعتقهم الله تعالى بها وببركتها من رق العبودية، وأقبل بهم أبو جويرية الحارث بن أبى ضرار على الإسلام، ودخلوا فى دين الله أفواجًا، وحَسُنَ إسلامهم،

وشرفوا به، وكانوا من كتائب المجاهدين، ومن فرسان مدرسة النبوة الميامين، الذين اختصهم الله عز وجل لنصرة دينه، ونشر رسالته، وإعلاء كلمته.

ويظهر لنا أن بركة أم المؤمنين جويرية تخطت قومها، لتعم المسلمين، فلقد كانت غزاة قومها غزاة جمعت من معالم منهج الرسالة أحداثًا تشريعية، وحوادث اجتماعية، وأحكامًا فقهية، وآدابًا سياسية قيادية كتمت أنفاس النفاق، وفضحت كيد المنافقين، وشددت من قوة تماسك هذا المجتمع الذى أشجاهم حتى ماتوا بغيظهم لم ينالوا خيرًا.

العَالِمَة نَاقِلَة الحَدِيث:

إذا أراد الله عز وجل بامرئ خيرًا، أكرمه بالإقبال على العلم يقتبس من نوره ما شاء، ليكمل طريق الهداية والحق فى هذه الحياة الدنيا ليكون من المقبولين، ومن الفائزين، ومن السعداء.

وأمنا جويرية رضى الله عنها ممن أراد الله بها خيرًا، فقد زادها الله عز وجل كمالاً فوق كمالها، ونبلاً فوق سيادتها، ومكانة فوق سؤددها، فقد جعلت حصافة عقلها، ونبل تفكيرها، وإشراق روحها، وصفاء قلبها، ونقاء سريرتها بين يدى رسول الله ﷺ، وهى ترقُبُه فى عبادته الخاصة يوم يكون فى بيتها، وتشهده فى تسبيحه لخالقه، وتقديسه لبارئه، وتصغى إليه وهو يوحد الله عز وجل، وتصيخ إليه، وهى تسمع أحاديثه العذاب فى أدب ولهف وهى عطشى للتزود من آداب الإسلام الاجتماعية، وأحكامه العبادية، وشرائعه النظامية، وتلحظ بعين الحقيقة تلطفه فى عشرته الزوجية وتقرأ الرحمة فى معاملته الداخلية والخارجية، فتعى ذلك كله وعيًا ضابطًا محكمًا ترويه عنها من أصحابه الذين وهبوا حياتهم للعلم، فوهبهم العلم تاجه ونوره، إذ يأخذونه عن رسول الله ﷺ مشافهة، أو رواية أقرب ما تكون للمشافهة، إما لأنه سماع عن أقرانهم، أو شهود لمجالس سماعه، أن تلقيًا لأسراره من أمهات المؤمنين زوجاته الطاهرات، وأخذًا لحقائقه العلمية ممن كان أهلاً لحمل هذه الحقائق والأسرار، التشريعية، والآداب السلوكية فى تربية البيت ومن يضمه بين جنباته.

كانت أم المؤمنين جويرية واعية عالمة بما تسمع، عاملة بما تعلم، تقية، نقية، ورعة، فقيهة، عابدة، مضاءة القلب والعقل، مشرقة الروح، تحب الله عز وجل، وتحب رسوله الكريم ﷺ وتحب الخير للناس أجمعين.

كانت جويرية رضى الله عنها تروى من حديث رسول الله ﷺ، يرويه عنها رواة العلم من علماء الصحابة الكرام رضوان الله عليهم لينشروه فى المجتمع المسلم علمًا وعملاً، ودعوة وهداية وهديًا.

روى عن أمنا جويرية من الصحابة: حبر الأمة عبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله الأنصارى، وعبد الله بن عمر رضى الله عنهم أجمعين.

وروى عنها من الأجلاء: كريب مولى ابن عباس، والطفيل ابن أخيها، وعبيد بن السباق، ومجاهد، وأبو أيوب يحيى بن مالك الأزدى وآخرون.

رُوى لأم المؤمنين جويرية رضى الله عنها سبعة أحاديث، منها حديث عند البخارى، وعند مسلم حديثان.

وقد روى عنها أصحاب السنن الأربعة أيضًا فى كتبهم، ومن مرويات الحديث الذى أخرجه البخارى رحمه الله بسنده عن قتادة عن أبى أيوب عن جويرية بنت الحارث رضى الله عنها أن النبى ﷺ دخل عليها يوم الجمعة، وهى صائمة فقال: «أصُمتِ أمس»؟.

قالت: لا.

قال: «تريدين أن تصومى غدًا»؟.

قالت: لا.

قال: «فأفطرى».

فقد كان من هديه ﷺ كراهة تخصيص يوم الجمعة بالصوم فعلاً منه وقولاً، وصح النهى عن إفراده بالصوم، ولذلك أدلة فى الصحاح والسنن من حديث جابر بن عبد الله وأبى هريرة، وحديث جويرية الآنف الذكر، وعبد الله بن عمرو، وجُنادة الأزدى وغيرهم، رضى الله عنهم.

وثبت أنه ﷺ قد شرب يوم الجمعة وهو على المنبر، يريهم أنه لا يصوم يوم الجمعة، وعلل المنع من صومه، بأنه يوم عيدٍ، فقد روى الإمام أحمد رحمه الله من حديث أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يوم الجمعة يوم عيد، فلا تجعلوا يوم عيدكم يوم صيامكم إلا أن تصوموا قبله أو بعده».

ومن الجدير بالذكر أن أمنا جويرية قد كتب لها شرف الجهاد، وشرف الصحبة مع الرسول الكريم ﷺ إلى ساحات إعلاء كلمة الله، فقد أخرج ابن سعد رحمه الله عن عبد الله بن أبى فروة قال: «سمعت عبد الرحمن الأعرج يحدث فى مجلسه بالمدينة يقول: أطعم رسول الله ﷺ جويرية بنت الحارث بخيبر ثمانين وسقًا تمرًا، وعشرين وسقًا شعيرًا».

مَعَ العُمَرَيْن الصِّدِّيقِ والفاروقِ رضى الله عنهما:

عاشت أم المؤمنين جويرية رضى الله عنها عيشة كريمة فى ظلال الخلافة الراشدة، فقد كان سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ يعرف مكانة أمهات المؤمنين الطاهرات رضى الله عنهن، وكان يقسم المال بينهن بالسوية.

فلما مات أبو بكر ﷺ، واستخلف عمر ﷺ، فتح الله عليه الفتوح، فجاءه المال أكثر من ذى قبل فقال: «قد كان لأبى بكر فى هذا المال رأى، ولى رأى... ثم فرض لأزواج رسول الله ﷺ اثنى عشر ألفًا لكل امرأة، إلا صفية بنة حُيى، وجويرية بنت الحارث رضى الله عنهما، ففرض لكل واحدة ستة آلاف درهم، فأبين أن يأخذنها، فقال: إنما فرضت لهن بالهجرة» فقلن لعمر: ما فرضت لهن بالهجرة، إنما فرضت لهن بمكانتهن من رسول الله ﷺ، ولنا مثل مكانهن.

فقالت عائشة رضى الله عنها: «إن رسول الله ﷺ كان يعدل بيننا» فأبصر عمر ذلك فجعلهن سواء، وعدل بينهن.

وظلت مكانة جويرية رفيعة فى الخلافة الراشدة، وكذلك ظلت فى بداية العهد الأموى تحظى بالاحترام والتوقير من الناس أجمعين.

﴿ ٱرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾:

توفى الحبيب المصطفى ﷺ وهو راضٍ عن أزواجه الطاهرات، ومنهن جويرية بنت الحارث رضوان الله عليها.

فقد عاشت أمنا جويرية بعد رسول الله ﷺ راضيةً عابدةً ذاكرةً، وقضت شطر حياتها فى أفياء عدل خلفاء النبى ﷺ ومع أزواجه الطاهرات، وكانت حياتها مليئة بالعلم والذكر والدعاء والتسبيح، وتلقين العلم لأهل العلم الذين ينشدون مآربهم العلمية فى المدينة المنورة، ويقصدون منارات العلم، وثقاة الرواة، ومن هؤلاء زوجات النبى الطاهرات رضى الله عنهن.

وكانت جويرية أم المؤمنين بما حفظته عن رسول الله ﷺ تروى بعض الذكريات عن حياتها مع الرسول ﷺ، أو تتحدث عن قصة زواجها من رسول الله ﷺ.

وامتدت حياة أم المؤمنين جويرية رضى الله عنها إلى خلافة سيدنا معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما وقد بلغت قرابة سبعين عامًا.

ففى عام خمسين من الهجرة النبوية الشريفة، شعرت أم المؤمنين جويرية رضى الله عنها بقرب لقاء الله عز وجل، وفى شهر ربيع الأول من العام نفسه توفيت رضى الله عنها، وشُيع جثمانها إلى البقيع لترقد فى مثواها الأخير، إلى جانب أمهات المؤمنين، وبنات الحبيب الأعظم ﷺ، وصلى عليها مروان بن الحكم، وكان إذ ذاك أمير المدينة المنورة.

هذه قطوف دانية مباركة من سيرة أمنا جويرية إحدى نساء أهل البيت الطاهرات، فما أعظم بركة جويرية عليها، وما أجمل سيرتها التى تشرح الصدور رضى الله عنها وأرضاها، وعفا عنا ورحمنا، وحشرنا فى معية أمهاتنا أمهات المؤمنين رضى الله عنهن.

أم المؤمنين

صفية بنت حيى رضى الله عنها

من علاقات النساء، ومن ذوات التقى، والصفاء، والشرف والحلم، والوقار والفضل، والعبادة والورع والزهد.

قال لها النبى ﷺ: «إنك لابنة نبى، وإن عمك لنبى، وإنك لتحت نبى».

شهد لها النبى ﷺ بالصدق فقال: «والله إنها لصادقة».

كانت محبة للعلم والمعرفة، وهى من راويات الحديث النبوى الشريف.

كانت وفاتها فى عام (٥٠هـ) ودفنت بالبقيع رضى الله عنها.

أم المؤمنين

صفية بنت حيى رضى الله عنها

قَبَسٌ مِنَ سنَا السِّيرةِ:

كان اليهود فى المدينة المنورة وغيرها ينظرون إلى الإسلام بعين الحقد والكراهية والحسد، فالحبيب المصطفى ﷺ لم يكن من قومهم، حتى يسكن جأش غضبتهم العرقية التى كانت متغلبة على نفسياتهم وعقليتهم.

من ناحية أخرى، كانت دعوة الإسلام دعوة صالحة تؤلف بين أشتات القلوب، وتطفئ نار العداوة والبغضاء، وتدعو إلى التزام الأمانة فى الأمور كلها، وإلى الالتزام بالأخلاق والآداب المثلى والتعامل الإنسانى بعدم أكل الربا، والتقيد بأكل الحلال من طيب الأموال.

وهذا يعنى أن قبائل المدينة العربية ستتآلف فيما بينها، وحينئذٍ لا بد من أن تفلت هذه القبائل من براثن اليهود، فيفشل نشاطهم التجارى، ويحرموا أموال الربا التى كانت رأس مال ثروتهم، وأساس تعاملهم، وكانت تقوى به شوكتهم وممتلكاتهم.

كان اليهود بخبثهم ومراوغتهم ونفسياتهم الضبابية الصدئة، يدخلون ذلك كله فى حسابهم منذ عرفوا أن دعوة الإسلام ستستقر فى المدينة ولذلك كانوا يبطنون أشد العداوة للإسلام، وللرسول الكريم ﷺ وإن كانوا لم يتجاسروا على إظهارها علانية، إلا بعد حينٍ من الدهر.

ويظهر ذلك جليًا واضحًا أشد الوضوح فيما ذكرته أمنا التى نعطر الأسماع والأفواه بسيرتها، وهى واحدة من نساء أهل البيت الطاهر السيدة صفية بنت حيى بن أخطب الهارونية رضى الله عنها، وأمها: برة بنت سموءل أخت رفاعة بن سموءل القرظى.

روى ابن إسحاق رحمه الله عن أم المؤمنين صفية رضى الله عنها قال: حدثت عن صفية بنت حيى بن أخطب أنها قالت: كنت أحب ولد أبى إليه، وإلى عمى أبى ياسر، لم ألقهما قط مع ولدٍ لهما إلا أخذانى دونه، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل قباء فى بنى عمرو بن عوف، غدا عليه أبى حيى بن أخطب، فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، فأتيا كالين، كسلانين ساقطين، يمشيان الهوينى، فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إلىَّ واحد منهما، مع ما بهما من الغم، وسمعت عمى أبا ياسر وهو يقول لأبى حيى بن أخطب: أهُوَ، هُوَ؟!.

قال: نعم والله.

قال: أتعرفه وتثبته؟.

قال: نعم.

قال: فما فى نفسك منه؟.

قال: عداوته والله ما بقيت».

هذه هى النفسية القاتمة الحاقدة التى عاشها حُيى بن أخطب، وقتل عليها بعد أن بذر من بذور الفتن فى الجزيرة العربية، وفعل ما فعل من أفاعيل الغدر ونقض العهود التى أوردت به وببنى قريظة.

كانت صفية بنت حيى تصغى إلى حديث أبيها الذى ينفث خبثًا وحقدًا وضغينة على النبى العربى ﷺ الذى جاء يدعو إلى المحبة والسلام والفضيلة، إنها تحس عطفًا على رسالته، بل وحماسة إلى دعوته، وإن همسًا غريبًا يهجس فى أغوارها أن سيكون لها شأن فى حياة النبى ﷺ، ولو رفعت عن بصيرتها حجب الغيب لرأت نفسها زوجة للرسول ﷺ، ولخفق قلبها سرورًا، وتهللت بالفرح أن مَنَّ الله عليها بأن تصبح أم المؤمنين.

ويعتبر هذا القبس الذى قرأناه آنفًا، شهادة من صفية على شدة كفر حُيى بن أخطب، ومن شايعه من صحبه من اليهود الذين أكل الحقد قلوبهم، وتسرب الغدر إلى نفوسهم فكمن فيها، فباتوا يحيكون العداوة والمؤامرة لكل مسلم ومؤمن.

ومن الجدير بالذكر أن صفية أم المؤمنين هذه، من سبط اللاوى ابن نبى الله إسرائيل بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، ثم من ذرية رسول الله ﷺ هارون أخى موسى عليهما السلام.

كانت صفية من عاقلات النساء، ومن ذوات التقى والزهد والصفاء، وممن عرفن بالكرم والتجاوز والصفح عن الناس، ففى «حليته» ذكرها الحافظ أبو نعيم الأصبهانى رحمه الله بقوله: «ومنهن التقية الزاكية، ذات العين الباكية، صفية الصافية زوجة النبى ﷺ».

إذن فلنشهد ساعاتٍ من الصفاء مع أمنا صفية رضوان الله عليها، ولنشهد معًا غزاة خيبر مع الحبيب المصطفى ﷺ، تلك الغزاة التى سبيت فيها صفية ومن ثم دخلت خِدر أمهات المؤمنين، فكانت من البيت الذى أذهب عنه الرجس وطهره تطهيرًا.

مَعَ الرَّسُولِ ﷺ فِى خَيْبَرَ:

عرفنا أن اليهود يبطنون العداوة لرسول الله ﷺ وللإسلام، ومن هؤلاء يهود خيبر، إذ كانوا – وهم فى خيبر – يطوون أفئدتهم على البغضاء للرسول ﷺ، وكانوا يتحينون الفرص، وأحيانًا يختلقونها ليطعنوا الإسلام طعنة فى الصميم، وكانت خيبر إذ ذاك وكر الدس والتآمر، ونواة التحرشات وإثارة الحروب، وسبب كل بلاء وبلية.

ولما أن عاد المسلمون بعد صلح الحديبية إلى المدينة، دون أن تسمح لهم قريش بدخول مكة والطواف حول البيت، ظن اليهود أن نبى الإسلام محمد ﷺ، لم يقبل شروط الصلح المجحفة بالمسلمين إلا لوهنٍ وضعفٍ تسلل إلى أصحابه فأرادوا أن يستغلوا ذلك الوهن، وحسبوا أنهم سيصيبون من المسلمين مقتلاً، فبعثوا إلى غطفان وأعراب البادية، ليؤلبوهم على حرب رسول الله ﷺ.

ترامت الأنباء التى تحمل غدرهم إلى رسول الله ﷺ أن خيبر تتأهب للوقيعة به وبمن حوله، ولم تنتظر رسول الله ﷺ حتى يفجأه اليهود وحلفاؤهم بهجومهم وغدرهم،

فاستنفر من حوله حتى يغزوا معه، وجاء المخلفون عنه فى الحديبية ليخرجوا معه رجاء الغنيمة، وكانوا من المنافقين وضعفة الإيمان، فأمر الله عز وجل الحبيب الأعظم ﷺ فيهم فقال سبحانه: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الفتح: ١٥).

وحدد رسول الله ﷺ من يخرج معه إلى خيبر، لكى يقطع الطريق أمام المنافقين وأذيالهم، فأعلن ألا يخرج معه إلا راغب فى الجهاد، وأما الغنيمة فلا، فلم يخرج إلا أصحاب الشجرة الذين رضى الله عنهم، وهم ألف وأربع مائة مسلم ممن بايعوا الله ورسوله تحت الشجرة فى الحديبية، وخرج رسول الله ﷺ بأصحابه فى المحرم افتتاح سنة سبع.

قال محمد بن إسحاق رحمه الله: «أقام رسول الله ﷺ بالمدينة حين رجع من الحديبية ذا الحجة وبعض المحرم، ثم خرج بقية المحرم إلى خيبر».

وذكر المفسرون وأهل العلم فقالوا: «إن خيبر كانت وعدًا وعدها الله تعالى بقوله: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِۦ ﴾ (الفتح: ٢٠) يعنى صلح الحديبية، والمغانم الكثيرة خيبر».

ومن العجيب أن المنافقين كانوا على اتصال دائم بأسيادهم اليهود، فقد كان المنافقون يعملون لليهود صباح مساء، وأرسل رأس المنافقين وزعيمهم الخاسر عبد الله ابن أبى ابن سلول إلى يهود خيبر: أن محمدًا قصدكم، وتوجه إليكم، فخذوا حذركم، ولا تخافوه، فإن عددكم وعدتكم كثيرة، وقوم محمد شرذمة قليلون، عُزل لا سلاح معهم إلا قليل، ولكن رسول الله ﷺ وأصحابه، كانوا فى طريقهم إلى خيبر وهم مجهزون تجهيزًا حسنًا، وقد خرج مع الجيش المسلم نساء المقاتلين، ليعتنين بالجرحى، وليحرضن الرجال على القتال فى سبيل الله عز وجل.

كان الجيش الإسلامى يحمل الراية السوداء العظيمة المعروفة بالعقاب وكانت من بُرُدٍ لعائشة بنت الصديق رضى الله عنهما، ولما أشرف الحبيب المصطفى ﷺ على خيبر وناحيتها قال لأصحابه الكرام: «قفوا» فوقف الجيش: فقال: «اللهم رب السموات

وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها، ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها، اقدموا باسم الله» وكان يقول ذلك لكل قرية قدمها».

أشرف المسلمون على خيبر، وباتوا تلك الليلة، ولا تشعر بهم اليهود، وكان رسول الله ﷺ إذا غزا قومًا بليل لم يقربهم حتى يصبح، فلما أصبح رسول الله ﷺ صلى الفجر بغلس، وركب المسلمون، فخرج أهل خيبر بمساحيهم ومكاتلهم لا يشعرون، بل خرجوا لأرضهم، فلما رأوا الجيش قالوا: «محمد والله، محمد والخميس» ثم رجعوا هاربين إلى حصونهم وأفئدتهم تخفق وتكاد تنقطع، وأنفاسهم تضطرب وتكاد تتوقف، فقال النبى ﷺ: «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين».

ونصر الله عز وجل رسوله على أهل خيبر، وفتح رسول الله ﷺ حصونهم، وسبيت صفية بنت حيى، وابنة عم لها، وجاء سيدنا بلال بن رباح بهما، فمر على قتلى اليهود، فلما رأتهم بنت عمة صفية صاحت وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها، فلما رآها النبى ﷺ قال: «اعزبوا عنى هذه الشيطانة».

والتفت إلى بلال وقال له: «أنزعت منك الرحمة يا بلال حتى تمر بامرأتين على قتلاهما» وكان كنانة بن أبى الحقيق، زوج صفية قد قتل لغدره فى هذه الغزوة.

إسلام صفية:

جاء الصحابى الكريم دِحْيَة بن خليفة الكلبى عندما جُمع السبى.

فقال: «يا نبى الله، أعطنى جارية من السَّبى».

فقال ﷺ: «اذهب فخذ جارية».

فأخذ صفية بنت حيى، فجاء رجل إلى النبى ﷺ.

فقال: «يا نبى الله أعطيت دحية صفية بنت حيى سيدة قريظة، وبنى النضير، لا تصلح إلا لك».

قال: «ادعوه بها».

فجاء بها، فلما نظر إليها النبى ﷺ قال: «خذ جارية من السبى غيرها» وذهب دحية إلى حيث جمع السبى، وأخذ جارية أخرى هى أخت كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق زوج صفية.

وكان لرسول الله ﷺ من الغنيمة يدعى الصَّفى، إن شاء عبدًا وإن شاء أمة، وإن شاء فرسًا يختاره قبل الخمس.

قالت أم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق رضى الله عنهما: «وكانت صفية من الصفى» فاختارها ﷺ.

ونقل أحمد زينى دحلان رحمه الله فى سيرته عن الحافظ ابن حجر فى شأن صفية قال: «ولد صفية مئة نبى ﷺ، ومئة مَلِك، ثم صيرها الله إلى نبيه ﷺ، وليس ممن توهب لدحية لكثرة من فى الصحابة مثل دحية وفوقه، وقلة من كان فى السبى مثل صفية فى نسابتها نسبًا وجمالاً، فلو خصه بها لأمكن تغيير خاطر بعضهم، فكان من المصلحة العامة ارتجاعها منه، واختصاصه ﷺ بها، فإن فى ذلك رضا الجميع».

وبعد أن تم الفتح المبين لخيبر، ركب المسلمون وانطلقوا، وكل خالجة وجارحة فيهم تشكر الله عز وجل على ما آتاهم من نصر، ورزقهم من غنائم.

وقطع رسول الله ﷺ ستة أميال من خيبر، وأراد أن يعرس بصفية بنت حيى، فأبت ورفضت لشيء كان فى نفسها، فوجد النبى ﷺ فى نفسه، فلما سار ووصل إلى مكان يسمى الصهباء، مال إلى هناك، ودخل على صفية، وما من الناس أحد أكره إليها منه، قتل أباها فى قريظة، وزوجها وقومها فى خيبر، وأخبرها بأن قومها صنعوا ما صنعوا، وغدروا حتى حاق بهم سوء أعمالهم فما زال كذلك حتى أذهب الله الكره من نفسها.

روت صفية رضى الله عنها تلك اللحظات التى التقت رسول الله ﷺ وذهب ما بنفسها فقالت: «انتهيت إلى رسول الله ﷺ، وما من الناس أحد أكره إلىَّ منه، فقال: «إن قومك صنعوا كذا وكذا» قالت: فما قمت من مقعدى، وما من الناس أحد أحب إلىَّ منه».

وخير النبى ﷺ صفية بين أن يعتقها، فترجع إلى من بقى من أهلها فى خيبر، أو أن تشهد شهادة الحق فتسلم، وحينذاك يتخذها لنفسه فقالت: «أختار الله ورسوله» فأعتقها.

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله: ومن خصائص صفية: «أن رسول الله ﷺ أعتقها وجعل عتقها صداقها».

قال أنس بن مالك ﷺ: «أمهرها نفسها، وصار ذلك سنة للأمة إلى يوم القيامة، يجوز للرجل أن يجعل عتق جاريته صداقها، وتصير زوجته، على منصوص الإمام أحمد».

لقد اختارت صفية الله ورسوله، وعللت ذلك بقولها: «يا رسول الله ﷺ، لقد هويت الإسلام، وصدقت بك قبل أن تدعونى، حيث صرت إليه رحلك، وما لى فى اليهودية أرب، وما لى فيها والد ولا أخ من العتق، وأن أرجع إلى قومى».

وهذه الإجابة من صفية تشير إلى حكمتها ونظرتها نظرة سليمة إلى الأمور، قال عنها الإمام الذهبى رحمه الله: «وكانت شريفة عاقلة، ذات حسب وجمالٍ ودين رضى الله عنها وكانت ذات حلم ووقار».

ووصفها أبو عمر القرطبى رحمه الله بقوله: «كانت صفية عاقلة حليمة فاضلة» وبعد ذلك أعرس بها رسول الله ﷺ بعد أن حلت، فمشطتها أم سليم الأنصارية وعطرتها، وكانت أضوأ ما يكون من النساء.

ولما أصبح رسول الله ﷺ، سأل صفية: «ما حملك على الامتناع من النزول أولاً»؟.

فقالت: «خشيت عليك من قرب اليهود».

فزادها ذلك مكانة ومنزلة عند النبى ﷺ وما قامت من مقعدها ومن الناس أحد أحب إليها من النبى ﷺ، وأولم وأطعم أصحابه.

ولنترك سيدنا أنس بن مالك ﷺ يمتع الأسماع فى سرد وقائع ذلك الحدث السعيد، حسب ما ورد فى الصحيح.

أخرج البخارى رحمه الله بسنده عن أنس بن مالك ﷺ قال: قدمنا خيبر، فلما فتح الله عليه الحصن، ذكر له جمال صفية بنت حيى بن أخطب، وقد قتل زوجها، وكانت عروسًا، فاصطفاها النبى ﷺ لنفسه، فخرج بها، حتى بلغنا سد الصهباء حلت، فبنى بها رسول الله ﷺ ثم صنع حيسًا فى نطع صغير، ثم قال لن: آذن من حولك فكانت تلك وليمته على صفية، ثم خرجنا إلى المدينة فرأيت النبى ﷺ يحوى لها وراءه بعباءة، ثم يجلس عند بعيره، فيضع ركبته، وتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب .

ورأى رسول الله ﷺ بأعلى عين صفية خضرة من أثر ضربة فسألها: ما هذه الخضرة فقالت: قلت لزوجى: إنى رأيت فيما يرى النائم كأن قمرًا وقع فى حجرى فلطمنى وقال: أتريدين ملك يثرب، أو قال: والله ما تتمنين إلا ملك العرب .

وكان عمْر صفية عندما دخلت رحاب البيت النبوى الطاهر سبعة عشر عامًا على أصح الأقوال، وكانت تكنى أم يحيى.

صفية فى البيت النبوى:

قدمت صفية بصحبة النبى ﷺ من خيبر إلى المدينة، وكان يعاملها فى غاية الرفق، ووجدت صفية منه رقة وكياسة ولطفًا، فقالت: ما رأيت قط أحسن خلقًا من رســول الله ﷺ .

وجاء البشير إلى أهل المدينة يعلمهم بقدوم رسول الله ﷺ، فخرجوا يستقبلونه عند عودته من هذه الغزاة منصورًا ظافرًا... كانت وجوه الرجال تتهلل بالبشر، والولدان يغمرهم الفرح، بينما كانت النساء على أسطح المنازل، وقد عمرت أفئدتهن بالسرور.

أما المنافقون وأسيادهم، فقد كانوا فى كمدٍ رهيب يكاد الغيظ يصهرهم، ولكنهم يظهرون غير ما تخفى الصدور، غصت حلاقيمهم بنصر رسول الله ﷺ، وفضحهم الله عز وجل، وجعل كلمتهم وكلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هى العليا.

وكانت النسوة فى دور النبى ﷺ يتأهبون لاستقبال نبى الإسلام، وحبيب المسلمين الذى نصره الله عز وجل بقلوبٍ سليمة، وعزائم صادقةٍ، ونفوس صافية.

بلغ الركب الميمون المدينة المنورة، وآثر رسول الله ﷺ ألا يدخل على نسائه الطاهرات بصفية الصافية، وأحب أن ينزلها فى بيت الصحابى النجيب حارثة بن النعمان الأنصارى ﷺ.

وتسامعت نساء الأنصار بصفية زوج النبى ﷺ تلك التى دخلت فيها عداد أمهات المؤمنين الطاهرات، وجئن زرافات ووحدانًا ينظرون إلى جمالها وملاحتها.

وأخذ النبى الكريم ﷺ يزور أهل بيته، فبدأ كعادته بابنته فاطمة الزهراء رضى الله عنها، وأخذ يقبل سبطيه الحسن والحسين رضى الله عنهما، ثم دار على نسائه فأخذن يرحبن بمقدمه ويهنئنه بما فتح الله عليه.

وفى تلك الساعة خرجت أمنا عائشة رضى الله عنها منتقبة على حذر، لرؤية السيدة صفية التى أخذت مكانة فسيحة فى نفوس نساء المسلمين، وقد أثنين على جمالها، ووصفنها بكل مفردات الجمال وأدواته ومحاسنه.

كانت السيدة عائشة رضى الله عنهما تسير فى هدوء متنقبة إلى بيت حارثة بن النعمان الأنصارى، حيث تقيم هناك صفية بنت حيى أم المؤمنين، تلك الجميلة ذات الربيع السابع عشر، ودخلت عائشة وسط النساء، وهى تظن أن لن يعرفها أحد، ولكن الحبيب المصطفى ﷺ عرفها، وانتظر حتى خرجت، فأدركها، وأخذ بثوبها فقال: يا شقراء كيف رأيت .

وحاولت عائشة رضوان الله عليها أن تغالب عواطفها وتجاهد نفسها، وقالت: رأيت يهودية بين يهوديات فقال الحبيب الأعظم ﷺ يصحح مفهوم عائشة ويعلمها بإيمان صفية: لا تقولى ذلك فإنها أسلمت وحسن إسلامها .

صفية ونساء أهل البيت:

انتقلت صفية أم المؤمنين إلى بيوت النبى ﷺ، ويظهر أنها أخذت على نفسها عهدًا أن تصافى جميع نساء أهل البيت، وتكون لهن صديقة وفية، فبدأت فى استجلاب القلوب واستمالتها، بتقديم الهدية التى تعجب جماعة النساء وترضيهن.

بدأت صفية بدرة البيت النبوى الطاهر فاطمة الزهراء رضى الله عنها التى ألفتها، وأحبتها حبًّا شديدًا، فوهبت لها حلية من ذهب كانت فى أذنيها اعترافًا بحبها وولائها

للرسول الكريم ﷺ، ووهبت كذلك بعض نساء أهل البيت بعض حلى من ذهب، كان معها لما قدمت من خيبر.

كانت صفية رضى الله عنها عاقلة فاضلة، تتودد إلى صواحبها من نساء أهل البيت النبوى، ولكنها ظلت تحس بأنها غريبة فى بيوت النبى ﷺ، فأزواجه الطاهرات، لا يستطعن أن ينسين أصلها، فهذه حفصة تعيرها بأنها ابنة يهودى، ولكن الحبيب المصطفى ﷺ يعلمها كيف ترد وتنتصف لنفسها.

أخرج أبو عيسى الترمذى رحمه الله بسنده عن معمر عن ثابت بن أنس رضى الله عنه قال: بلغ صفية أن حفصة قالت: بنت يهودى، فبكت، فدخل عليها النبى ﷺ وهى تبكى، فقال: ما يبكيك قالت: قالت لى حفصة: إنى ابنة يهودى، فقال النبى ﷺ: وإنك لابنة نبى، وابن عمك لنبى ﷺ، وإنك لتحت نبى، ففيم تفخر عليك .

ثم قال: اتقى الله يا حفصة .

كانت أم المؤمنين صفية رضوان الله عليها تجد فيما يقوله لها ﷺ بلسمًا شافيًا لما يعتلج فى صدرها من تلميح وتلويح نساء أهل البيت لها، وتفخر هى الأخرى بما يفخرون به عليها.

فدعونا نستمع إلى أمنا صفية، وهى تحدثنا عن ذلك فتقول: دخل علىَّ رسول الله ﷺ، وقد بلغنى عن حفصة وعائشة كلام، فذكرت ذلك له، فقال: «ألا قلت: وكيف تكونان خيرًا منى؟ وزوجى محمد، وأبى هارون، وعمى موسى ؟! وكان الذى بلغها أنهم قالوا: نحن أكرم على رسول الله ﷺ منها، وقالوا: نحن أزواج النبى ﷺ وبنات عمه .

ويظهر أن عائشة رضى الله عنها قد ذكرت صفية بأنها قصيرة، ولكن رسول الله ﷺ لم يرض بهذا، ولم يقره، فعن عائشة رضى الله عنها قالت: قلت للنبى ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا – قال بعض الرواة: تعنى قصيرة – فقال: لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته .

أحسب أن أم المؤمنين صفية رضى الله عنها كانت مثار غيرة أيضًا لابنة عمته وزوجته أم المؤمنين زينب بنت جحش، وعلى الرغم من زهد زينب وجودها

ومعروفها، إلا أنها قد ندت منها كلمة فى حق السيدة صفية، ويبدو أن رسول الله ﷺ قد غضب إذ ذاك، وعتب على زينب زمنًا إلى أن رضى عنها، رضى الله عنها.

ورد عن أمنا صفية رضى الله عنها: أن النبيّ ﷺ حج بنسائه، فبرك بصفية جملها، فبكت وجاء رسول الله ﷺ لما أخبروه، فجعل يمسح دموعها بيده، وهى تبكى، وهو ينهاها، فنزل رسول الله ﷺ بالناس، فلما كان عند الرواح، قال لزينب بنت جحش: أفقرى أختك جملاً ــ وكانت من أكثرهن ظهرًا ــ فقالت: أنا أفقر يهوديتك!.

فغضب فلم يكلمها، حين رجع إلى المدينة، ومحرم، وصفر، فلم يأتها، ولم يقسم لها، ويئست منه، فلما كان ربيع الأول دخل عليها فلما رأته، قالت: يا رسول الله، ما أصنع؟ قال: وكانت لها جارية تخبؤها من رسول الله ﷺ، فقالت: هى لك فمشى النبى ﷺ إلى سريرها، وكان قد رفع، فوضعه بيده، ورضى عن أهله.

ولعل هذا التوجيه النبوى الحكيم لزينب رضوان الله عليها، خفف عن صفية رضى الله عنها ما كانت تجده من بعض نساء أهل البيت، ونعمت بنعيم العشرة النبوية التى أبدلتها كل خير عن أهلها وعشيرتها، وفازت بنعيم أبدى اختصت به من لدن عليم خبير.

كان نساء النبى ﷺ يقتبسن من أخلاقه وشمائله، وخصائله الحميدة شيئًا كثيرًا، فكانت الواحدة منهن تراعى الأخرى فى بعض الشئون، فهذه عائشة رضى الله عنها، كانت ترعى صفية، وتحسن إليها لتأخذ حظها من رسول الله ﷺ.

أخرج ابن ماجه رحمه الله بسنده عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ وجد ــ غضب ــ على صفية بنت حيى فى شىء، فقالت صفية: يا عائشة هل لك أن ترضى رسول الله ﷺ علىَّ ولك يومى؟.

قالت: نعم.

فأخذت خمارًا لها مصبوغًا بزعفران، فرشته بالماء ليفوح ريحه، ثم قعدت إلى جنب رسول الله ﷺ.

فقال النبى ﷺ: يا عائشة! إليك عنى، إنه ليس يومك.

فقالت: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فأخبرته بالأمر فرضى عنها.

والله إنها لصادقة:

إذا كان الإنسان سليم الفطرة، نقى السريرة، فإنه يتكلم بلهجة صادقة لا تعرف إلى المكر سبيلاً، ولا يعرف المكر لها طريقًا، ولذا فإن هذه الصفات تكسب صاحبها احترام الناس جميعًا.

كانت أم المؤمنين صفية رضى الله عنها ذات سريرة صافية، وعلانية نقية، فقد أحبت رسول الله ﷺ، وصدقت فى حبها لله عز وجل، فجاءت تصرفاتها نابعة من معين الصدق، وينبوع الوفاء، مما جعلها متفردة فى بعض المواقف العطرة التى تنفح سيرتها بعطر فواح بالأريج، وشهد رسول الله ﷺ لأمنا صفية بالصدق بعد أن أقسم على ذلك.

روى زيد بن أسلم رحمه الله قال: «اجتمع نساء النبى ﷺ فى مرضه الذى توفى فيه، فقالت صفية بنت حيى: والله يا نبى الله لوددت أن الذى بك بى، فغمزنها أزواجه، فأبصرهن فقال: «مَضْمِضْنَ».

قلن: من أى شىء يا نبى الله؟.

قال: من تغامزكن بها، والله إنها لصادقة».

فأكرم بهذه الشهادة النبوية العظيمة لأمنا صفية رضى الله عنها! وهل هناك شهادة أعظم من الصدق؟.

ومِنْ مَنْ؟من الصادق المصدوق رسول الله ﷺ.

إنما هى صفية:

كانت أمنا صفية رضوان الله عليها تحتل مكانًا عليًّا بين نساء رسول الله ﷺ فى مقام الصدق، وكان رسول الله ﷺ يعرف قدرها ويكرمها، وهو من أعرف الناس، فكان وهو فى معتكفِه يخرج من المسجد تكرمة لها.

أخرج البخارى رحمه الله عن الزهرى قال: أخبرنى على بن الحسين رضى الله عنهما، أن صفية زوج النبى ﷺ أخبرته أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ، تزوره فى اعتكافه فى المسجد فى العشر الأواخر من رمضان، فتحدثت عنده ساعة ثم قامت تنقلب، فقام النبى ﷺ يقلبها، حتى على رسول الله ﷺ، فقال لها النبى ﷺ: «على رسلكما، إنما هى صفية بنت حيى» فقالا: سبحان الله يا رسول الله، وكَبُرَ عليهما.

فقال النبى ﷺ: «إن الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغ الدم، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئًا».

معْرِفَتُهَا قَدْرَ الله عَزَّ وَجَلَّ:

عرفت أم المؤمنين صفية رضى الله عنها بتبصرها فى الأمور على ضوء القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، ولذلك كانت تحاكم الأمور من هذه النافذة المضيئة، ولا تكاد تخرج عن مفهوم القرآن الكريم.

وأعتقد أن أم المؤمنين صفية رضى الله عنها كانت تدرك معانى القرآن الكريم، وتعرف بعض أسراره، ومدى أثره وتأثيره فى النفوس الصافية التى تعيش فى آفاق الذكر الحكيم، وتنعم فى تلاوته آناء الليل، وأطراف النهار.

فالمؤمنون حقًّا هم الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا، وارتبطوا على أساس صحيح سليم متين بالله عز وجل.

لكن الذين يخالفون هذه القاعدة، هم مقصرون، ويحتاجون إلى تبصير وإرشاد إلى الطريق السليمة، وهذا ما كانت تفعله أمنا صفية، إذا كانت تأخذ بأيدى هذه الفئة التى تود العبادة على أساس صحيح، روى أبو نعيم الأصبهانى رحمه الله عن عبد الله بن عبيدة، أن نفرًا اجتمعوا فى حجرة صفية بنت حيى زوج رسول الله ﷺ، فذكروا الله، وتلوا القرآن، وسجدوا، فنادتهم صفية رضى الله عنها: «هذا السجود، وتلاوة القرآن، فأين البكاء»؟.

لقد أرادت أمنا صفية أن ترشدهم إلى روح العبادة، وإلى الخشوع والخوف من الله عز وجل، فإذا ما تحقق الخشوع، وصحبه الخوف من الله، فاضت الدموع من العيون، ودلت على الخشوع، وهذا يشير إلى معرفة أمنا صفية بقدر الله عز وجل.

حلْمُها وَكَرَمُهَا وَصدقَتُهَا:

كانت أم المؤمنين صفية رضى الله عنها تتخلق بالآداب المحمدية التى تلقتها فى بيت رسول الله ﷺ، ولذلك اكتسبت حلمًا فوق حلمها، وآدابًا فوق أدبها، فغدت قدوة النساء فى الحلم والتقوى والورع والفضل، وفى معرض حديثه عنها، قال أبو عمر القرطبى رحمه الله فى «الاستيعاب»: «كانت صفية حليمة عاقلة فاضلة».

والحق يقال فهذه صفات الكمال عند الرجال، فكيف إذا اجتمعت فى امرأة مثل أم المؤمنين صفية رضى الله عنها؟!!.

لا شك فى أن أمنا صفية قد ضربت مثلاً طيبًا فى فضائل الأعمال، وأعلاها الصدق والحلم، ولهذا عندما تحدث عنها الذهبى رحمه الله وصفها بأنها من ذوات العقل والدين، واستدل على ذلك بما نقله عن أبى عمر بن عبد البر ــ رحمه الله ــ قال: «روينا أن جارية لصفية، زعمت أن صفية تحب السبت، وتصل اليهود، فبعث عمر يسألها، فقالت: أما السبت، فلم أحبه منذ أبدلنى الله به الجمعة، وأما اليهود، فإن لى فيهم رحمًا، فأنا أصلها.

ثم قالت للجارية: ما حملك على ما صنعت؟.

قالت الجارية: الشيطان.

فقالت صفية رضى الله عنها فى أناة: فاذهبى، فأنت حرة».

إن هذا التصرف الكريم هو ذروة الحلم الذى تحلت به أمنا صفية رضى الله عنها، فى حين كانت صفية تقدر على القصاص، ولكنها آثرت مرضاة الله عز وجل الذى تهتدى بنور هدايته، والذى أثنى على عباده المتقين بقوله: ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٤) وقال تعالى أيضًا: ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف: ٥٦).

إن صفية أم المؤمنين فى رحمتها للجارية وعفوها عنها، أوتيت أجرها مرتين: صلة رحمها، وعتق الجارية.

ولذلك كانت صفية أم المؤمنين تتصرف فى أمورها من مشكاة الأنوار المقتبسة من القرآن الكريم، والحديث الشريف، وهذا ما جعلها ذات حلم ووقار، ومكان احترام فى نفوس من حولها من نساء أهل البيت ومن صحابة رسول الله ﷺ وغيرهم من الناس.

وفى حياة الخليفة عثمان بن عفان عليه سحائب الرضوان كان لأمنا صفية رضى الله عنها، موقف وضىء يشير إلى فضلها ومعرفتها مكانة عثمان ﷺ.

ورد ما يؤيد هذا، عن كنانة مولى أمنا صفية أنه قال: «كنت أقود بصفية لترد عن عثمان، فلقيها الأشتر، فضرب وجه بغلتها حتى مالت، فقال: ردني لا يفضحني هذا.

قال: ثم وضعت خشبًا بين منزلها، ومنزل عثمان تنقل عليه الماء والطعام».

وبهذا التصرف الكريم، عبرت أم المؤمنين صفية عن عدم رضاها عن الذين ظلموا سيدنا عثمان، وضيقوا عليه، ومنعوا عنه الطعام والماء، فرأت من واجبها أن تكون خير معوان لذى النورين عثمان، كما عبرت عن سعة أفقها، وكمال عقلها الذى كانت تزن به الأمور، ولذلك وصفها ابن الأثير والنووى رحمهما الله بقولهما: «كانت عاقلة من عقلاء النساء» وأثنى عليها الحافظ بن كثير رحمه الله فقالت: «كانت من سيدات النساء عبادة، وورعًا، وزهادة، وبرًّا، وصدقة، رضى الله عنها وأرضاها».

وفى مجال الصدقة والجود، عرفت أم المؤمنين صَفية رضى الله عنها بأن الدراهم والأموال لا تستقر على كفها إلا عابرات سبيل إلى أماكنها، وعرفت بأنها لا يقيم لعرض الدنيا قيمة، وهى تعرف أن ما عند الله خير وأبقى، وكانت تدرك ما للصدقة من عظيم الأثر فى النفوس، وما لها من ثواب عظيم عند الله عز وجل، ولذا فإنه قد كانت لها دار فتصدقت بها فى حياتها طلبًا لرضوان الله ومغفرته، واقتداءً بالنبى ﷺ، وما أجمل قول ابن العماء فيها: «وكانت جميلة فاضلة، كفاها فضلاً ونبلاً زواج النبى ﷺ بها»!.

علمُها وحفظُها للحديث النّبوىّ:

لما اتصلت صفية بنت حيى رضى الله تعالى عنها برسول الله ﷺ، ودخلت فى عقد أمهات المؤمنين رضى الله عنهن، أخذت تنهل من العلم والمعرفة فى شغف شديد، وراحت تحفظ من القرآن الكريم ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، فقد أُثر عنها بأنها ذات دين وحب للكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد لاحظنا من خلال نفحات سيرتها الطيبة، مقدار حبها للقرآن الكريم، والعمل بما جاء فيه.

أما حياتها مع الحديث النبوى الشريف، فكانت ممن نقل أقوال رسول الله ﷺ عملاً بقول الله عز وجل: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾

(الأحزاب: ٣٤) ورد لها من حفظها عشرة أحاديث روتها عن النبى الكريم ﷺ، منها حديث واحد متفق عليه فى الصحيحن عند البخارى ومسلم.

حدث عن صفية أم المؤمنين ثلة من أكابر التابعين، منهم: على بن الحسين، وإسحاق بن عبد الله بن الحارث، وكنانة مولاها، وابن أخيها وآخرون.

ومن مرويات أمنا صفية ما أخرجه الحافظ أبو يعلى فى مسنده، بسنده عن مسلم ابن صفوان، عن صفية أم المؤمنين قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا ينتهى الناس عن غزو هذا البيت حتى يغزوه جيش، حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض، خسف بأولهم وآخرهم، ولم ينج أوسطهم» قالت: قلت: يا رسول الله ﷺ أرأيت المكره منهم؟.

قال: «يبعثهم الله عز وجل على ما فى أنفسهم».

ومن مروياتها، ما رواه إسحاق بن عبد الله بن الحارث الهاشمى قال: حدثتنا صفية قالت: «دخل علىَّ رسول الله ﷺ، فقربت إليه كتفًا باردًا، فكنتُ أسحاها، فأكلها، ثم قام فصلى».

مَعَ خَالداتِ النّساء:

مكثت صفية أم المؤمنين رضى الله عنها قرابة أربعين سنة بعد وفاة النبى ﷺ، وكانت تقضى حياتها فى الطاعات والقربات بين صلاة وصيام، ونسك وصدقة، وعلم وفقه، وقد شهدنا جانبًا من فضائلها فى الصفحات السابقة.

عاشت أمنا صفية عصر الخلفاء الراشدين كله، وشهدت أحداثه، وفتوحات الإسلام العظيمة شرقًا وغربًا، فسرت بذلك أيما سرور بانتصار الإسلام، وارتفاع رايات الحق والعدل، ونشر السلام والإسلام.

وفى سنة خمسين من الهجرة، ودعت صفية أم المؤمنين هذه الدنيا بعد أن تركت فى نساء أهل البيت الطاهر أثرًا كريمًا طيبًا حميدًا، سيظل باقيًا بإذن الله إلى ما شاء الله تعالى.

وفى اليوم الذى توفيت فيه صفية، أتى من أبلغ ابن عباس خبر وفاتها، فسجد.، ذكر هذا الحديث الترمذى فى جامعه بسنده عن الحكم بن أبان عن عكرمة قال: قيل لابن عباس بعد صلاة الصبح: «ماتت فلانة لبعض أزواج النبى ﷺ، فسجد.

قيل له: أتسجد هذه الساعة.

فقال: أليس قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم آية فاسجدوا»؟ فأى آية أعظم من ذهاب أزواج النبى ﷺ؟!».

وفى المدينة المنورة دفنت أمنا صفية إلى جوار أمهات المؤمنين الطاهرات، وبنات النبى ﷺ، وقد شيع جثمانها عدد من كبار الصحابة حيث دفنت فى البقيع، وتبقى أم المؤمنين صفية مع الخالدات وتظل سيرتها الصافية تروى القلوب، وتبقى صفية قدوة للنساء، فهل تقتدى النساء بها، وهل يسرن على دربها؟! وينهلن الصفاء من صفائها؟!.

رضى الله عن أمنا صفية، وعن نساء أهل البيت النبوى الطاهر، وجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، والحمد لله رب العالمين.

أم المؤمنين
رملة بنت أبى سفيان (أم حبيبة)
رضى الله عنها

مؤمنة صابرة، قوية، ذات عقل راجح، نزل بحقها قرآن يتلى.

من مهاجرة الحبشة، ثبتت فى وجه الكفر والكفرة ثبات الرواسى، ولم يستطع أحد أن يؤثر على إسلامها.

نظمت فى عداد أمهات المؤمنين وهى لا تزال فى أرض الحبشة.

لها موقف مشهور مع أبيها لما قدم المدينة، ينم عن إيمانها الصحيح، ومعرفتها قدر النبى ﷺ.

ولدت قبل البعثة بـــ (١٧ سنة) وتوفيت بالمدينة سنة (٤٤ هـــ) وروت (٦٥ حديثًا).

أم المؤمنين
رملة بنت أبى سفيان رضى الله عنها

بَاحثُون عَنِ الحَقِيقَة:

سجى الليل، وغفا الناس، وما كان يُبَعثر الصمت الذى خيم على مكة إلا أصوات بضعة رجال، كانوا يتحاجون فيما بينهم ويتسامرون، ويتحدثون عن الأصنام وتعظيمها، وتقديم النذور لها، وعن مكانتها عند العرب بعامة، وعند قريش خاصة.

كان هؤلاء الرجال أربعة هم: ورقة بن نوفل، عثمان بن الحويرث بن أسد، زيد ابن عمرو بن نفيل، وعبيد الله بن جحش، وكانت أم عبيد الله بن جحش هى أميمة بنت عبد المطلب عمة النبى الكريم ﷺ.

راق الحديث وطاب لهؤلاء فى سكون الليل من خلال أنسامه الرقيقة اللطيفة التى تداعب وجوههم، وطاب لهم السمر فى تلك الليلة الصافية التى تقلدت بالنجوم، فقال بعضهم لبعضٍ: «تصادقوا، وقولوا الحقيقة، ولْيَكتُم بعضكم على بعضٍ، فلا تعلم قريش بذلك».

فقالوا: «نعم».

فقال أحدهم: «إنكم تعلمون والله ما قومكم على شيء! لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم وملته» ثم قال ساخرًا متعجبًا: «ويلكم، ما حجر نُطيفُ به، لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، ولا يغنى شيئًا! ويحكم قوموا فالتمسوا لأنفسكم دينًا، فإنكم وأيم الله ما أنتم على شيء!...».

وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون، ويقولون: «أفرأيتم اللات والعزى؟ ومناة الثالثة الأخرى؟ وهل رأيتم هبل وإساف ونائلة؟ وغيرها من الأصنام إنها مهزلة سخيفة حقيرة، تستولى على عقولنا، وعقول آبائنا وأجدادنا، وعقول العرب والأعراب، ولا تغنى من الحق شيئًا، ويحكم تعالوا نبحث عن الطريق التى توصلنا إلى الحقيقة لعلنا نصيب خيرًا».

فى آخر تلك الليلة تنفس الصبح وتبسم الفجر، وانبسطت أشعة الشمس كأنها تِبْرٌ فى الأفق الشرقى، وعند ذلك نهض الأربعة، فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام.

فأما ورقة بن نوفل، فاستحكم فى النصرانية، واتبع الكتب من أهلها حتى علم علمًا من أهل الكتاب، ومات قبل الجهر بالدعوة وكان ورقة عربيًّا أصيل النسب من ذروة بيوتات قريش، وهو كما روى الأصبهانى فى الأغانى: «أحد من اعتزل عبادة الأوثان فى الجاهلية، وطلب الدين، وقرأ الكتب، وامتنع من أكل ذبائح الأوثان».

وأما عثمان بن الحويرث، فقدم على قيصر ملك الروم، وتنصر وحسنت منزلته هناك، فكان يقال له: «البطريق» ومات بالشام مسمومًا.

وأنا يزيد بن عمرو بن نفيل، فلم يدخل فى نصرانية ولا يهودية بل اعتزل الأوثان، وحرم على نفسه الميتة والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموءودة وقال: «أعبد رب إبراهيم» ومات قبل البعثة.

ويبدو أن زيد بن عمرو قد عاب ورقة بن نوفل على اعتناقه النصرانية، وأراد منه أن يتخلى عنها فقال ورقة: «أنا أستمر على نصرانيتى إلى أن يأتى الذى تبشرنا به الأحبار».

وحينما اطمأن زيد على التوحيد، وأعلن ذلك قال له ورقة:

رشدت وأنعمت بن عمرو وإنما تجنبت تنورًا من النار حاميا
بدينك ربًا ليس رب كمثله وتركك جنان الجبال كما هيا

وأما عبيد الله بن جحش، فأقام على ما هو عليه من الالتباس والاضطراب، لم يثبت على أمرٍ من الأمور، ولم تستقر بفكره ديانة أو عقيدة.

وكان عبيد الله بن جحش قد تزوج إحدى عقيلات قريش حسبًا ونسبًا وهى رملة بنت أبى سفيان زعيم مكة وسيد بنى أمية، وأمها هى صفية بن أبى العاص بن أمية عمة عثمان بن عفان ﷺ.

ولم تمض مدة من الزمن، حتى ذاع فى مكة ذلك النبأ العظيم، نبأ محمد ﷺ، ونزول الوحى عليه، فطغى هذا الحدث العظيم، وغطى كل الأنباء والأحداث.

رَمْلَةُ وإيْمَانٌ مُبَكِّرٌ:

أخذت أخبار الإسلام تصافح الأسماع فى مكة المكرمة، فدخلت بعض بيوتها العريقة، وعندئذ وقف الناس وانقسموا إلى فريقين اثنين:

فريق آمن بالله عز وجل، وبرسوله الأمين محمد ﷺ.

وفريق كفر بما جاء به محمد بن عبد الله ﷺ، وكان من زعماء هذا الفريق أبو سفيان بن حرب وأبو جهل بن هشام وأبو لهب بن عبد المطلب، وأمية بن خلف وغيرهم.

لكن أبا سفيان على الرغم من حزمه ومكانته الرفيعة فى قريش خاصة وعند العرب بعامة، لم يستطع أن يحجب نور الهداية عن قلب ابنته رملة، التى شرح الله صدرها للإيمان، وألقى فى قلبها أنوار اليقين، فآمنت مع السابقين الأولين، وسخرت من الأصنام والأوثان، ومما يعبد هؤلاء وهؤلاء من دون الله الواحد القهار.

ودخل زوجها عبيد الله بن جحش فى دين الله فى أول الأمر، وكان أخواه: عبد الله، وأبو أحمد قد أسلما أيضًا مع ثلة الأولين وصدقوا العهد مع الله عز وجل، وأسلمت كذلك أختاه: زينب وحمنة، وكتبت هذه الثلة مع زمرة السعداء.

كانت رملة بنت أبى سفيان على جانب كبير من رجاحة العقل، وجزالة الرأى، وقوة الإرادة، وكان أبو سفيان يعلم هذه الخصائص المتميزة فى ابنته رملة، لكنه لم يكن

يتوقع أنها ستغدو يومًا واحدًا ممن تنبذ تقاليد الجاهلية بعيدًا ويزدريها، وتترك ما نشأت عليه من تعظيم للأصنام والأوثان، ثم تكون من السابقات المسارعات إلى الإيمان بالله ورسوله!!!.

كاد أبو سفيان ــ وهو الجلد الصبور ــ أن يصعق، وأن يفقد صوابه لما تسللت الأنباء إليه تشير إلى أن ابنته رملة قد صبأت ــ بزعمه ــ عن دين قريش، وعزفت عن هُبَل وعن اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، وغيرها من الأصنام، وعرفت الإسلام ودخلت فى دين محمد ﷺ.

ودلف إلى دارها فى بنى جحش وهو يحاول أن يغالب غضبه وذلك لكى يثنيها عن عزمها، ويمحو الإسلام من قلبها، ويمحو عن نفسه ما لحقه من خزى بإسلامها ــ كما زعم ــ ولكن رملة رضى الله عنها أجابته بهدوء ويقين: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله» ولم تزد على ذلك.

أخذ أبو سفيان يتحدث إلى رملة بهدوء مصطنع، ويحدثها عن مجده ومجدها، ومجد آبائه وأجداده، وراح يقدم ويؤخر، ويراوغ معها، لكنه عجز أن يفتنها، أو يدخل إلى قلبها حرفًا واحدًا مما يقول، فقد ملأ الإيمان قلبها، وأضحت إرادتها صلبة لا تحركها العواصف المبتورة، ولا الأحاديث، عن الأمجاد، ولا عن الأجداد.

وقام أبو سفيان بعد تلك الجلسة وهو خالى الوفاض، ورجع إلى بيته كاسف البال، حزين الفؤاد، لقد خرجت ابنته العاقلة عن إرادته، ولم تطاوعه فى شىء، وبددت آماله العراض، وأحلامه العذاب بإيمانها بالله عز وجل، وكفرها بآلهة أبيها وقومها.

كانت رملة رضى الله عنها تسمع آيات الله عز وجل، فتزداد إيمانًا مع إيمانها، وراحت تحفظ ما ينزل من آيات الذكر الحكيم على محمد ﷺ، وتتذوق حلاوتها وتشعر بجمال روعتها، فقد عرفت رملة بأنها كانت من العاقلات الفصيحات، ومن سيدات النساء.

هجرة وصبر جميل:

من كان يظن من الملأ الوثنى أن أبا سفيان سيسخط على أقرب الناس إليه؟! ابنته رملة! ومن كان يظن أن أبا سفيان يرى ابنته تعذب فى الله ويسكت راضيًا.

هذا ما حدث قولاً وفعلاً، فقد وثبت القبائل على من أسلم منها، تكيل لهم ألوان العذاب، فاحتمل المسلمون البلاء وذاقوا مرارة الاضطهاد، حتى إذا ما طفح الكيل، وبلغ السيل الربى، وتجاوز المشركون مقدار الإنسانية، أشار الحبيب المصطفى ﷺ على أحبابه وأصحابه بالهجرة إلى الحبشة.

هاجر بعض المسلمين إلى أرض الحبشة، ولما كانت الهجرة الثانية إلى الحبشة، هاجر عبيد الله بن جحش فيمن هاجر، واصطحب معه زوجه رملة، وكانت حاملاً حتى إذا ما استقروا فى الحبشة عند مليكها النجاشى، وضعت رملة ما فى بطنها فكانت أنثى، فسمتها حبيبة، فكنيت بها، وأصبحت مشهورة بكينتها تدعى «أم حبيبة».

صَعُبَ على أبى سفيان ومن معه من جماعة المشركين أن يفلت من أيديهم أولئك المؤمنون، الذين تركوا بيوتهم وديارهم، وخرجوا بعيدًا بعيدًا عن مراتع صباهم، ليذوقوا طعم الراحة التى فقدوها فى مكة، ومنهم ابنته رملة أم حبيبة.

أما المسلمون المهاجرون، فكانوا هنالك فى خير دار، وشعروا بأفياء الراحة تظلهم عند خير جار، وعبدوا الله عز وجل بعيدون عن سفهاء قومهم الذين أذاقوهم أقسى أنواع العذاب وألوانه، وفى أرض الحبشة، كان المسلمون يتبادلون الزيارات، فكانت ثلة المؤمنات المهاجرات كأم حبيبة، وأم سلمة، ورقية بنت رسول الله ﷺ وأسماء بنت عميس زوج جعفر بن أبى طالب، وليلى بنت أبى حثمة وغيرهن، يجتمعن ويتذاكرن أيام مكة، ويذكرن البيت العتيق، وفى قلوبهن حنين إلى هاتيك الديار الحلوة، وما كان يخفف عنهن ذلك إلا إيمانهن العميق بأنهن على صراط العزيز الحميد، وأنهن يتحملن المصاعب فى سبيل الله عز وجل، وفى سبيل رضوانه ومرضاته.

عندما تتحقق الأحلام:

ظلت أم حبيبة رضى الله عنها ملازمة للعبادة، وحسن الصلة بالله عز وجل، ترعى ابنتها وتغذيها على طاعة الله عز وجل، ومحبة رسول الله ﷺ، بينما راح زوجها عبيد الله بن جحش يختلف إلى الرهبان والقساوسة، ويطيل المكث معهم، والجلوس إليهم، فكانت نفسه تميل أحيانًا لما يقولون، إلى أن أعجب بهم على مر الأيام.

وفى ليلةٍ من الليالى التى احلولك ظلامها ولمعت نجومها فى السماء، دخلت أم حبيبة غرفتها، وأوت إلى فراشها، وراحت تذكر الله عز وجل، وتسبح بحمده، ثم استسلمت للنوم، وحلمت حلمًا أثار مخاوفها، فقامت مذعورة مفزوعة، مبهورة الأنفاس، ولم يسكن روعها أبدًا، فقد حفرت أحداث الحلم المروع فى وجدانها حتى صار أصدق من الحقيقة، وأعمق أثرًا من الواقع الذى كانت تعيش فيه.

ولكن ما قصة هذا الحلم؟! أم حبيبة نفسها تذكر لنا تفاصيله فتقول: «رأيت فى النوم كأن عبيد الله بن جحش زوجى بأسوأ صورة وأشوهها ففزعت وقلت: تغيرت والله حاله! فإذا هو يقول حيث أصبح: يا أم حبيبة، إنى نظرت فى الدين، فلم أر دينًا خيرًا من النصرانية، وكنت قد دنت بها، ثم دخلت فى دين محمد، ثم قد رجعت إلى النصرانية، فقلت: والله ما خير لك، وأخبرته بالرؤيا التى رأيتها له، فلم يحفل بها».

ارتد عبيد الله بن جحش عن الإسلام، واعتنق المسيحية، وغلبت عليه الشقاوة، وحاول أن يرد أم حبيبة عن الإسلام، ورغبها فيما أضحى يدين به، ولكن محاولاته لم تجد فتيلاً وأخذت تذروها الرياح، وأبت أم حبيبة أن تجيبه إلى ما يريد، وصبرت صبر الكرام، وأخذ إيمانها الصحيح يعمل عمله، فأضاء جوانب نفسها، وزاد من ثقتها بالله عز وجل، وأن الله مع الصابرين، وأنه لبالمرصاد لمن ضل وخرج عن جادة الصراط السوى.

ولم تقبل أم حبيبة رضى الله عنها أن تبقى مع إنسان مشرك كافر، أو أن تجالسه أو تحادثه، فكان لا بد من الفراق والانفصال عن هذا الزوج العاق، الذى عق دينه، وعق أهله وخان العهد الذى فارق عليه رسول الله ﷺ.

إذن، فليكن الفراق، واتخذت أم حبيبة هذا القرار الحاسم، فاعتكفت فى دارها لا تزور ولا تزار، تمضى سحابة نهارها تذكر الله عز وجل، وتقوم الليل تناجيه، وتبثه همومها، وتشكو إليه حالها، فهو عليم بها، وبما أصابها فى غربتها، وفى وحدتها.

إن الظروف التى أحاطت بأم حبيبة كانت قاسية جدًّا ومضنية إلى حد كبير، فهى لا تستطيع أن تعود إلى مكة وهى على هذه الحالة، فأبوها أبو سفيان عدو الإسلام اللدود – الآن – ولن يقر له قرار حتى يفتنها عن دينها، لتعود مكانته وهيبته بين

صفوف فجار قريش الذين أخذوا يعيرونه بإسلام ابنته أم حبيبة وبهجرتها، وفرارها إلى الحبشة، وهى لا تستطيع أن تهاجر إلى المدينة المنورة لا تريد أن تكون كلاً على زينب بنت جحش أخت زوجها عبيد الله، فاستسلمت لله عز وجل، وسلمت إليه أمرها فهو علام الغيوب.

أما زوجها عبيد الله بن جحش، فقد استهوته خمور الحبشة وراح يعب من دنانها ما جعله صريع أقداحها، يصل ليله بنهاره وهو يعاقرها، وأكب على احتسائها حتى مات كافرًا طريدًا خسر الدنيا والآخرة.

قال الطبرى رحمه الله «فتنصرزوجها، وحاولها أن تتابعه، فأبت وصبرت على دينها، ومات زوجها على النصرانية»».

ومن الجدير بالذكر أن عددًا من النساء توفين فى الحبشة مهاجرات وهى: فاطمة بنت صفوان بن أمية، وأم خزيمة (أم حرملة) وتوفيت ريطة ببنت الحارث بن جبيلة بالطريق وهى راجعة ومات معها ابنها موسى وابنتاها: عائشة وزينب من ماء شربوه بالطريق.

أما النساء اللواتى مات عنهن أزواجهن بالحبشة فهن: سيدتنا أم حبيبة بنت أبى سفيان، وفاطمة بنت المجلل مات عنها زوجها حاطب بن الحارث بن معمر، ورملة بنت أبى عوف بن ضبيرة، مات زوجها المطلب بن أزهر، وفكيهة بنت يسار مات عنها زوجها حطاب بن الحارث.

يَا أُمَّ المُؤمِنين:

مكثت أم حبيبة بنت أبى سفيان وحدها فى ديار الغربة، فقد مات زوجها وهو مكب على الخمر، وراحت أم حبيبة تدعو الله عز وجل أن يلهمها الصواب، وأن يرحم غربتها، ويرحمها لما تعرضت من هزات عنيفة، آخرها دعوة زوجها إلى ترك الإسلام والتنصر، ولكن الله عز وجل، أبى لأم حبيبة أن تتنصر، وأتم لها الإسلام والهجرة.

بلغ الحبيب المصطفى ﷺ وهو بالمدينة المنورة أخبار أم حبيبة بنت أبى سفيان المؤمنة المسلمة السابقة إلى ارتشاف رحيق الإيمان وأندائه وهى بمكة، ثم هاجرت إلى الله ورسوله وفى سبيل الله إلى الحبشة.

وبلغه ﷺ أن زوجها عبيد الله بن جحش ارتد عن الإسلام، ومات نصرانيًّا، وها هى ذى تعيش وحدها معها طفلتها الصغيرة حبيبة، فرأى ﷺ أن يكرمها، وأن يجزيها خير الجزاء عن صبرها، وعن تمسكها بدينها، وبلغه ما بلغه من صيانتها وعبادتها وعفتها وصبرها، فعزم ﷺ أن يتزوجها، وأن يشرفها بأشرف مقامات القرب، بأن تكون أمًّا للمؤمنين وأن تكون من نساء أهل البيت النبوى الطاهر ذى الأصل الثابت، والفرع المتطاول فى السماء.

كانت أم حبيبة رضى الله عنها قد اقتربت من الأربعين، وقد أثر عنها ورعها ودينها وصلاتها، ولذلك وصفها الإمام الذهبى رحمه الله بقوله: «السيدة المحجبة رملة بنت أبى سفيان».

لكن رسول الله ﷺ قد عزم أن يرفعها فوق مكانتها، وذلك بالزواج منها، وأنه بذلك الزواج سيحقق إحدى الحسنيين: جدع أنف أبى سفيان والد رملة القاسى، أو أن يلين طبعه الغليظ ويخشع قلبه لما نزل من الحق، فينشرح صدره للإسلام.

كل هذا كان فى المدينة المنورة، وكانت هذه الأحداث تدور فى بيت رسول الله ﷺ، أما السيدة أم حبيبة بنت أبى سفيان، فقد كانت فى الحبشة تنتظر انقضاء عدتها حتى يأتى الله بالفرج، أو أمر من عنده.

وذات عشية أوت أم حبيبة إلى مخدعها لتنام، فرأت فى نومها كأن قائلاً يقول: «يا أم المؤمنين» فهبت من نومها وقعدت تفكر فى هذا الحلم العجيب والجميل فى آنٍ واحدٍ، ولكن سرعان ما سرت سكينة الهدوء إلى نفسها، فأولت أن رسول الله ﷺ يتزوجها وها هى ذى الأيام تمضى يومًا بعد يوم، ولم يبق على انقضاء عدتها سوى أيامٍ معدودات.

كان الرسول ﷺ قد جهز بالمدينة المنورة عمرو بن أمية الضمرى، ليقوم بمهمة كريمة، وينقل أعظم البشارات للسيدة المحجبة رملة بنت أبى سفيان وبعث رسول الله ﷺ عمرو بن أبى أمية إلى النجاشى يزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان.

كانت أم حبيبة رضى الله عنها، تفكر فى وحدتها، وتتفكر فى الحلم الذى رأته منذ أيام، فلم يرعها إلا رسول النجاشى، وكانت جارية يقال لها أبرهة، كانت تقوم على ثيابه

ودهنه قد دخلت عليها وقالت: «إن الملك يقول لك: إن رسول الله ﷺ كتب إلىَّ أن أزوجكه، شعرت أم حبيبة رضى الله عنها بهالات السرور تجللها، وأحست بأن فيضًا مباركًا قد غمرها، وغمر أحاسيسها، ولم تستطع أن تكتم عواطفها، بل قالت للجارية وهى مبتسمة ضاحكة من قولها: بشرك الله بخير...».

فقالت الجارية: «يقول لك الملك، وكِّلى من يزوجك».

فأرسلت أم حبيبة إلى أحد أقاربها وهو خالد بن سعيد بن العاص الأموى ﷺ فوكلته».

ثم إن أم حبيبة رضى الله عنها أعطت الجارية أبرهة سوارين من فضة وحلتها بهما، وخلخالين وخواتيم من فضة أيضًا كانت فى أصابعها بما بشرتها، وهل هناك أمنية أو بشارة أعظم من هذه البشرى التى نظمت أم حبيبة فى ذلك العقد الثمين عقد أمهات المؤمنين الطاهرات اللواتى أكرمهن الله عز وجل برسول محمد ﷺ وأكرمنا أيضًا بالحديث عن سيرهن...

خطبة الزواج والمهر النفيس:

فى ترجمته النفيسة لأم حبيبة أم المؤمنين رضى الله عنها، ذكر الإمام الذهبى رحمه الله بعض المعارف النفيسة اللطيفة، فى شأن مهر أم حبيبة وزواجها فقال: «وهى من بنات عم الرسول ﷺ، ليس من أزواجه من هى أقرب نسبًا إليه منها، ولا فى نسائه من هى أكثر صداقًا منها، ولا من تزوج بها وهى نائية الدار أبعد منها، عقد له عليها بالحبشة، وأصدقها عنه صاحب الحبشة أربع مائة دينار، وجهزها بأشياء».

وهذا القول يتوافق ويوافق ما جاء فى الصحيحين من قرابتها من رسول الله ﷺ.

إن هذا الإنعام الربانى كله من فضل الله على أم حبيبة، ومن رحمته العظيمة بها وبأمهات المؤمنين الطاهرات اللاتى ذكرهن الله عز وجل بقوله: ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ ﴾ (الأحزاب: ٦).

أما كيف كانت الخطبة المباركة، والمهر الكريم، فنحن مرسلو القول فى ذلك إن شاء الله.

ففى ذلك اليوم الذى زفت البشرى لأم حبيبه بالزواج من رسول الله ﷺ، أمر النجاشى ملك الحبشة جعفر بن أبى طالب ومن هناك من المسلمين أن يحضروا: فحضروا، وإذ ذاك قام النجاشى خطيبًا فى ذلك الحفل البهيج فقال: «الحمد لله الملك القدوس، السلام المؤمن، المهيمن العزيز الجبار، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأنه الذى بشر به عيسى ابن مريم، أما بعد: فإن رسول الله ﷺ كتب إلىَّ أن أزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان، فأجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ وقد أصدقتها أربعة مائة دينار».

ثم إن النجاشى سكب الدنانير بين يدى القوم المسلمين وجلس فى مكانه، فقام وكيل أم حبيبة خالد بن سعيد بن العاص ﷺ يخطب فقال: «الحمد لله أحمده، وأستعينه وأستنصره، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

أما بعد: فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ، وزوجته أم حبيبة بنت أبى سفيان، فبارك الله لرسول الله ﷺ».

ودفع النجاشى الدنانير إلى خالد بن سعيد فقبضها، ثم أراد المسلمون أن يقوموا، وإذ ذاك قال لهم النجاشى: «اجلسوا فإن سنة الأنبياء عليهم السلام إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج» فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرقوا.

ولنستمع إلى ما نظمه أحمد محرم فى هذه المناسبة الطيبة إذ يقول:

بشراكِ أم حبيبة بمحمدِ	تمت لك النعمى ففوزى واسعدى
بشراكِ أم المؤمنين فهذه	رؤياك عند أوانها والموعدِ
قلدت أمرًا خالدًا فمضى به	شرفًا على شرفٍ أشم مخلدِ
هتف الرسول أجب وكيل محمدٍ	فمشى إلى الملك الأعز الأصيد
جمع الأحبة والرفاق فأقبلوا	من كل عالٍ فى الرجال ممجدِ
أدى النجاشى الصداق مباركًا	ملء اليدين يسوقه من عسجدِ
وأقام لله الولائم كلما	زادت وفود القوم قال لها ازددى

«وَعَلَيْهَا السَّلَامِ»:

إن الأقدار التى تجرى فى أعنتها، رفعت من قدر أم حبيبة، وجعلتها فى مكانة مباركة، هى نفسها الأقدار التى رفعت قدر تلك الجارية «أبرهة» التى بشرت أم حبيبة بأمر الزواج المبارك، وجعلت رسول الله ﷺ يهديها السلام، وهنيئًا لمن سلم عليه رسول الله ﷺ.

وإنى لأكبر تلك الجارية التى عمل الإيمان عمله فى قلبها، فزهدت فيما يحبه النساء من حلىٍّ وذهبٍ وفضة، ورغبت فى سلامها على النبى ﷺ — وهى لم تره — هذه أمنيتها التى عرضتها على أم حبيبة رضى الله عنها.

لنستمع إلى أمنا أم حبيبة تروى خبر ذلك السلام: قالت أم حبيبة: «لما وصل المال وهو مهرى من النجاشى، أرسلت إلى الجارية أبرهة التى بشرتنى، فأتت، فقلت لها: يا أبرهة، إنى كنت قد أعطيتك ما أعطيتك بالأمس، ولا مال بيدى، فهذه الخمسون مثقالاً، فخذيها فاستعينى واستغنى بها، ولكن الجارية أبت ذلك، وأخرجت حُقًّا فيه كل ما كنت أعطيتها، فردته علىَّ وقالت: عزم علىَّ الملك ألا أرزأكِ شيئًا، أنا التى أقوم على ثيابه ودهنه، وقد اتبعت دين محمد رسول الله ﷺ، واسلمت لله عز وجل، وقر أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بكل ما عندهن من العطر، قالت أم حبيبة: فلما كان من الغد، جاءتنى بعود وورس وعنبر، فقدمت بذلك كله على رسول الله ﷺ، فكان يراه علىَّ فلا ينكره، ثم قالت الجارية أبرهة: يا أم حبيبة إن حاجتى إليك أن تقرئى رسول الله ﷺ منى السلام، وتُعلّميه أنى قد اتبعت دينه».

قالت أم حبيبة: ثم لطفت الجارية أبرهة بى، وكانت هى التى جهزتنى، وكانت كلما دخلت على تقول: يا أم حبيبة لا تنسى حاجتى إليك.

فلما قدمت على رسول الله ﷺ أخبرته كيف كانت الخطبة، وما فعلت بى أبرهة، فتبسم رسول الله ﷺ، وأقرأته منها السلام، فقال: «وعليها السلام ورحمة الله وبركاته».

أمُّ حَبِيبَة فى أفياءِ البَيْتِ الطَّاهِر:

بعد أن مكث المسلمون فى الحبشة زمنًا طويلاً، أخذوا يتأهبون للهجرة إلى المدينة بعد أن استقر فيها الإسلام والسلام، وبعد أن فصلت المعارك بين المسلمين والمشركين،

فقد كانت معركة بدر، وأحد، والخندق، وغيرها، وفى هذه المعارك كان أبو سفيان من قادتها ضد المسلمين.

كان آخر المعارك التى قادها أبو سفيان معركة الأحزاب التى هزم الله فيها الأحزاب وحده، بعد أن زاغت أبصار المؤمنين، وبلغت القلوب الحناجر، ونادى أبو سفيان بالرحيل ليلحق بمكة، وقد انهارت آمال الأحزاب ورئيسها أبو سفيان فى استئصال المسلمين.

وقد عبر أبو سفيان فى كتابٍ أرسله إلى رسول الله ﷺ عن مشاعره عقب الانسحاب جاء فيه: «باسمك اللهم، فإننى أحلف باللات والعزى وإساف ونائلة وهُبَل، لقد سرت إليك فى جمع، وأنا أريد أن لا أعود إليك أبدًا حتى استأصلكم، فرأيتك قد كرهت لقاءنا، واعتصمت بمكيدةٍ ما كانت العرب تعرفها، وإنما كانت تعرف ظل رماحها، وشب سيوفها، وما فعلت هذا إلا فرارًا من سيوفنا، ولقائنا، ولك منى يوم كيوم أحد».

فأرسل إليه جوابًا جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله ﷺ إلى صخر بن حرب أما بعد: فقد أتانى كتابك، وقديمًا غرك بالله الغرور، أما ما ذكرت أنك سرت إلينا وأنت لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا، فذلك أمر يحول الله بينك وبينه، ويجعل لنا العاقبة، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى، وإسافًا ونائلة وهبل حتى أذكرك ذلك يا سفيه بنى غالب».

كان المسلمون فى الحبشة فى شوق شديد إلى لقاء رسول الله ﷺ، وإلى لقاء الأحبة والأصحاب، وكانت أم حبيبة رضى الله عنها أكثرهم شوقًا ولهفة، فما إن تدخل دور النبى ﷺ، حتى تصبح أم المؤمنين، وإنها لأمنية غالية، قد نالتها بإيمانها وصبرها، وإنه لشرف عظيم يتقاصر دونه كل شرف، ويتضاءل أمامه كل شىء، فليس بالقليل لقب أم المؤمنين، إنه لتاج مبارك ألنسها إياه رب العالمين.

أما أبو سفيان، فكان فى مكة، تهب عليه الذكريات، وتطوف بذهنه ما كان بينه وبين محمد والمسلمين يوم بدر ويوم الخندق، وتذكر تلك الريح التى قلبت قدورهم، واقتلعت خيامهم فى يوم الخندق، وجاشت الذكريات فى وجدانه، وكانت جميعها تخز

نفسه، وخزًا أليمًا، فقد أثارتها ابنته أم حبيبة بعد أن جاء من الحبشة من يخبره أن محمدًا ﷺ قد كتب إلى النجاشى أن يزوجه أم حبيبة، وأنها قد وكلت خالد بن سعيد ليزوجها من نبى الإسلام هذا الذى يحاربه منذ اليوم الأول لانبثاق الرسالة المحمدية.

وتأججت فى جوفه نار الغيظ، وزاد فى حنقه أن الخبر الذى أتاه من الحبشة يقول: «إن ابنته أم حبيبة كادت تطير من الفرح لما علمت أن رسول الله ﷺ قد بعث يخطبها، وأنها أعطت الجارية التى بشرتها سوارين ثم قالت لها بعد أن قبضت الصداق: كنت أعطيتك السوارين بالأمس، وليس بيدى شىء من المال، وقد جاءنى الله عز وجل بهذا...».

أم المؤمنين، أم حبيبة ابنة زعيم قريش تصبح أمًّا لأعدائه الذين يحاربهم منذ زمن بعيد!!! لقد دارت به الأرض لما بلغه ذلك النبأ، ولكن كلمة الحقيقة فرت من شفتيه لترسم فى سجل التاريخ معبرة عن صدق وجدانه، شاء أم أبى، لقد قال: «ذلك الفحل لا يقرع أنفه».

وعادت أم حبيبة مهاجرة إلى المدينة سنة سبع من الهجرة عقب فتح خيبر، عادت مع ركب المهاجرين وفيهم جعفر بن أبى طالب ومن معه، وقد سر النبى ﷺ لقدوم هؤلاء الأحبة بعد غياب دام طويلاً، ومعهم الصابرة الطاهرة السيدة المحجبة أم حبيبة التى غدت زوجه وأم المؤمنين.

دخلت أم حبيبة البيت النبوى الطاهر فى المدينة، وغدت أم المؤمنين رغمًا عن آناف المشركين... وتزوج النبى ﷺ أم حبيبة سنة سبع من الهجرة بعد زواجه من صفية بنت حيى أم المؤمنين، أما عن كيفية قدومها من الحبشة ودخولها البيت النبوى الطاهر، فعند أبى القاسم بن عساكر الخبر اليقين حيث قال: «لما قدمت أم حبيبة رضى الله عنها، أمر رسول الله ﷺ بلالاً فأخذ بخطام بعيرها، فأنزلها المنزل، الذى أمره النبى ﷺ، فإذا فيه كناسة، فقالت لمولاة لها: إن شئت كفيتنى السقى وكنست، وإن شئت استقيت وكنست، قال: فكنست البيت، ثم بسطت فيه بساطًا عليه شىء ثم أسرت، ثم أذن رسول الله ﷺ بالدخول على أهله، فلما دخل عليها وجد ريح الطيب، وقال: «إنهن قرشيات بطاحيات قرويات، لسن بأعرابيات ولا بدويات».

ومنذ أن دخلت أم حبيبة البيت النبوى غدت من نساء آل البيت الطاهر، وراحت تنهل من معين القرآن الكريم، والحديث الشريف الذى فاتها فى هجرتها بالحبشة حتى غدت واحدة من فقيهات نساء الأمة.

ومن الجدير بالذكر أن رسول الله ﷺ قد أشرك المهاجرين فى الحبشة من مغانم خيبر، ولم يقسم لأحدٍ غيرهم معهم، وقال فى حقهم: «لكم أنتم أهل السفينة هجرتان».

إِخْلَاصُ أمّ حَبِيبَة وَوَفَاؤهَا:

كانت هدنة الحديبية بين المسلمين والمشركين أعظم الفتوح، فإن الناس أمن بعضهم بعضًا، واختلط المسلمون بالكفار ونادوهم بالدعوة، وأسمعوهم القرآن الكريم، والحديث النبوى، وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين مطمئنين، وظهر من كان مختفيًا بالإسلام، ودخل فيه فى مدة الهدنة من شاء الله أن يدخل، ولهذا سماه الله عز وجل: ﴿ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ (الفتح: ١).

كان من شروط المعاهدة شرط تضمن حرية الاختيار للقبائل فى الانضمام إلى أحد الفريقين المتصالحين، فقد تواثبت خزاعة وقالوا: «نحن فى عقد محمد ﷺ» وتواثبت بنو بكر وقالوا: «نحن فى عقد قريش وعهدهم».

كان بين خزاعة وبكر إحن وضغائن جاهلية، خلفت بينهم ترابًا ودماءً، وكانوا يتحينون الفرص لإثارتها، فلما جاء الإسلام حجز بينهم، وظلوا على ما بينهم من الإحن والبغضاء حتى ثم عقد صلح هدنة الحديبية، فانتهزها البكريون غدرًا وخيانة، وعدوا على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ، وبيتوهم فى ديارهم وعلى مياههم وهم غارون آمنون، ورفدت قريش حلفاءها بنى بكر بالسلاح والرجال مستخلفين، وظاهروهم على حلفاء رسول الله ﷺ الداخلين فى عقده وعهده، فنقضت بذلك قريش عهدها مع رسول الله ﷺ.

وخرج عمرو بن سالم الخزاعى فى أربعين من قومه، إلى المدينة المنورة يستنصر رسول الله ﷺ، وأخبره بغدر قريش، وأنشده أبياتًا من الشعر يستصرخه بها، فقال رسول الله ﷺ: «نصرت يا عمرو بن سالم».

وتسامعت قريش برحلة الخزاعيين إلى المدينة يستصرخون رسول الله ﷺ، فرعبت رعبًا شديدًا، وأخذها ما أخذها من الخوف، وندمت على ما فعلت، وما قدمت يداها، وسقط فى يدها، فأرسلت زعيمها أبا سفيان بن حرب ليشد عقد الهدنة ويستزيد مدتها، وقدم أبو سفيان المدينة المنورة، فلما وصلها دخل على ابنته أم المؤمنين أم حبيبة رضى الله عنها، فذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ فطوته عنه، فقال لها: «يا بنية، ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش، أم رغبت به عنى؟».

قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت مشرك نجس.

قال: «والله لقد أصابك بعدى شر».

قالت: «هدانى الله للإسلام، وأنت يا أبت سيد قريش وكبيرها، كيف يسقط عنك دخول فى الإسلام، وأنت تعبد حجرًا لا يسمع ولا يبصر؟».

قال: «يا عجباه، وهذا منك أيضًا؟! أأترك ما كان يعبد آبائى وأتبع دين محمد؟! ثم قام من عندها».

ودعنى عزيزى القارئ أتحدث عن موقف أم المؤمنين أم حبيبة أمام أبيها، فهاهنا توجد إشراقة مباركة من لونٍ عجيب من هذه المرأة الحصيفة الكريمة التى ظهرت بأرفع الإخلاص وأخلصه فى عقيدتها، وفى حبها لله عز وجل، ولرسوله ﷺ.

فالسيدة الجليلة أم حبيبة بنت أبى سفيان، بنت زعيم قريش، وسيد بطحاء مكة، يدخل عليها أبوها بعد طول عهدٍ بفراقها، ويجىء ليجلس على فراشٍ فى بيتها فتطويه عنه، فيتساءل بعنجهية الكبرياء المتغطرس الممزوج برواسب الجاهلية: «هو طوى عنه الفراش لأنه لا يليق بكبرياء سيد البطحاء وزعيم قريش أو طوى هذا الفراش تعظيمًا به أن يدنسه رجس الشرك فى زعامة البطحاء؟».

وفى هدوء ممزوج بنور اليقين، وأنوار الإيمان المستقر فى الأعماق، تجيبه ابنته الوفية لدينها، ولنبيها ورسالته، ولزوجها وعظمته مبينة له بصراحةٍ كاملة ودون مواربة: «بأنه فراش رسول الله ﷺ الطاهر المطهر، وأنت رجل مشرك نجس، لا تصلح للجلوس عليه خشية أن تدنسه».

لقد تقاصرت نفس شيخ قريش، فما دار فى خلده أن يأتى يوم يطوى عنه فراش، وهو الذى قدمت إليه النمارق فى قصر قيصر، وكانت الأبواب تفتح له فى قصور الشام، ومن ذا الذى طوى عنه الفراش؟ إنها أم حبيبة ابنته التى كانت أطوع له من بنانه من قبل، واليوم افترقا فقد عرفت الطريق وضل هو بعناده وصلفه، فقام بينهما حاجز تجاوز الأبوة النبوية، إنه التنافر بين الإيمان والشرك، الإيمان الذى إذا خالطت ذراته بشاشته شغاف القلوب، وامتزجت حلاوته بالأرواح والجوارح والعقول، صنع الأعاجيب.

لم ينتفع أبو سفيان بن حرب بهذا الدرس الذى تلقاه من أقرب الناس إليه لحمًا ودمًا من ابنته فى بيت رسول الله ﷺ، ولكنه ذهب إلى رسول الله ﷺ، وفى جعبته حصيلة من الخداع والكذب، فكلمه فيما هو قادم من أجله، فلم يرد عليه شيئًا فاستشعر مذلة وراودته فكرة أن يعود من حيث جاء، ولكنه عزم أن يسير إلى نهاية الشوط.

فقام يجر رجليه جرًّا، وذهب إلى الصديق أبى بكر ﷺ، فكلمه ليكلم له رسول الله ﷺ، فأبى عليه أبو بكر، ثم أتى أبو سفيان عمر بن الخطاب ﷺ، وكلمه ليشفع لهم عند رسول الله ﷺ فكان عمر أشد الناس وطأة على كبرياء زعيم البطحاء ابن حرب.

وانطلق أبو سفيان وأتى عثمان بن عفان ﷺ، فكان جواب عثمان كجواب سابقيه: هُوَ هُوَ أو قريب من هُوَ، فحار أبو سفيان، ثم أتى على بن طالب ﷺ وعنده زوجه فاطمة الزهراء رضى الله عنها، وابنها الحسن غلام يدب على الأرض بين يديها، فاستعطف عليًّا وسأله بالرحم أن يشفع له إلى رسول الله ﷺ، فأبى عليه، ولكنه لاينه، ورفق به، فالتفت زعيم البطحاء فى ذلة إلى السيدة النبيلة أطهر الطاهرات، فاطمة البتول رضوان الله عليها وقال لها: «يا بنت محمد، هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟!».

فقالت أم الحسنين سيدة نساء العالمين رضى الله عنها: «والله ما يبلغ بنى هذا أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ».

وخرج أبو سفيان من عند هؤلاء حائرًا، يجرر أذيال الخيبة والفشل وقد أظلمت الدنيا عليه، ولم يدر أيشرق أم يغرب، حتى ألقته الحيرة إلى أشراف الأنصار، فأتى

سعد بن عبادة سيد الخزرج، فقال له: «يا أبتا ثابت، إنك سيد هذه البحيرة، فأجر بين الناس، وزد فى المدة».

فقال له سعد ﷺ: «جوارى فى جوار رسول الله ﷺ ما يجير أحد عليه».

ثم عاد أبو سفيان يجره الشيطان من خياشيم اليأس والطغيان إلى أشراف قريش من المسلمين والأنصار، يتهافت ويتهافت، ويستجير ويستصرخ، ويتملق، وكلهم يقول له: «جوارى فى جوار رسول الله ﷺ، ما يجير أحد عليه».

أرأيت عزيزى القارئ أبا بكر وعمر وعثمان وعلى بن أبى طالب والزهراء كيف تكلم هؤلاء من مشكاة واحدة، وكيف جابهوا أبا سفيان بحقيقة حاله.

إنه الإيمان العظيم، وإنه الأدب الكريم الذى استقوه من رسول الله ﷺ، فنطق جميعهم بالحكمة وفصل الخطاب، عاد أبو سفيان زعيم قريش بعد غيبةٍ طويلةٍ إلى قريش خائبًا مرذولاً مثقلاً بالخيبة فى سفارته التى كان يرجو منها الخير وخصوصًا من ابنته أم حبيبة رضى الله عنها التى قابلته بما يستحق أن تقابل به كل مشرك ظلوم كفار، وتحققت بذلك نبوة رسول الله ﷺ، حينما قال لأصحابه: «كأنكم بأبى سفيان قد جاء يقول: جدد العهد، وزد فى المدة وهو راجع بسخطه».

أما رسول الله ﷺ فقد تجهز، وأمر المسلمين أن يتجهزوا، وسار إلى مكة فى حشود جند الله وكتائب الإيمان، وأنصار الإسلام، وفى الطريق التقطت عناية الله أبا سفيان، ورحمة الله وبركاته، فدخل فى الإسلام، بعد أن رأى عظمته وعظمة نبيه وفتح الله على رسوله مكة المشرفة، ودخلت قريش فى الإسلام، وأطلقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم، فكانوا بفضل الوفاء بالعهد، وببركة هدنة الحديبية، هم كتائب الجولة الأولى لفتوح الإسلام كلها، وكانت مكة قلعة وحصنًا من قلاع وحصون الدعوة إلى الله بالعلم والحجة النيرة، ثم بالجهاد فى سبيل الله عز وجل.

نزول القرآن بها وبشارة نبوية:

ماتت أم حبيبة راضية النفس، مطمئنة الفؤاد لا تفتأ تذكر الله وتشكره على أن هدى أبا سفيان وأهل بيته إلى الإسلام، وتحمد الله عز وجل أن اجتذب الإسلام أفئدة أقربائها وذويها ليكونوا من جنود مدرسة النبوة وفرسانها، وكانت قبل فتح مكة ترتجف

فرقًا أن يموت شيخ بنى أمية على الكفر، ويحرم من النعيم المقيم فى ظل الإيمان، ويموت على الكفر طريدًا مطرودًا من رحمة الله، كما مات شيوخ من بنى مخزوم كأبى جهل والوليد بن المغيرة، ومات شيوخ من بنى سهم كالعاص بن وائل، ومن بنى عبد شمس كعتبة بن ربيعة وأخيه شيبة وغيرهم.

كانت أمنا أم حبيبة رضوان الله عليها دائبة الثناء على الله، دائمة الشكر له، فقد منَّ عليها وأكرمها بنزول قرآن بها يتلى فى المحاريب إلى ما شاء الله.

فقد ذكر المفسرون والمؤرخون وبعض كتاب السيرة والتراجم بأسانيدهم عن ابن عباس أنه قال: «فى هذه الآية: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الممتحنة: ٧) قال: فكانت المودة التى جعل الله عز وجل بينهم تزويج النبى أم حبيبة بنت أبى سفيان رضى الله عنهما، فصارت أم المؤمنين، وصار معاوية خال المؤمنين».

وقال الطبرى رحمه الله فى التفسير: «عسى الله أيها المؤمنون أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم من أعدائى من مشركى قريش مودة، ففعل الله ذلك بهم، بأن أسلم كثير منهم، فصاروا لهم أولياء وأحزابًا».

قال الإمام فخر الدين الرازى رحمه الله: الله تعالى قادر على تقليب القلوب، وتغيير الأحوال، وتسهيل أسباب المودة، قال بعضهم: لا تهجروا كل الهجر، فإن الله مطلع على الخفيات والسرائر، ويروى: أحبب حبيبك هونًا ما عسى أن يكون بغيضك يومًا ما».

وقد خصها رسول الله ﷺ بحديثه، وبشرها بالجنة مع أخيها معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما.

أخرج أبو القاسم بن عساكر رحمه الله بسنده عن الحسن قال: «دخل معاوية ﷺ على النبى ﷺ وعنده أم حبيبة رضى الله عنها، وكانت إلى جانب النبى ﷺ، فلما رآها رجع، فقال النبى ﷺ «يا معاوية ارجع» فرجع، فقعد معهم، فقال لها النبى ﷺ: «والله إنى لأرجو أن أكون أنا وأنت وهذه فى الجنة ندير الكأس بيننا».

وفى حديث نبوى آخر، يدل على مكانة أم حبيبة، ومكانة نساء النبى ﷺ، ما أخرجه ابن عساكر أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أبى لى أن أتزوج إلا أهل الجنة».

أُمُّ حَبِيْبَة وَذِكْرَياتُ الحَبَشَةِ:

النجاشى الذى أحسن نزول المهاجرين فى الحبشة، اسمه «أصحمة» وتعنى كلمة أصحمة بالعربى «عطية» وملك الحبشة هذا معدود فى الصحابة رضى الله عنهم، وكان ممن حسن إسلامه، ولم يهاجر، وليس له رؤية، فهو تابعى من وجهٍ صاحب من وجهٍ.

وفى يوم جاء جبريل عليه السلام، وقال للحبيب المصطفى ﷺ: «إن النجاشى الرجل الصالح قد مات، فصلى عليه بالناس صلاة الغائب».

وذكرت المصادر أنه لم يثبت عن النبى ﷺ أنه قد صلى على غائب سواه، وسبب ذلك أنه مات بين قوم نصارى، ولم يكن عنده من يصلى عليه، لأن الصحابة الذين كانوا مهاجرين عنده خرجوا من عنده مهاجرين ثانية إلى المدينة المنورة عام خيبر.

وذاع فى دور النبى ﷺ أن النجاشى قد مات فصارت فى نفوس أهل البيت النبوى الذكريات، فتذكرت أم المؤمنين أم سلمة أيامها بالحبشة وإكرام النجاشى للمهاجرين.

كانت أم حبيبة أم المؤمنين رضى الله عنها قد عادت بها الذكريات إلى أيام الحبشة... تذكرت تلك الرؤيا التى هتفت بها: «يا أم المؤمنين» فطار خيالها إلى المدينة حيث كان رسول الله ﷺ، إنها بشارة وبشرى بأنها ستصبح ذات يوم من أمهات المؤمنين.

وأطرقت أم حبيبة تصيخ السمع إلى الماضى القريب البعيد، إنها تسمع أو تستحضر صوت «أبرهة» جارية النجاشى، وهى تزف إليها البشرى تلك التى أدخلتها إلى عقد أمهات المؤمنين.

رِوَايَتُها وَحِفْظُهَا:

أم المؤمنين أم حبيبة رضى الله عنها إحدى نساء أهل البيت النبوى اللواتى أكرمهن الله عز وجل بالعلم ورواية الحديث، فهى واحدة من حافظات النساء، واحدة

من اللواتى شغلن أنفسهن بحب كتاب الله عز وجل، وسنة الحبيب الأعظم محمد ﷺ، فراحت بعد عودتها من الحبشة تنهل من معين الآيات القرآنية وتحفظ من الأحاديث الشريفة ما جعلها إحدى المكثرات من الرواية، فلم يسبقها فى الحفظ والرواية من أمهات المؤمنين إلا عائشة وإلا أمنا أم سلمة وأمنا ميمونة رضى الله عنهن أجمعين، ثم تأتى أمنا أم حبيبة فى المرتبة الرابعة بين أمهات المؤمنين وفى نساء أهل البيت الطاهرات.

ولعل مرد هذا إلى أن أم حبيبة رضى الله عنها تعد إحدى فصيحات النساء، وإحدى النسوة اللواتى عرفن بالبلاغة، وحسن الخطاب، كما كانت من ذوات الرأى الجزل والمكانة والحصافة والذكاء الذى صقل موهبتها وجعلها من سادة قريش وفضلياتهن.

كانت أم حبيبة رضى الله عنها شديدة التمسك بهدى الرسول الكريم ﷺ، ولعلها فى حياتها بعده ﷺ كانت لا تريم قيد أنملة عما حكاه المصطفى ﷺ، فكانت تروى الحديث الشريف، وتعمل به، وتوصى بالعمل بما جاء فيه وتفقه حكمه، وهذا يشير إلى فضلها وفضائلها رضى الله عنها.

بلغ مسند أمنا أم حبيبة رضى الله عنها خمسة وستين حديثًا اتفق لها البخارى ومسلم على حديثين، وتفرد مسلم بحديث.

وروى لأم حبيبة أصحاب السنن والمسانيد، وروى عنها كبار الصحابة والصحابيات، وكذلك كبار التابعين.

وحدث عن أم حبيبة أخواها: الخليفة معاوية، وعنبسة، وابن أخيها عبد الله بن عتبة بن أبى سفيان، وابن أختها أبو سفيان بن سعيد بن المغيرة، وعروة بن الزبير، ومولياها: سالم بن شوال المكى، وأبو الجراح القرشى وآخرون.

وحدث عنها من النساء الصحابيات: زينب بنت أبى سلمى المخزومية، وصفية بنت شيبة العبدرية رضى الله عنهما.

ومما رواه لها البخارى رحمه الله ما أخرجه بسنده عن حميد بن نافع عن زينب ابنة أم سلمة، عن أم حبيبة ابنة أبى سفيان: لما جاءها نعى أبيها، دعت بطيبٍ، فمسحت

ذراعيها وقالت: ما لى بالطيب من حاجة، لولا أنى سمعت النبى ﷺ يقول: «لا يحل لامرأةٍ تؤمن بالله واليوم الآخر تحد على ميتٍ فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشرًا».

وفى مسنده أخرج أبو يعلى الموصلى رحمه الله بسنده عن أبى الجراح مولى أم حبيبة، عن أم حبيبة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة، كما يتوضئون».

وعن فضائل الصلاة وفضلها روت أم المؤمنين أم حبيبة رضى الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «من صلى أربعًا قبل الظهر، وأربعًا بعدها، حرمه الله عليه النار».

كانت أم المؤمنين أم حبيبة رضى الله عنها من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات، وكانت موصولة القلب بالله عز وجل، وصلت نهارها بليلها، وليلها بنهارها فى الطاعات، تسير مقتفية نهج رسول الله ﷺ وسنته، وكانت تحث أهلها وأخواتها على التمسك بالهدى النبوى فى الصلاة، حيث إنها لم تترك صلاة التطوع مذ سمعت ذلك من فم رسول الله ﷺ.

أخرج أبو يعلى رحمه الله فى مسنده عن النعمان بن سالم عن عمرو بن أوس قال: «قال لى عنبسة بن أبى سفيان: ألا أحدثك حديثًا حدثتناه أم حبيبة بنت أبى سفيان؟.

قال: بلى.

قال: وما رئيته.

قال: وما ذاك إلا كبشارة إليك.

قال: حدثتنا أن رسول الله ﷺ قال: «من صلى فى يوم ثنتى عشرة سجدة تطوعًا بُنى له بهن بيت فى الجنة».

فقالت أم حبيبة: فما تركتهن منذ سمعتهن.

قال النعمان: ما تركتهن منذ سمعتهن من عمرو.

قال داود: أما نحن، فقد نصلى ونترك».

ومن مرويات أم حبيبة ما أخرجه ابن ماجه بسنده عن صفية بنت شيبة عن أم حبيبة زوج النبى ﷺ عن النبى ﷺ قال: «كلام ابن آدم عليه، لا له، إلا الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وذكر الله عز وجل».

وَدَاعًا أمَّنَا الحَبِيبَة أم حَبِيبَةَ:

عاشت أمنا أم حبيبة رضى الله عنها حياة العلم والزهد بعد وفاة رسول الله ﷺ، فلم تكن تفارق مصلاها، أو تترك أثرًا من الآثار النبوية إلا اقتفته وسارت على هداه.

قال عنها الإمام ابن كثير رحمه الله: «كانت أم حبيبة من سيدات أمهات المؤمنين، ومن العابدات الورعات رضى الله عنها».

كانت أمنا أم حبيبة مكان احترام وتقدير من الخلفاء الراشدين، فكان سيدنا أبو بكر يكرم أمهات المؤمنين، ويرعى شئونهن، وكذلك كان عمر يتفقد أحوالهن، وفى عهد عثمان ﷺ كان يقوم على رعايتها وقضاء حوائجها، ولما حصر عثمان عليه سحائب الرضوان أتته أمنا أم حبيبة، فجاء رجل فاطلع فى خدرها، فجعل ينعتها للناس، فقالت: «ما له قطع الله يده، وأبدى عورته؟!» فدخل عليه داخل فضربه بالسيف فاتقى بيمينه فقطعها، وانطلق هاربًا آخذًا إزاره بفيه، أو بشماله باديًا عورته، وهكذا استجاب الله عز وجل دعاء أم المؤمنين أم حبيبة فتحققت دعوتها.

عاشت أم حبيبة رضى الله عنها حتى أدركت خلافة أخيها معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما، وقدمت دمشق زائرة له، ثم عادت إلى المدينة المنورة، تتابع حياة العلم وحياة الزهد.

وفى خلافة أخيها سيدنا معاوية توفيت أمنا أم حبيبة رضى الله عنها، وتركت فى البيت النبوى، وعند نساء النبى ﷺ كل أثرٍ طيبٍ كريمٍ مباركٍ.

تروى أمنا الصديقة بنت الصديق رضى الله عنهما، هذا الخبر الكريم عن محاسن أم حبيبة رضى الله عنها فتقول: «دعتنى أم حبيبة زوج النبى ﷺ عند موتها، فقالت: قد كان بيننا ما يكون بين الضرائر، فغفر الله لى ولك ما كان من ذلك.

فقلت: غفر الله لك ذلك كله، وتجاوزه، وحللتكِ من ذلك كله.

فقالت: سررتنى سرَّك الله.

وأرسلت إلى أم سلمة فقالت لها مثل ذلك».

ثم توفيت رضى الله عنها وقد أحبت أن تلحق بالنبى ﷺ نظيفة القلب، نقيه السريرة، لا تحمل ذرة مشاحنة لأحدٍ، وكانت وفاتها سنة أربعٍ وأربعين من الهجرة الشريفة...

وكانت ولادتها قبل البعثة بسبعة عشر عامًا رضى الله عنها.

كانت وفاة أم المؤمنين أم حبيبة بالمدينة المنورة، فى الدار التى كانت لعلى بن أبى طالب ﷺ.

روى على بن الحسين قال: «قدمت منزلى فى دار على بن أبى طالب، فحفرنا فى ناحيةٍ منه، فأخرجنا حجرًا، فإذا فيه مكتوب: هذا قبر رملة بنت صخر، فأعدناه فى مكانه».

هذه قطوف مباركة من حياة أمنا الحبيبة أم حبيبة، إحدى نساء أهل البيت الطاهر، نسأل الله عز وجل، أن يكرمنا بالسير على هذا الدرب القويم، وأن يجعلنا معهم فى النعيم المقيم، إنه نعم المولى، ونعم النصير.

أم المؤمنين
ميمونة بنت الحارث رضى الله عنها

شهد لها النبى ﷺ ولأخواتها بالإيمان فقال: «إن الأخوات لمؤمنات».
أم ميمونة أكرم عجوز فى الأرض أصهارًا.
وهبت ميمونة نفسها للنبى ﷺ، ونزل القرآن مسجلاً قصتها.
هى آخر امرأة تزوجها النبى ﷺ، وكانت تقية تصل الرحم.
من حافظات الحديث النبوى روت (٤٦حديثًا) ماتت بسرف قرب مكة سنة (٥١هــ) رضى الله عنها.

أم المؤمنين
ميمونة بنت الحارث رضى الله عنها

المَرْأَةُ المَيمُونَةُ:

ميمونة بنت الحارث الهلالية أم المؤمنين، واحدة من سادات النساء، دخلت العقد النظيم، فأضحت درة فى البيت النبوى الطاهر، كان اسمها برة فسماها ﷺ ميمونة.

وكان كاسمها ميمونة السنا، ولله در أحمد محرم إذ قال:

اسم سما لفظه وازدان معناه ... حلاك ربك بالحسنى وحلاه
ميمونة أنتِ هذا ما تخيره ... لك الذى اختاره من خلقه الله

وفى رحاب الكرم، والأصل الحسيب، والنسب الرفيع، كانت نشأة ميمونة آخر نساء رسول الله ﷺ ولعل يمنها جعلها فى هذا المقام الرفيع الذى تبوأته، وحظيت بأمومة المؤمنين لتــغدو من اللواتى ذكرهن الله عز وجل فى كتابه الكريم حيــث قال: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ ﴾ (الأحزاب: ٣٢).

إن أمنا ميمونة رضى الله عنها، وأخواتها من سادات النساء، وممن شهد لهن الرسول الكريم ﷺ بالإيمان، وناهيك بشهادة رسول الله ﷺ.

فأختها أم الفضل بنت الحارث زوج العباس الحرة الجليلة، وأم أولاده الستة النجباء، كانت أول امرأةٍ آمنت برسول الله ﷺ بعد أمنا خديجة بنت خويلد ولطالما

حدثت أم الفضل ميمونة عن الإيمان، وعن رسول الله ﷺ، فهفا إليه فؤادها، وكانت من الثلة الأولى من المؤمنات المسارعات إلى الاستجابة لدعوة الإيمان، والتلذذ برحيقها.

لم تكن أم الفضل وحدها التى ارتبطت بالإسلام من أهلها، فأختها من أمها أسماء بنت عميس، كانت زوج الشهيد جعفر بن أبى طالب ﷺ، وقد تزوجت من بعده بشيخ الصحابة والمهاجرين سيدنا أبى بكر الصديق عليه سحابات الرضوان، ثم تزوجت بعده من فارس الصحابة والمهاجرين سيدنا على بن أبى طالب ﷺ.

وأختها الأخرى سلمى بنت عميس زوج أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب عم النبى ﷺ، ومن اللواتى شهدن مشرق الإسلام منذ أن أضاء أم القرى فى ساعاته الأولى.

وهؤلاء السيدات السادات من النساء كانت أمهن جميعًا: هند بنت عوف بن زهير، إنها أكرم عجوز فى مكة.

ولما شاءت إرادة الله أن ترتبط إحدى بناتها برسول الله ﷺ، صارت هند بنت عوف أكرم عجوز فى الأرض أصهارًا.

فمن أصهارها: الحبيب المصطفى ﷺ.

أبو بكر الصديق عليه سحائب الرضوان.

حمزة بن عبد المطلب عم النبى وأسد الرحمن وفارس الميدان، وفتى قريش ﷺ.

العباس بن عبد المطلب عم النبى ﷺ وصنو أبيه.

جعفر بن أبى طالب، الشهيد الكريم وابن عم النبى ﷺ.

ومن أحفادها: عبد الله بن عباس أحد العبادلة الأربعة، حبر الأمة وفقيه الفقهاء، وابن عم المصطفى ﷺ، وخالد بن الوليد، فارس الإسلام، وسيف الرحمن، ومذل المشركين أهل الطغيان ﷺ وأرضاه.

إذن فأمنا ميمونة رضى الله عنها، ميمونة النقيبة، إذ زوجها رسول الله ﷺ، وهى كذلك خالة عبد الله بن عباس، وخالد بن الوليد، وأم المؤمنين، وتلك فضائل حسان، فهل فوق ذلك من مفخر؟!.

هَمْسُ القُلُوبِ:

كان اسم ميمونة كما أسلفنا برة بنت الحارث، فسماها رسول الله ﷺ ميمونة، وكانت زوجًا لأبى رُهْم بن عبد العزى العامرى القرشى، فأضحت أرملة وهى لا تزال فى ريعان الشباب، إلا أن نور الإيمان، كان يضىء جوانب نفسها، وتغذى به روحها، فغدت صافية السريرة، عظيمة الإيمان بالله عز وجل، حتى شهد الله لها بالإيمان، وحظيت بشرف الزواج من رسول الله ﷺ فى وقت فراغه من عمرة القضاء سنة سبع من الهجرة فى ذى القعدة.

ففى السنة السابعة من الهجرة النبوية الشريفة، دخل الحبيب المصطفى ﷺ وأصحابه مكة معتمرين، وطاف رسول الله ﷺ والمسلمون بالبيت العتيق، بيت الله الحرام، وكان الصحابى الجليل سيدنا عبد الله بن رواحة الأنصارى ﷺ، بين يدى حبيبنا رسول الله ﷺ يرتجز متوشحًا بالسيف وهو يقول:

خلوا بنى الكفار عن سبيله ... خلوا فكل الخير فى رسوله
قد أنزل الرحمن فى تنزيله ... فى صحف تتلى على رسوله
يا رب إنى مؤمن بقيله ... أعرف حق الله فى قبوله
نحن قتلناكم على تأويله ... كما قتلناكم على تنزيله
ضربًا يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

وكانت ميمونة رضى الله عنها فى مكة، وما أن سمعت واستمعت واستمتعت بحداء عبد الله بن رواحة ورجزه، وما أن ملأت عينيها من النبى ﷺ حتى استولت عليها فكرة أن تنال شرف الزواج من رسول الله ﷺ، وأن تصبح أمًّا للمؤمنين، وما يمنعها من أن تحقق حلمها الذى طالما راودها فى يقظتها وفى منامها، وهى من الثلة الأولى فى سجل الإيمان وقائمة المؤمنين، وأخواتها: أم الفضل، وأسماء بنت عميس وسلمى بنت عميس الأخوات المؤمنات.

وهى تلك اللحظات التى سرت فيها أنسام الإيمان تخفق على مكة، همست ميمونة بما فى قلبها إلى أختها أم الفضل زوج العباس، فهل تحققت أمانيها، وهل أكرمها الله

بما فى نفسها؟ لقد سجل القرآن الكريم تلك الخطرات الهامسة فى وجدان ميمونة، فهلم نستمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى قصة ميمونة.

مَيْمُونَة فِى القُرْآن الكَرِيْم:

قلنا: إن ميمونة رضى الله عنها، كانت قد أفضت بأمنيتها إلى أختها أم الفضل بنت الحارث رضى الله عنها، وحدثتها عما تحلم به من أن تكون زوجًا للرسول الأعظم ﷺ، ليكون لبنى هلال شرف مصاهرته، كما نال هذا الشرف قبلها: بنو تيم، وبنو عدىٍّ، وبنو أمية، وبنو مخزوم، وبنو أسد، وبنو المصطلق وغيرهم».

ويبدو أن أم الفضل لم تكتم هذا الخبر عن زوجها العباس بن عبد المطلب عم النبى ﷺ، وصنو أبيه ويبدو أيضًا أن العباس قد أفضى إلى ابن أخيه بأمنية ميمونة بنت الحارث الهلالية، فبعث رسول الله ﷺ ابن عمه جعفر بن أبى طالب ليخطبها، فما أن خرج جعفر من عندها، حتى سرت لهذا الخبر الميمون، فركبت بعيرها ثم انطلقت إلى حيث كان الرسول الحبيب ﷺ فى قبته بالأبطح، فما أن وقعت عيناها عليه حتى قالت: «البعير وما عليه لله ورسوله».

وتحدث الناس عما فعلت ميمونة، إنها لم تستطع الانتصار، فجاءت تهب نفسها لله ورسوله، وقد سماها رسول الله ﷺ ميمونة بعد أن كان برة.

سرى الهمس بين مرضى القلوب استخفافًا بالشابة التى استجابت استجابة صادقة لمشاعرها دون رياء، ووجد المنافقون فرصة للغمز واللمز، ومحاولة ذر الرماد فى العيون، وبذر بذور الاستياء فى قلوب المسلمين، وإذ ذاك أنزل الله عز وجل قرآنًا يتلى ويحسم أقوال أولئك الذين فى قلوبهم مرض قال الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٥٠).

ميمونة وزواج ميمون:

فى عمرة القضاء، انساب المهاجرون فى دروب مكة يستنشقون عبير أرض الذكريات الحلوة، ويتملسون مراتع الصبا والشباب فرحين مسرورين وكانت بعض بيوتهم خاوية لا حركة فيها، قد خيم عليها السكون، فتبعث الأسى فى النفوس، ولكنهم ألقوا عليها نظرات عابرة دون أن تترك أثرًا فى قلوبهم التى عمرها الإيمان بحب الله ورسوله.

كان المسلمون المهاجرون وهم فى المدينة المنورة، يستشعرون شوقًا شديدًا إلى مكة أم القرى، وكانت أعز أمانيهم أن يعودوا إليها، وأن يروا أقرباءهم، وأن يرووا ظمأهم من ماء زمزم، وأن يطوفوا بالبيت العتيق، فإذا بآماله كلها تتحقق، وهاهم أولاء اليوم يطوفون بالبيت العتيق وهم بصحبة الحبيب المصطفى ﷺ.

أقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاثًا، فلما أصبح من اليوم الرابع، أتى حُويطب بن عبد العزى ـ وقد أسلم فيما بعد ـ ونفر من مشركى قريش، فقالوا لرسول الله ﷺ، قد انقضى الأجل، فاخرج عنا فقد مضت الثلاث ـ وكان قد أتم عمرة القضاء ـ فقال: «وما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم، فصنعت لكم طعامًا فحضرتموه».

فقالوا: «لا حاجة لنا بطعامك، فاخرج عنا» فخرج النبى ﷺ، ونزل فى سرف فأقام بها.

ولما خرج رسول الله ﷺ من مكة، خلف مولاه أبا رافع ليحمل ميمونة أم المؤمنين إليه حين يمسى، ثم خرج أبو رافع بميمونة ليلحق رسول الله ﷺ والمسلمين فى سرف.

وفى ذلك الموضع، ضربت قبتها، وبنى رسول الله ﷺ بها فى هذه البقعة المباركة، ويومئذ سماها رسول الله ﷺ ميمونة فقد كان زواجه بها فى هذه المناسبة الميمونة التى دخل فيها مكة للمرة الأولى، منذ أن خرج منها مهاجرًا فى سبيل الله منذ سبعة أعوام كوامل.

وأعرس رسول الله ﷺ، بعد أن أحل من العمرة، وفرح الصحابة الكرام بهذه المناسبة الميمونة المباركة...

روى بعض أصحاب السنن وغيرهم عن أبى رافع ﷺ: «أن رسول الله ﷺ تزوج ميمونة حلالاً، وكنت الرسول بينهما».

وروى أبو داود بسنده عن ميمونة رضى الله عنها قالت: «تزوجنى رسول الله ﷺ ونحن حلالان بسَرِف».

وقال ابن سعد رحمه الله: «هى آخر امرأة تزوجها رسول الله ﷺ، يعنى ممن دخل بها».

دخلت ميمونة البيت النبوى ولما تتجاوز السادسة والعشرين، وإنه لشرف ما بعده شرف لميمونة، التى أحست كأنها ارتفعت حتى كادت تلمس الثريا ونجوم السماء، عندما نظمت فى عداد أمهات المؤمنين الطاهرات رضى الله عنهن وأرضاهن.

فى المدينة المنورة، دخلت ميمونة أم المؤمنين الحجرة التى أعدها رسول الله ﷺ، لتكون بيتًا لها، واستقبلت نساء النبى ﷺ ميمونة استقبالاً حسنًا، وأكرمن مثواها، إكرامًا لرسول الله ﷺ وطلبًا لمرضاة الله عز وجل.

أخذت ميمونة رضى الله عنها تستمع إلى الأحاديث النبوية من الرسول الكريم ﷺ، وتهتدى بما يقوله ﷺ، فكانت تكثر من الصلاة فى المسجد النبوى، لأنها سمعت النبى ﷺ يقول: «صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام».

ظلت أمنا الميمونة رضوان الله عليها فى البيت النبوى، وظلت مكانتها رفيعة عند رسول الله ﷺ، ولما اشتد المرض بالنبى ﷺ نزل فى بيتها، ثم انتقل إلى بيت عائشة رضى الله عنها ليمرض هنالك، فرحبت أم المؤمنين ميمونة بذلك ونقل إلى بيت عائشة.

روت أم المؤمنين عائشة هذا فقالت: «أول ما اشتكى رسول الله ﷺ فى بيت ميمونة، فاستأذن أزواجه أن يمرض فى بيتى، فأذنَّ له».

انتقل الرسول الكريم ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وهو راضٍ عن زوجاته الطاهرات، وكن تسعًا.

وقد نظم بعض العلماء زوجات النبى ﷺ اللواتى مات عنهن فقال:

توفى رسول الله عن تسع نسوة ... إليهن تعزى المكرمات وتنسبُ

فعائشة ميمونة وصفية جويرية مع سودة ثم زينبُ
كذا رملة مع هذا أيضًا وحفصة ثلاث وست نظمهن مهذبُ

ويبدو أن كبار الشعراء العلماء قد أغرموا فى هذا الفن العظيم، فتباروا فيما بينهم فى نظم أسماء النبى ﷺ، وأسماء زوجاته، وبناته، وأولاده، وصحبه المبشرين بالجنة، وكذلك أسماء من كان يشبهه، وأسماء الخلفاء وغير ذلك.

قال أحدهم وقد أدلى دلوه فى هذا المجال، فنظم أسماء نساء النبى ﷺ اللواتى بقين بعده ومات عنهن فقال:

توفى رسول الله عن تسع نسوة وهن ابنة الصديق رملة حفصة
جويرية هند وزينب سودة وميمونة والمصطفاة صفية

وهذا الباب طويل يحتاج إلى كتاب وحده.

مَيْمُونَةُ وابنُ أخْتِهَا:

لما كان عام الوفود، قدم وفد بنى هلال بن عامر، رهط أم المؤمنين ميمونة رضى الله عنها، وقدم فى وفدهم عبد عوف بن أصرم، فأسلم وسماه رسول الله ﷺ عبد الله، وقبيصة بن مخارق الذى له حديث فى الصدقات.

وذكر فى وفد بنى هلال زياد بن عبد الله بن مالك العامرى، فلما دخل المدينة المنورة، قصد منزل خالته ميمونة بنت الحارث، فدخل عليها، فلما دخل رسول الله ﷺ منزله، رآه فغضب ورجع.

فقالت له ميمونة: «يا رسول الله، إنه ابن أختى» فدخل، ثم خرج إلى المسجد، ومعه زياد فصلى الظهر، ثم أدنى زيادًا، فدعا له، ووضع يده على رأسه ثم حدرها على طرف أنفه، فكانت بنو هلال تقول: «ما زلنا نتعرف البركة فى وجه زياد مذ مسح رسول الله ﷺ على وجهه» وفى هذه البركة قال أحد الشعراء لزياد بن عبد الله هذا:

إن الذى مسح الرسول برأسه ودعا له بالخير عند المسجدِ
أعنى زيادًا لا أريد سواءَه من عابرٍ أو متهمٍ أو منجدِ
ما زال ذاك النور فى عرنينه حتى تبوأ بيته فى ملحدِ

مَيْمُونَة وشَهَادَةُ مَيْمُونَة:

عكفت أم المؤمنين ميمونة رضى الله عنها على العبادة والصلاة فى البيت النبوى، وأخذت تهتدى بهدى رسول الله ﷺ، فكانت تكثر من الصلاة والوقوف بين يدى الله عز وجل آناء الليل وأطراف النهار.

وفى البيت النبوى الطاهر، أخذت أمنا ميمونة تقتبس من أخلاق النبى ﷺ، وتمشى على الطريق الذى أمر به، وكانت شديدة غاية الشدة فيما يتعارض مع حدود الله عز وجل، ولعل تطبيق الحدود الإلهية من أجل ما كانت تحاول أم المؤمنين ميمونة تطبيقه والحض عليه.

ذكر ابن سعد رحمه الله: «أن ذا قرابة لميمونة أم المؤمنين رضى الله عنها، قد دخل عليها ذات يوم، فوجدت منه ريح شراب، فقالت وقد أخذها الغضب: والله لئن لم تخرج إلى المسلمين، فيقام عليك الحد بالجلد، لا تدخل علىَّ أبدًا بعد هذا اليوم، وأمرته بالخروج فخرج».

وهذا الموقف يشير إلى تمسك أمنا ميمونة بأوامر الله سبحانه وتعالى، وتطبيق السنة المطهرة، فلا يمكن لها أن تحابى قرابتها فى تعطيل حد من حدود الله تعالى.

وقد زكى رسول الله ﷺ إيمان ميمونة وشهد لها ولأخواتها بالإيمان، وحسن الثقة بالله سبحانه، فقد أوردت المصادر الوثيقة بإسنادها إلى ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال النبى ﷺ: «إن الأخوات لمؤمنات» وفى لفظ: «الأخوات مؤمنات» ميمونة زوج النبى ﷺ، وأم الفضل، وسلمى امرأة حمزة، وأسماء بنت عميس أختهن لأمهن.

وشهدت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها لميمونة بصفات كريمة، منها التقوى، وصلة الرحم، فقد قالت فى حقها بعد وفاتها: «ذهبت والله ميمونة، أما إنها كانت من أتقانا، وأوصلنا للرحم».

مِنْ حَافظَات الحَديث وراوياته:

نستطيع أن نقول: «إن أمنا ميمونة بنت الحارث واحدة من أمهات المؤمنين اللاتى نقلن لنا حديث رسول الله ﷺ».

كانت أم المؤمنين ميمونة ممن وعين الحديث الشريف، وتلقينه عن رسول الله ﷺ، وكانت حافظة متقنة، وتشير أخبارها التى وصلت إلينا بأنها شديدة التمسك بالهدى النبوى، وبالآثار المحمدية وشمائلها، ومنها حفظ الحديث النبوى الشريف، وروايته، ونقله إلى أئمة العلماء الذين كانوا يقصدون المدينة المنورة، ليأخذوا الحديث عن أمهات المؤمنين، وعن كبار الصحابة الذين عنوا برواية الحديث.

وكانت أم المؤمنين ميمونة أيضًا من الحافظات المكثرات لرواية الحديث النبوى الشريف من بين أمهات المؤمنين الطاهرات، ولم يسبقها فى هذا سوى اثنتين من أمهات المؤمنين وهما: أم المؤمنين عائشة التى روت (٢٢١٠) أحاديث، وأم سلمة أم المؤمنين التى روت (٣٧٨) حديثًا، ثم تأتى ميمونة فى المرتبة الثالثة إذ روت عن رسول الله ﷺ (٧٦ حديثًا).

وقد أخرج لها منها فى الصحيحين ثلاثة عشر حديثًا، المتفق عليه منها سبعة، وانفرد لها البخارى بحديث واحد، بينما انفرد مسلم بخمسة أحاديث.

ولم يحدد الإمام الذهبى رحمه الله أحاديث أمنا ميمونة، وإنما قال: «روت عدة أحاديث» بينما روى لها الإمام أحمد فى المسند (٦٣ حديثًا).

روى عن ميمونة رضى الله عنها أولاد أختها الأربعة وهم: عبد الله بن عباس، وعبد الله بن شداد بن الهاد، وعبيد بن السباق، ويزيد بن الأصم.

كما روى عنها عبد الرحمن بن السائب الهلالى، وكريب مولى ابن عباس، وربيبها عبيد الله الخولانى، ومولاها: سليمان بن يسار، وأخوه عطاء بن يسار، ومولاتها: ندبة، والعالية بنت سبيع وغيرهم.

ومما رواه لها البخارى وغيره، بسندٍ عن عبد الله بن شداد عن ميمونة، قالت: «كان النبى ﷺ يصلى على الخمرة»...

وأخرج لها البخارى أيضًا فى صحيحه بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما عن ميمونة أن رسول الله ﷺ سئل عن فأرةٍ سقطت فى سمنٍ فقال: «ألقوها، وما حولها فاطرحوه، وكلوا سمنكم».

ومما أخرجه أبو يعلى وغيره بسند عن ابن عباس عن ميمونة زوج النبى ﷺ قالت: «أصبح النبى ﷺ خاثرًا، ثم أمسى وهو كذلك، ثم أصبح وهو كذلك.

قالت: فقلت: يا رسول الله، ما لى أراك خاثرًا؟.

قال: «إن جبريل عليه السلام واعدنى أن يأتينى، وما أخلفنى».

قال: فنظروا فإذا جرو كلب تحت نضدٍ لهم، فأمر النبى ﷺ بذلك المكان فغسل بالماء، قال: وجاءه جبريل عليه السلام فقال له النبى ﷺ: «واعدتنى أن تأتينى وما أخلفتنى»!.

فقال له جبريل عليه السلام: «أوما علمت أنا لا ندخل بيتًا فيه كلبٌ ولا صورة».

ومما أخرجه ابن ماجه فى سننه بسنده عن عمران بن حذيفة عن أم المؤمنين ميمونة قال: «كانت تدان دينًا.

فقال لها بعض أهلها: لا تفعلى، وأنكر ذلك عليها.

قالت: بلى، إنى سمعت نبيى وخليلى ﷺ يقول: «ما من مسلم يدان دينًا يعلم الله منه أنه يريد أداءه، إلا أداه الله عنه فى الدنيا».

تلكم صورة من صور روايات الحديث الشريف التى دونتها كتب الحديث لأمنا ميمونة رضوان الله عليها.

الأَيَّامُ الأَخِيرةُ:

كانت أم المؤمنين ميمونة رضى الله عنها قد عاشت الخلافة الراشدة وهى تحظى باحترام الخلفاء والعلماء، وامتدت بها الحياة إلى خلافة معاوية رضي الله عنه.

قال الإمام الذهبى وغيره: «توفيت سنة إحدى وخمسين رضى الله عنها».

كانت أم المؤمنين ميمونة رضى الله عنها فى زيارةٍ لمكة المكرمة فى عام وفاتها، ولكن رسول الله ﷺ كان قد أخبرها أنها لا تموت بمكة.

روى هذا الأثر ابن أخيها يزيد الأصم قال: «ثقلت ميمونة زوج النبى ﷺ بمكة، وليس عندها من بنى أخيها، فقالت: أخرجونى من مكة، فإنى لا أموت بها، إن رسول الله ﷺ أخبرنى أنى لا أموت بمكة، قال: فحملوها حتى أتوا بها سَرِف إلى الشجرة التى بنى بها رسول الله ﷺ تحتها فى موضع القبة، فماتت فلما وضعناها فى لحدها أخذت ردائى فوضعته تحت خدها فى اللحد، فأخذه ابن عباس فرمى به».

وعن عطاء رحمه الله قال: «توفيت ميمونة بسَرِف، فخرجت مع ابن عباس إليها، فقال: «إذا رفعتم نعشها، فلا تُزَلْزِلُوها ولا تزعزعوها»».

وفى رواية: «ارفقوا بها، ولا تزعزعوا فإنها أمكم، وموضعها من رسول الله ﷺ موضعكم».

وهكذا جعل الله عز وجل المكان الذى تزوجت به ميمونة هو مكان وفاتها، قال يزيد بن الأصم: «دفنا ميمونة بسرف فى الظلة التى بنى فيها رسول الله ﷺ».

وقد صلى على جنازتها سيدنا عبد الله بن عباس، ودخل قبرها هو ويزيد بن الأصم وعبد الله بن شداد بن الهاد، وهم أولاد أخواتها.

هذه أمنا ميمونة بنت الحارث الهلالية، آخر حبات العقد الفريد، وإحدى أمهات المؤمنين اللواتى ينضوين تحت قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٣٣)صدق الله العظيم.

فهرس الموضـــــوعات